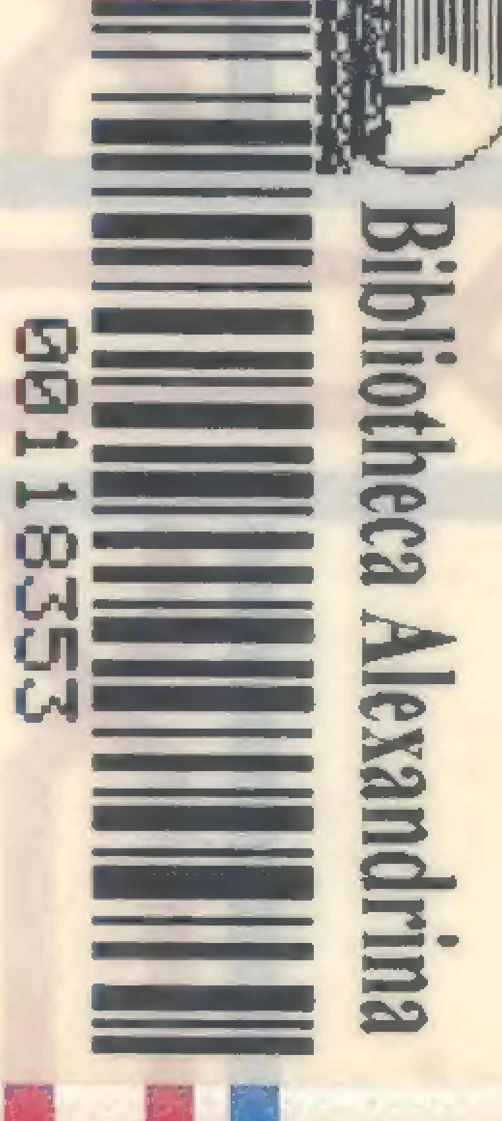
الدكتور/عبد الغفار عزيز

الديــن و السياسة
في
الأديان الثلاثة





الحقيقة للإعلام الدولي

دكتور عبد الغفار عزيز

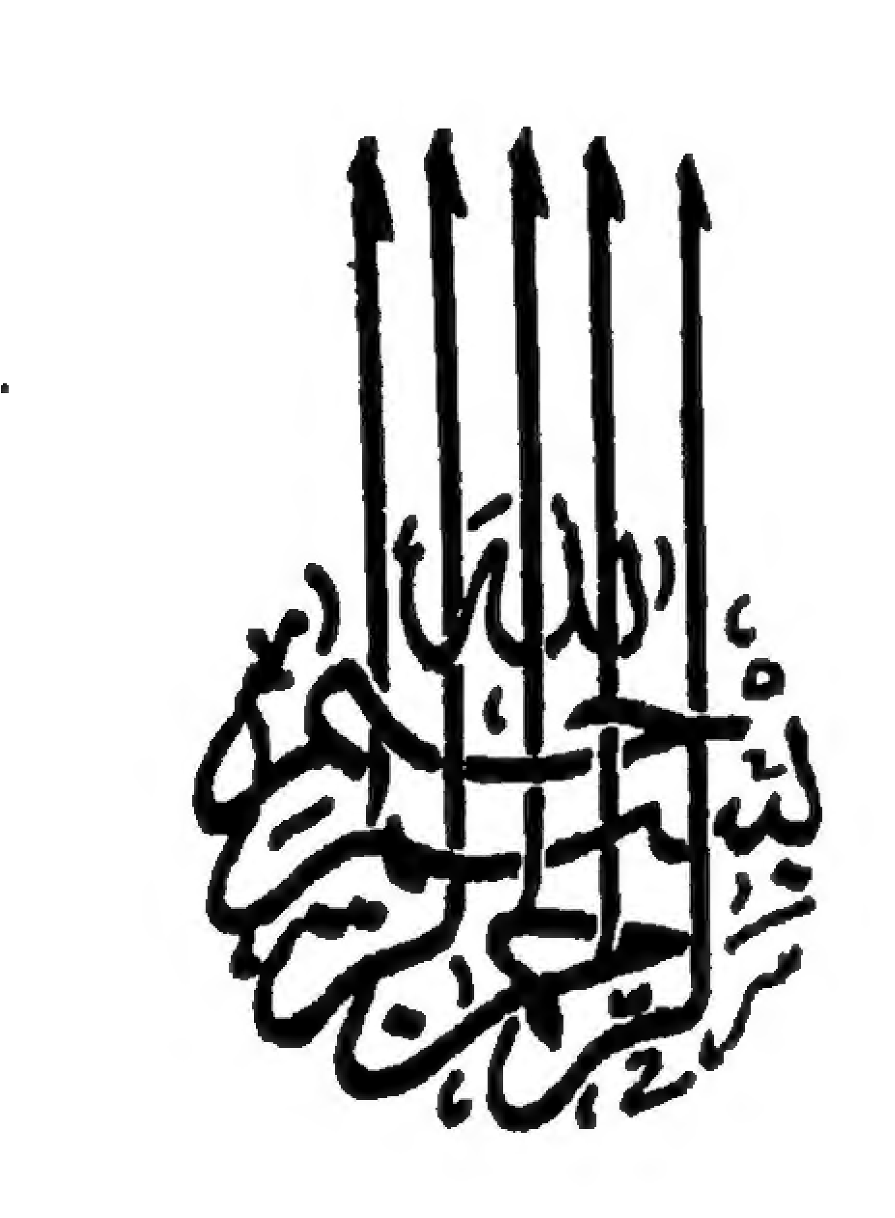
الديـن و السياسة
في
الأديان الثلاثة

الحقيقة للإعلام الدولي

دار الحقيقة للإعلام الدولي

١٧ شارع الدكتور عبد الغفار عزيز - دار السلام
القاهرة
تليفون ، فاكس : ٩٨١١١٩

المدير المسئول
مهندس
وائل عبد الغفار عزيز



مقدمة الناشر

نشرت كلمات هذا الكتاب لأول مرة في بداية السبعينات في أطروحة المؤلف للدكتوراة ، ونوقشت مع غيرها مما طرحه المؤلف من فكر جديد فى مناقشة من أكثر المناقشات صخباً وإثارة . ثم أعاد المؤلف طبعها عدة مرات في طبعات محدودة لطلبة كليات أصول الدين في القاهرة والمحافظات .

ويعتمد الكتاب على بدهيات شديدة الوضوح للتدليل على أن الإسلام دين ودولة ، فالقرآن ـ أول مصادر التشريع ـ به الكثير من أحكام البيع والشراء والمواريث والربا والقتال والحدود والطلاق ، وهي أحكام تختلف عن حقائق التوحيد وأصول العبادات ، وتحتاج إلى "دولة" تؤمن بها وتطبقها .

وخلافاً لما كان يتصوره كثير من المفكرين من أن الإسلام وحده هو الذي يستحق أن يشار إليه – رغم أنف الرافضين – على أنه دين ودولة ، فإن الكتاب يؤكد اشتمال الشريعتين اليهودية والنصرانية على مفهوم الدين والدولة ، ويقدم تبريراً تاريخياً موثقاً لتأسيس موسى عليه السلام دولة يهودية ، والأسباب التي حالت دون قيام المسيح عليه السلام بتأسيس الدولة . ويفند مقولة الإنجيل الشهيرة " أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله " فيرى أنها لا تعني فصل الدين عن الدولة ، ويعيدها إلى سياقها ليستخرج منها المعنى المقصود الذي

لا يبين للذين يقرأون بطريقة " ويل للمصلين " .

ويتابع الكتاب تطور إنشاء الدولة الإسلامية منذ بعثته صلى الله عليه وسلم حتى إعلان تأسيسها لأول مرة في بيعة العقبة الثانية ثم يتابع الخطوات التي اتخذها الرسول لتوطيد أركانها حتى كان لها الشأن الذي دك حصون كسرى وقصور قيصر .

ويجدر بنا أن نشير هنا .. إلى أن هذا الكتاب هو اللبنة الأولى في منظومة الدكتور عبد الغفار عزيز الفكرية ، وأنه مع غيره من الكتب والمقالات والخبرات العملية للمؤلف التي اكتسبها خلال أكثر من خمسة وعشرين عاماً من الجهاد المتواصل في حقل الدعوة الإسلامية .. يمثل تجربة خصبة ومقدمة رائعة لمفهوم الإسلام السياسي بجانبيه النظري والتطبيقي .

أما كتب الدكتور فتتعهد الدار بنشرها على التوالي كي تكتمل المنظومة .

وأما مقالاته فيجري الآن جمعها وتبويبها وإعدادها للنشر .

وأما الخبرات العملية .. فلا سبيل لنا لنقلها إلا بدعوته لكتابة ذكرياته عن الفترات التي عاصرها ، وخاصة تجربته الأخيرة في العمل السياسي ، لا سبيل لنا إلا دعوته ، والإلحاح في هذه الدعوة .

النـــاشـر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد الذي أقام بأمر الله دولة وأسس نظاما ايقيم به الحق والعدل وينشر الفضيلة والسلام .

وبعد

لو بحثنا عن الغرض الحقيقي من نزول الأديان وبعث الرسل لوجدنا أن ذلك لم يكن إلا إقامة الحق والخير في الأرض وإشاعة الفضيلة والدعوة إلي السلام .

ولو حاولناالمقارنة بين أصحاب الرسالات السماوية الكبري لوجدنا أن الأساس الذي قامت عليه دياناتهم واحد ، وأن الأصل واحد ، ويلفت نظرنا قول الله تعالى " إن الدين عند الله الإسلام " (١) .

فنفطن إلي أن المقصود من الإسلام هنا ، هو الإسلام الأكبر ، والدين الأوحد الذي نسب إليه إبراهيم (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) (٢) ، وهو بنفسه الذي وصي به يعقوب بنيه (يا بني إن الله اصطفي لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (٣) ، والذي أعلن حواريو عيسي الإيمان به والانتساب إليه حين قال لهم عيسي كما يحكي القرآن (من أنصاري إلي الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) (٤) .

(١)آل عمران :٦٧. (٣) البقرة :

(٢) آل عمران :١٩ . (٤) آل عمران :٥٢

والذي نجده في قول عيسي كما حكاه القرآن (مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)[1] ونجده أيضا في قوله كما يحكي الإنجيل (ما جئت لأنقض التوراة بل جئت لأكملها)[2] ونجده كذلك في قول الله تعالي عن القرآن وهو آخر الكتب السماوية (مصدقا لما بين يديه الكتاب ومهيمنا عليه)[3] ، ونجده أيضا في قول الرسول (ص) (مثلي مثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، وجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[4] ، وفي قول الرسول أيضا (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد)[5] .

فنؤمن في النهاية بعد ذلك كله ، بأن الرسالات السماوية كلها أساسها واحد وأصلها واحد والغرض منها واحد (شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسي وعيسي أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[6] .

وحين نحاول المقارنة بين الأساس لقيام الحكومات وبين ما يدعو إليه الدين ، نجده واحدا ، فالغاية من إقامة حكومات الدول عموما : هو تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم ومقصودها إقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم علي بعض .

---

(١) الصف :٦

(٢) انجيل متى إصحاح ٥-١٨

(٣) المائدة : ٤٨

(٤) رواه أبوهريرة . صحيح مسلم ص٥١ ج ١٥

(٥) تفسير ابن كثير ص ١٠٩ ج ٤

(٦) الشورى :١٣

وما التشريعات التي شرعها الله تبارك وتعالي للبشر إلا وسائل تؤدي إلي نفس هذه الغاية ، ولقد ظهرت حكمة هذا التشريع واضحة حين نص الله عليها مع الأحكام ، سواء منها ما كان خاصا بالمعاملات أو العبادات ، مثل قوله في القصاص **(ولكم في القصاص حياة)** [1] .

وفي شرب الخمر **(إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة)** [2] ، وفي حكمة الصلاة **(إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر)** [3] ، وفي الصيام **(لعلكم تتقون)** [4] ، وفي الزكاة **(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)** [5] ، وفي الحج **(ليشهدوا منافع لهم)** [6] .

وقد دل ذلك علي أن المقصود منها هو إصلاح حال الناس .

وحين نجد أن هذه العبادات كلها كانت في الأديان السابقة كما هي في الإسلام ، وكان فيها أيضا تشريعات للمعاملات وغير ذلك مما بينه القرآن واعترف به حين قال عن اليهود **(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ... إلخ)** [7] .

وقال عن كتابهم **(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء)** [8] .

---

(١) البقرة :١٧٩

(٢) المائدة :٩١

(٣) العنكبوت : ٤٥

(٤) البقرة :١٨٣

(٥) التوبة :١٠٣

(٦) الحج :١٢٨

(٧) المائدة : ٤٥

(٨) الأعراف :١٤٥

وتحدث عن الإنجيل فقال :

(وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) [1]

حين نجد ذلك ، نؤمن علي الفور أن الأديان عموماً قد جمعت بين الدين والدنيا حين تكفل الله تعالي بالانسان ككل روحه وجسده .

وما دامت الأديان بتشريعاتها قصدت إلى إقامة الحق والعدل والخير في الأرض ، وجعلت هذه العبادات مجرد وسائل للوصول إلي هذه العدل والخير المنشودين ، فهي ولا شك كانت تقصد إلى أن يظل هذه العدل والخير موجوداً وباستمرار ، لما كانت القاعدة أنه لابد لكل دعوة من الدعوات من قوة تحميها ، سواء كانت هذه الدعوة دعوة أرضية أو دعوة سماوية ، كان لابد من إيجاد هذه القوة لحماية هذه الدعوة ، أي لأن يظل العدل والخير في الأرض دون خوف عليه .

وحين قرأت التاريخ الإسلامي وجدت أن الرسول (ص) قد أقام الدولة الإسلامية لتكون قوة هذه الدعوة التي يدعو لها ، ولتظل حامية لها حتي تقوم الساعة .

ووجدت أنه من التجني علي الديانتين السابقتين أن ننفي عنهما أنهما غير مشتملتين علي أمور الدين والدنيا ، خاصة وأنه كما قلنا : الدين واحد والأساس الذي تدعو إليه الأديان كلها واحد ، والدليل علي اشتمالهما علي الأمرين موجود في القرآن نفسه .

---

(١)المائدة :٤٧

ولذلك كان لابد من تقرير اشتمال الشريعتين السماويتين السابقتين للإسلام علي الدين والدنيا أيضا باعتبارهما فرعين من الدين الأكبر (الأم) (إن الدين عند الله الإسلام) [1] .

وحين قرأت لكثير من الكتاب أن الدولة الإسلامية تأسست علي يد محمد (ص) عرضاً وليس غرضاً ، أي أن الرسول لم يكن يقصد أن يؤسس دولة كل ما هنالك أنه أصبح بعد انتقاله إلي المدينة في مركز القوة والسلطة ، فعد من هذه الناحية صاحب دولة وإن كان هو شخصياً لم يكن يعمل لها ، وأن مهمته فقط هي تبليغ الرسالة ويستدلون علي ذلك بمثل قوله تعالي :

(ما علي الرسول إلا البلاغ) [2] .

حين قرأت ذلك وجدت أن ذلك تجن علي الرسول وعلي الإسلام ، لأن الرسول (ص) عمل على تأسيس الدولة من أول يوم بعثه الله فيه ، حيث كانت ضرورة من الضرورات وجزءاً من رسالته كما كانت جزءاً من الرسالات السابقة ، فالرسول (ص) جمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، فأقام بهاتين السلطتين خير حكومة من حكومات الأرض في تاريخ البشرية ، وأسس للإنسانية أفضل المناهج في الحكم حيث فاضت القلوب باليقين الراسخ والطمأنينة الشاملة ، كذلك فالإسلام شأنه شأن الأديان السابقة أقام سلطة واحدة ذات شقين ، إحداهما دينية والأخري دنيوية ، وهما غير منفصلتين ، السلطة الأولي هي التي تنظم علاقة الإنسان بالإنسان وترسم لتلك العلاقة حدوداً في المعاملات بشتي ملابساتها .

---

(١) آل عمران : ١٩

(٢) المائدة :٩٩ .

والحقيقة أن الدين قد ارتبط بالدولة ارتباطاً كبيراً في الأديان كلها ارتباط القاعدة بالبناء ، لأن الدين هو أساس الدولة وموجهها .

إذ كيف يمكن اعتبار الصلاة والزكاة وبقية الفرائض ديناً فقط ، والنظر إلي إقامة الحدود والنظام العام للحكومة كجباية الأموال ، ووجود القضاء وتنفيذ أحكامه ، وسياسة الدولة الداخلية والخارجية علي أنها أمور سياسية فقط ، أو اعتبار الموارد العامة للدولة ومصارفها وطريقة تحصيلها ، وغير هذا من الأمور المتعلقة بنظام الدولة أموراً سياسية صرفة لا علاقة لها بالدين ؟ .

فالزكاة مثلاً مع أنها فرض من الفروض الدينية التي فرضت علي المسلمين إنما وضع لها نظام خاص ومقادير محددة معينة أوجب الشرع علي الدولة أن تتولاها بنفسها ، وألا تترك هذا إلي رغبة الناس وحرياتهم ، بل إن الصلاة التي هي علاقة خاصة بين العبد وربه أوجب الشرع علي ولي الأمر أن يطالب بها الأمة ، وأن يستتاب تاركها ثم يعزر أو يقتل علي تركها كما هو مبين بكتب الفقه ، والجرائم التي ترتكب سواء كانت تتعلق بالأفراد كالزنا وشرب الخمر أو تتعلق بالأمة كلها كقطع الطريق والسرقة وغيرها ، إنما جعل الشرع لها عقوبات محددة معينة ، وجعل إلي الدولة سلطة إتخاذ الإجراءات الكفيلة بمنع هذه الجرائم وتنفيذ العقوبات اللازمة المحددة لها .

ولذلك كان من الصعب التفريق في الإسلام بين ما يمكن أن يسمي ديناً فقط أو (سياسة فقط - لأن كل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والخلق والتربية دين - ومع ذلك يمكن أن يطلق عليه اسم (سياسة الإسلام في إصلاح العقيدة والعبادة) - أو سياسة الإسلام في التربية والخلق) وكذلك كل ما يتعلق بالمعاملات العامة دين -

يمكن أن نطلق عليه اسم (**سياسة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية**) .

وما يتعلق بالحكم وتدبير مصالح المسلمين دين أيضاً ، ومع ذلك يمكن أن نسميه (**نظام الإسلام السياسي في الحكم وإدارة الدولة**) .

وهكذا نري أن سياسة الدولة نفسها هي تنفيذ الدين - ويجب أن تكون مبنية عليه - لأن الغاية من إقامة حكومات الدول كما قلنا : هو تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم - ومقصودها إقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم علي بعض - وغاية الدين الإسلامي ومقصوده والذي يظهر لنا من أحكامه وحكمه وآياته - هي نفس غاية ومقصود الحكومات في الدول .

لهذا كان التنظيم الإداري للدولة في عهد النبي الحاكم تنظيماً كاملاً صيغ علي أساس أن يكون هذا التنظيم منهاجاً وأساساً وخطة عمل للمسلمين بعد ذلك ، واعتمد الرسول (ص) علي الدستور الدائم لهذه الدول (القرآن الكريم) باعتباره الأساس والأصل لكل القوانين والتشريعات التي يحتاج إليها الناس في حياتهم ، وقد ألزم الرسول (ص) نفسه بهذا القانون ، والتزم بما فصلته (الصحيفة) كقوانين وتشريعات اعتمدت علي هذه الأصل ولم يختلف ما فيها عما جاء فيه .

وكانت إدارة الدولة تعقيداً وتقنيناً لما يجب أن تكون عليه الإدارة بالنسبة لسياسة الحكم ، وكانت الشوري الأساس الأول من أسس هذا النظام الإسلامي ، وكان التقسيم الإداري للدولة وتعيين الوالة واختيار العمال ومحاسبتهم عن أعمالهم ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب حتي وإن كان أقل من غيره

تديناً لميزة معينة فيه ، أو خصوصية يرجح بها علي غيره في إدارة عمل من الأعمال ، واستعمال الكتاب والإحصاء ، وغير ذلك من النظم الإدارية دليلا علي أن الرسول (ص) جاء ليؤسس للمسلمين دولة ، وليقيم لهم نظاماً كاملا متكاملا هو السبيل إلي سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وكانت سياسة الرسول الإدارية تسير جنباً إلي جنب مع سياسته في تبليغ الدعوة ، بل كان لهذه السياسة الأخيرة أثرها الواضح في توطيد سلطان الدولة ، واعتمدت السياسة الإدارية دائماً وفي كل شيء علي الدعوة وجعلتها الهدف والغاية التي تسعي من أجلها ، بل عرف الرسول والمسلمون أن هذه الدولة بغير عقيدة لن تستمر أو تدوم ، ولذلك ظل الرسول (ص) وكان هذا جزءا من التنظيم الإداري للدولة نفسها ، زيادة علي كونه أساساً من أسس الدعوة نفسها التي أمر بتبليغها للعاملين ، ظل يعد الفقهاء والمعلمين بنفسه ومع المخلصين المدربين من أصحابه لمواجهة الحاجات المتزايدة لجماعة المسلمين ويدقق في اختيار الدعاة ، ويرسل الوفود من هؤلاء الدعاة إلي المناطق البعيدة لتعليمهم الدين والتبشير به بينهم ، باعتبار أن ذلك فريضة من الفرائض وجزءاً أيضاً من رسالة هذه الولة التي أسسها لتستمر وتدوم .

ولقد سارت الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين بعد وفاة المؤسس الأول لها صلوات الله وسلامه عليه . علي نفس الأسس والقواعد التي وضعها الرسول (ص) وكان حكمهم هو التطبيق العملي لنظام الحكم الإسلامي بعد غياب مؤسسه ، لأن الرسول (ص) لم يحدد نظاماً معيناً للحكم وإنما ترك للمسليمن إختيار النظام الملائم لطبيعتهم وبيئتهم وزمانهم . وبخاصة أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية صالحة لكل زمان ومكان .

بل إن اختيار المسلمين للخليفة الأول أبي بكر كان تطبيقاً للقاعدة التي قعدها النبي (ص) حيث أوجب الإسلام الشوري وهي أصل من أصول الحكم السليم ، ودعامة من دعائم تقرير العدالة بين الناس ، وكان ذلك من لوازم الحكومة الإسلامية ، لأنها كانت حكومة دستورية ، ليس الأمر فيها خاصٌ بفرد ، وإنما هو للأمة كلها ممثلة في أولي الحل والعقد . وكان هذا الاختيار المبني علي الشوري عهداً بين الخليفة ورعيته ، وتنفيذاً لوجوب ضرورة تنصيب حاكم للأمة يرعي شئونها الدينية والدنيوية .

وقد ظهرت في هذا العصر أنظمة إدارية جديدة لم تكن في عهد الرسول (ص) لتتفق مع حجم وتطور الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى (ص) .

وكان السبب في ظهور هذه النظم في عصر الراشدين بالذات لتكون سنة لمن بعدهم على أساس أن عصرهم عصر التوضيح للتشريع إن لم يكن امتداداً له في بعض فروعه التي لم تكن قد وضحت تماماً للناس ، وعصر التطبيق العملي لنظام الحكم الإسلامي ، على أساس أن الغاية والقصد من قيام هذا النظام هو تحقيق المصلحة العامة للناس مع ضرورة الالتزام بالشريعة ، حيث قام هذا النظام على أصول عامة قابلة لكل نظام يحقق هذه المصلحة مع ضرورة الالتزام بالشرع .

وحين نقارن بين النظام الإسلامي وغيره من النظم السياسية القديمة والحديثة يثبت لنا أن النظام الإسلامي نظام فريد ليس له شبيه بنظم الحكم المعروفة .

وقد راعيت في كل ما كتبت وأكتب عدم التعرض للروايات التاريخية المتضاربة والتزمت رأياً واحداً اقتنعت به شخصياً .

ونحن بهذا نريد أولاً للمسلمين أن يعرفوا حقيقة دينهم ، ولغير المسلمين أن يفهموا حقيقة الأديان وأسباب نزولها ، ولدعاة الحق أن يؤمنوا بالدعوة من أجل الحق ، ويتأكدوا أنهم يقومون بعمل عظيم ويشرفون بمهمة جليلة .

وصدق الله حين يقول (**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلي الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**)[1]

والله أسأل أنه يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به وأن يحيطني بتوفيقه ورعايته ، إنه نعم المولي ونعم المجيب .

د. عبد الغفار عزيز

(١)فصلت : ٣٣

الباب الأول

تأسيس الدول

جزء من الرسالات السماوية



أولًا : اليهودية :

كيف أسس موسى الدولة ؟

من المسلم به أن أى دعوة من الدعوات لكى تسود وتنتشر لابد لها من قوة تحميها وأتباع مخلصين يدعون لها ويعملون من أجل سيادتها وانتشارها سواء كانت هذه الدعوة دعوة سماوية أو دعوة أرضية ، نظام دينى أو فكر سياسى .

ولقد شاء الله أن تكون الرسالات السماوية فى حماية دول وحكومات تنتسب إلى هذه الرسالات تكفلت بالدعوة لها وحمايتها ونشرها .

ولقد جمع الله لليهودية اتباعا من بنى إسرائيل وغيرهم ممن آمنوا بموسى عليه السلام فهاجر بهم من مصر هربا من بطش فرعون وأذاه ، وانتقالا بهم إلى مكان يستطيع منه أن يعمل وهو آمن من أجل دعوته ورسالته وليؤسس لهذه الدعوة دولة تستطيع حمايتها ورعايتها ، والوقوف بها فى وجه السلطة التى تقف فى وجهها أو تحاول عرقلة سيرها وانتشارها .

وقد وصل موسى عليه السلام بأتباعه إلى سيناء واستقر بهم فيها وأسس لهم هناك دولة كان هو قائدها وزعيمها ، يشاركه فى حكمها الوزير النبى (هارون عليه السلام) ﴿**واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى ، أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى**﴾[1] .

فكان موسى عليه السلام قائدا سياسيا ودينيا ، ومشرعا يحكم بين أتباعه ورعايا دولته بما أنزل الله عليه ، يعيش أتباعه متعاونين متكاتفين بالتشريعات السماوية التى عرفهم إياها موسى عليه السلام وتعلموها من التوراة التى كانت تشتمل على كل ما يحتاجون إليه فى حياتهم سياسيا ودينيا ، والتى كان فيها كما يحكى القرآن «موعظة وتفصيلا لكل شىء» . وفى هذا يقول القرآن ﴿**وكتبنا**

---

(١) سورة طه : ٢٩ ــ ٣٢ ..

له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾[1] .

ولقد ظل هذا الشعب وهذا القائد (النبى) موسى عليه السلام يحكم بينهم بما أنزل الله عليه ويفتيهم ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم ملتزما فى ذلك بالدستور الإلهى السماوى (التوراة) .

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾[2] . **﴿لأن الناس كل الناس لا يعودون فى شئونهم إلى نفوسهم ولا إلى معلوماتهم بل إلى السيادة التى تتولى شئونهم﴾**[3] .

ولهذا عملت الحكومات القديمة فى دول العالم القديم على أن يكون الدين مصدر وجودهم فلا يقوم لها بنيان إلا به ، فتزلفت إلى الدين ليثبت بناؤها وتعتز مكانتها بل قاد هذا التزلف إلى ادعاء بعض الملوك أن لهم صلة بالألوهية فنظر بعض الشعوب إلى ملوكهم نظرتهم إلى الآلهة ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما ادعاه فرعون مصر من أنه الإله الأكبر **﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾**[4] .

ولقد أسس موسى عليه السلام جيشا ودربه على حمل السلاح إستعدادا لرد العدوان ودفاعا عن أنفسهم ووطنهم .

«وقد جاءوا إلى موسى عليه السلام بإحصاء بنى إسرائيل من يطيق حمل السلاح منهم ابتداء من سن العشرين فما فوق ؛ فوجدهم ستمائة ألف أو يزيدون وضرب عليهم الغزو ورتب المصاف والميمنة والميسرة وعين مكان كل سبط فى التبعية وجعل التابوت والمذبح فى القلب وعين لخدمتها بنى لاوى من أسباطهم وأسقط عنهم القتل لخدمة القبة»[5] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٥

(٢) سورة المائدة : ٤٤ .

(٣) كتاب الأزاهير المضمومة للشيخ أمين ظاهر خير الدين صليبا ص ٢٧٩ .

(٤) سورة النازعات : ٢٤ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ص ٨٥ جـ ٢ .

وقد حارب موسى عليه السلام بهذا الجيش وتحركت قواته فى حياته حتى نزلوا إلى شاطئ الأردن .

وقال الله لموسى عليه السلام كما تحكى التوراة (وقد ملكتكم ما بين الأردن والفرات كما وعدت آباءكم) وأكمل الله الشريعة والأحكام والوصايا لموسى وقبضه إليه وهو ابن مائة وعشرين عاما بعد أن عهد إلى فتاه يوشع أن يدخل بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة ليسكنوها ويعملوا بالشريعة التى فرضت عليهم فيها[1] .

وقد ذكر الألوسى فى تفسيره أنه رأى فى بعض الكتب أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ومكثوا فيها عشر سنين[2] .

كذلك نقل رشيد رضا فى تفسير المنار ما جاء فى حاشية لأحد مباحث المرحوم الدكتور محمد توفيق صدقى فى كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية (٤٤٦ ــ ٤٤٧) من مجلد المنار السادس عشر ما نصه :

(جاء فى كتاب الأصول البشرية ص ٨٨ لمؤلفه لينج أن يوسيفوس المؤرخ اليهودى الشهير نقل عن مانيتون هذه الرواية المصرية القديمة التى ملخصها أن موسى هزم فرعون مصر الذى فر إلى بلاد الحبشة وأنه حكم مصر ثلاثة عشر عاما وبعد ذلك عاد إليه فرعون هو وابنه ومعهما جيش عظيم فقهروه وأخرجوه منها إلى بلاد الشام[3] .

ويروى صاحب المنار رواية أخرى عن (بوست) فى قاموس الكتاب المقدس مجلد ١ (ص ٤١٠) يفهم منها هذا المعنى .

وصاحب المنار يؤيد هذا ويرى أنه موافق لما فى القرآن الكريم ويقول : «وأما مسألة حكم موسى لمصر والتمتع بها هو وقومه مدة من الزمن بعد الغرق فهو المتبادر من نحو قوله تعالى ﴿**فأراد** (أى فرعون) **أن يستفزهم من**

---

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ جـ ٢ .

(٣) دراسات إسلامية عبد المتعال الصعيدى ص ١٩ .

(١) تفسير المنار ص ٩٨ جـ ٩ .

الأرض فأغرقناه﴾ إلى قوله **﴿وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض .. الخ﴾**[١] .

وهو يؤكد صحة هذه الرواية فيقول[٢] (وأما مانيتون المذكور هنا والذى وافقت روايته ما جاء فى القرآن الشريف فكان كاهنا لمعبد من أقدم المعابد وأشهرها ، وقد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس فى القرن الثالث قبل المسيح ، وكان من أدق مؤرخى القدماء وأصدقهم ، وقد أخذ بأوثق المصادر وأصحها فى كتابة تاريخه .

وفى تفسير قول الله تعالى **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها﴾** .. الخ يذكر صاحب المنار أن الليث ابن سعد روى عنه أنه قال إنها أرض مصر التى كان فيها بنو إسرائيل ، ويقول أيضا : إن بعض المفسرين أطلق القول بأنها أرض مصر وفلسطين جميعا .

ثم يقول : ربما يتراءى إرادة أرض مصر هى الظاهر المتبادر من قوله تعالى فى قوم فرعون من سورة الشعراء (٥٧ ــ ٥٨) **﴿فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾** وقوله فيهم فى سورة الدخان (٢٥ ــ ٢٨) **﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾** لأن فرعون خرج بمن معه من الملأ والجند من مصر وتركوا ما كان فيها من النعيم إلى الغرق المؤدى إلى الجحيم .

وأنا أوافق إلى هذا الرأى خصوصاً وأنه يوافق ما جاء فى القرآن الكريم وصريح الآيات ، وقد قال به كثير من المفسرين وقد أورد القرطبى فى تفسيره (أن الأرض أرض الشام ومصر)[١] وقيل أراد جميع الأرض لأن من بنى

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) نفس المرجع السابق .

(١) لا يعنى هذا ــ أن بنى إسرائيل من حقهم سيناء لأن نبيهم موسى عليه السلام أسس فيها دولته ، كما لا يعنى حكم موسى لمصر فترة من الزمن على فرض صحة هذه الرواية أن لهم حقا فيها .

وإلا لكان معنى هذا تنازع العالم كله على ملكية الأرض ــ ومَن من الشعوب يستحقها ؟ حيث دارت الأرض بين كثير من الأجناس والشعوب ولم تظل على حالة واحدة . أو فى يد شعب واحد ــ وقد

إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الارض[1] .

وسواء حكم موسى مصر أو لم يحكمها فإنه مما لا شك فيه أنه كان حاكماً وكان صاحب دولة ، وقد روى بعض المؤرخين كالسمهودى وابن خلدون[2] أن موسى أرسل جيشا إلى عمالقة الحجاز بيثرب وهم أولاد عم لفراعنة مصر وأمرهم ألا يتركوا أحدا منهم بلغ الحلم ، وقد حاربهم جيش موسى وانتصر عليهم ونفذ فيهم وصية نبيهم ولم يتركوا إلا ابن الأرقم[3] ملكهم ، وكان وسيم الطلعة بهى المنظر جميل الوجه جليل النسب وأخذوه معهم إلى نبيهم ، وحين رجعوا وجدوا نبيهم موسى عليه السلام قد قبض . وحين سأل اليهود الجيش عن تنفيذ وصية موسى ، أخبروهم بأنهم لم يستبقوا إلا الأرقام ملكهم ، فقال بنو إسرائل حينئذ (إنكم عصاة حيث خالفتم أمر نبيكم . ولهذا فلن تدخلوا علينا بلادنا أبدا . فرجعوا إلى المدينة وساكنوا أهلها وبقوا بين ظهرانيها) .

ولقد حكى القرآن طلب موسى عليه السلام من بنى إسرائيل الدخول إلى أرض فلسطين لكنهم خافوا من العماليق الذين استوطنوها واستعمروها ، ولعله كان قد دعاهم إلى الله فأبوا ، قال موسى لقومه **﴿ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا** ....

دارت (مصر) بين الهكسوس — والرومان — والمسلمين والانجليز والفرنسيين وغيرهم ، فمن من الشعوب صاحب الحق فيها ؟

كما أن هذا لو كان هو القاعدة — لكان لأى دولة إسلامية الآن الحق فى استعادة أسبانيا والبرتغال حيث كان للمسلمين هناك دولة إسلامية تحكم باسم الإسلام لمدة ثمانية قرون كاملة وإن كان الإسلام يعطى المسلمين هذا الحق إلا أن منطق السياسة العالمية الذى يحكمونه الآن يرفض ذلك تماما .

والحقيقة أنه لا توجد دولة واحدة فى كل بلاد الدنيا . على ما هى عليه من يوم نشأتها إلى الآن ، بل إنه يصعب على الباحثين أن يثبتوا أصول الشعوب نفسها .

والأرض لله يورثها من يشاء من عباده — وصدق الله حين يقول **﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾** [الأنبياء ١٠٥] وفى سورة الأعراف آية ١٢٨ [**قال موسى لقومه إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**] .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٧ ص ٢٧٢ .

(٢) وثاء الوفاء ص ١٥٩ جـ ١ تاريخ ابن خلدون ص ٨٧ ، ٨٨ جـ ٢ .

(٣) السمهودى يروى أن أسمه الأرقم بن الأرقم .

خاسرين . قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾[1] .

ثم قالوا كما يحكى القرآن الكريم أيضا ﴿إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾[2] .

فكأنه طالبهم بالقتال ، والقتال لا يكون إلا بسلاح واستعداد وتدريب وهذا السلاح والاستعداد والتدريب لا يكون إلا فى جيش ، والجيش لا يكون إلا لدولة .

ولقد ثبت تاريخيا أنهم دخلوا إلى فلسطين فعلا بعد وفاة موسى عليه السلام ، وبعد انقضاء الأربعين عاما التى حكم الله بها عليهم أن يتيهوا فى الأرض .

فقد حارب (اليعاذر) بن هارون عليه السلام ببنى إسرائيل ملوك كنعان فهزموهم وقتلوهم وغنموا ما أصابوا معهم ، وهزموا سيحون ملك العموريين من كنعان وملكوا بلاده إلى حد عمورية وذلك حين رفض أن يمروا من أرضه إلى الأرض المقدسة وجمع قومه لمحاربتهم[3] .

وحارب يوشع فتى موسى عمالقة الشام وهزمهم وقتل آخر ملوكهم (السميدع هوبر بن مالك) .

ولقد تتبع يوشع سائر ملوك الشام وصلب عددا منهم واستباح منهم واحدا وثلاثين ملكا ، وقسم الأرض التى ملكها بين بنى إسرائيل[4] .

ولقد ظلت هذه الدولة اليهودية قوية مرهوبة الجانب عزيزة السلطان . أمرهم شورى بينهم يختارون للحكم فى عامتهم من شاءوا ويدفعون للحرب من يقوم بها من أسباطهم ولهم الخيار مع ذلك على من يلى شيئا من أمرهم وتارة

---

(١) المائدة ٢١ ــ ٢٢ .

(٢) المائدة ٢٤ .

(٣) ابن خلدون ص ٨٦ جـ ٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٨ .

يكون نبيا يدبرهم بالوحى وأقاموا على ذلك نحوا من ثلاثمائة عام[1] .

ظلت هذه الدولة كذلك حتى شاء الله أن تسقط وتنهار بعد إبتعادهم عن دينهم وسلط الله عليهم أمما أخرى حاربتهم وهزمتهم واسترقوا نساءهم وأولادهم وغنموا أموالهم واحتلوا أرضهم .

ولما أحسبوا بأن السبب فى هزيمتهم وإذلالهم وبقائهم على هذا الذل والهوان أنهم ابتعدوا عن الله وانحرفوا عن دينه ذهبوا إلى نبى لهم يقال له (شمعون) أو (شمويل)[2] وقالوا له كما يحكى القرآن ﴿**إبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين**﴾[3] .

ولقد اختار النبى شمعون لبنى إسرائيل الملك بوحى من الله وطلب منهم الإنقياد له والإنصياع لأمره كما حكى القرآن أيضا فى سورة البقرة ، وليس من اللازم أن يكون النبى نفسه هو المسئول سياسيا عن شئون الدولة مسئولية مباشرة ، ولذلك لم يطلب بنو إسرائيل من شمعون هذا أن يتولى هو بنفسه شئون الدولة ، وأن يكون هو الحاكم الرسمى المسئول عنها سياسيا .

ولا يعنى هذا إنفصال الدين عن الدولة ، بل على العكس لم يكن بنى إسرائيل يستطيعون التصرف فى أمر من أمورهم الدينية والدنيوية على السواء إلا عن طريق الوحى لأن شريعتهم شريعة خاصة موقوتة بزمان معين وليست عامة ولا عالمية كشريعة الإسلام .

وفى سفر الملوك الأول العددان ١٥ ، ١٦ من الفصل ١٩ (قال الرب للنبى إلياس إذهب وامسح «حذائيل» ملكا على آرام ، وامسح «ياهو بن نمشى» ملكا على إسرائيل ، وامسح «اليشع بن شفاط» من آيل محولة نبيا عوضا عنك)[4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ص ٣٠٠ جـ ١ .

(٣) سورة البقرة : ٢٤ .

(٤) الأزاهير المضمومة .

فأنت ترى أن الله تبارك وتعالى أمر النبى إلياس أن ينصب ملكا على آرام وملكا على إسرائيل وأن يختار وينصب اليشع نبيا عوضا عنه .

والمعروف أن أنبياء بنى إسراؤيل كثروا إلى حد كبير حتى بالغ بعض المفسرين فقال (أن بنى إسرائيل قتلوا من أنبيائهم ثلاثمائة نبى فى يوم واحد)[1] .

وعن قتلهم لأنبيائهم يحكى القرآن الكريم ﴿**لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون**﴾[2] .

ولقد أشار الرسول (ﷺ) إلى أن بنى إسرائيل كانت الأنبياء تسوسهم وأنهم من الكثرة بحيث أنه كلما مات نبى خلفه آخر فيروى مسلم عن رسول الله ﷺ قوله « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى وستكون خلفاء فتكثر . فقالوا فما تأمرنا . قال فوا ببيعة الأول فالأول »[3] .

ومعنى تسوسهم الأنبياء أى يتولوا أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية ، والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ص ١٠٢ جـ ١ .

(٢) المائدة : ٧٠ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ص ٢٣٠ ، ٢٣١ جـ ١٢ .

ثانيا : النصرانيــة :

ولماذا لم يؤسس المسيح دولة ؟

وإن قيل إن عيسى عليه السلام كان رسولا فقط ولم يكن ملكا ولا حاكما بل ولم يعمل من أجل قيام دولة تحمل على كاهلها عبء الدعوة التى يدعو إليها . نقول :

إن رسالة المسيح عليه السلام جاءت على أثر اختلال المجتمع الشرقى اليهودى عن طريق طغيان المادية والفردية وتحكم النزعات الممزقة لعلاقات الأفراد وأواصر القربى بينهم ، ولذا كانت دعوتها لكى تعيد التوازن إلى الأخوة والتسامح والمحبة . كانت دعوتها إلى الروحية فى مقابل المادية وآثارها المخربة المقوضة للمجتمع[1] **﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾**[2] .

والمعروف أن رسالة عيسى عليه السلام لم تستمر أكثر من (ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام)[1] وما كان عيسى ليستطيع فى هذه الفترة القصيرة من الزمان أن يكون من شعب كهذا قوة يقف بها فى وجه الظلم والطغيان ، خاصة وأن تكوين الدول وتأسيسها يحتاج إلى مجهودات ضخمة وظروف طبيعية تساعد على تكوينها وتأسيسها ، ولذلك فهى فى حاجة إلى وقت وزمان طويلين لهذا التأسيس .

ولم يستطع موسى عليه السلام أن يؤسس دولته التى كان يحكمها إلا بعد أن خرج بأتباعه الذين هم رعايا دولته الجديدة من مصر واستقر بهم فى سيناء

---

(٣) الإسلام فى الواقع الأيدلوجى د . محمد البهى ص ١٥٥ .

(٤) المائدة : ٤٦ .

(١) الملل والنحل للشهر ستانى ٢٠١ (تخريج المرحوم الدكتور محمد بن فتح الله بدران

بعيدا عن مناوأة الدول الأخرى ، حتى استطاع فيما بعد أن يجعل من هذه الدولة قوة ؛ ويؤسس لها الجيش الذى يحمى به دولته وتحتمى فيه الدعوة التى لابد لها ولغيرها من قوة تحميها .

كذلك فإن الرسول محمد ﷺ لم يؤسس دولة فى يوم وليلة وإنما ظل يعمل لتأسيسها طيلة عشر سنوات فى مكة حتى بيعة العقبة الثانية التى أصبح بعدها زعيما سياسيا وقائدا للمسلمين ، وظل بعد الهجرة وإلى آخر يوم فى حياته يقوى فى هذه الدولة ويجمع بين شتات قبائلها المتفرقة ويوحد بين بطونها الممزقة .

والمسيح لكى يؤسس دولة كدولة موسى أو محمد عليهما السلام كان فى حاجة إلى جيش قوى يحارب به دولة الرومان العظمى التى كانت تحتل بلاده . وكان فى حاجة إلى أتباع أقوياء مخلصين يستعين بهم على هؤلاء الخصوم وليكون منهم هذا الجيش ، لكن المسيح عليه السلام وجد فى مجتمع منحل مهزوم محتل إحتلالا أجنبيا ، كذلك لم تستمر دعوته أكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام كما قلنا .

ولم يكن هو نفسه يستطيع أن يحمى نفسه من بطش الغير ولم يكن أتباعه أقوياء ولا مخلصين ، بل إن أقرب الناس إليه هو الذى وشى به ليقتل .

ولهذا لم تتأسس الدولة المسيحية على يد المسيح نفسه الذى كان يسير هو وأتباعه على ما تأمرهم به التوراة باعتبارها الأصل والأساس ، ويؤمن هو وأتباعه بما فيها من الأمور الدينية والدنيوية على السواء .

ولذا قال لاتباعه (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل)[1] .

ولو نظرنا إلى المجتمع الذى ظهر فيه موسى عليه السلام والمجتمع الذى ظهر فيه محمد ﷺ لوجدنا أنه كان من الضرورى أن تتأسس على يد كل واحد منهما دولة — فموسى عليه السلام كان فى مصر وكان نظام الحكم فيها نظاما

(١) إنجيل متى إصحاح ٥ — ٨

ملحدا بعيدا عن العقيدة الصحيحة والإيمان السوى ، والشعب لا يؤمن بوجود إله قادر واحد ، وكان ينظر إلى فرعون على أنه إله قادر متسلط فكان لابد من تغيير هذا الوضع الفاسد ، وتأسيس دولة موحدة تسير على شريعة الهداية ، وتنهج نهجا سليما صحيحا تقر فيه العدالة والخير . ولم يكن موسى عليه السلام ليستطيع أن يفعل هذا بمصر وحكامها أقوياء وأتباعه من بنى إسرائيل مستضعفين . فهاجر بهم إلى سيناء وأسس دولته بأمر الله ، ثم رجع إلى مصر ففتحها وحكمها ثلاثة عشر عاما أو عشر سنوات كما روى من قبل .

ثم ظلت دولته تدعو إلى الله سبحانه وتحارب الشرك والوثنية وتفتح المسالك والبلدان التى تقف فى طريق الدعوة وتعرقل مسيرتها .

كذلك فإن رسول الله ﷺ ظهر فى مجتمع شرك وإنحلال وفساد تماما كالمجتمع الذى ظهر فيه موسى ، فكان لابد من تغيير هذا النظام الفاسد وتكوين دولة يكون الحكم فيها لله ، فأسس (الدولة الإسلامية) وأخذ يعمل على تأسيسها من أول يوم بعثه الله تعالى إلى الناس ، ولم يستطع الرسول ﷺ بأتباعه القليلين فى مكة أن يحارب نظام الحكم القائم فيها ؛ ولا أن يكون منهم جيشا يستطيع أن يقف به فى وجه السلطة فى مكة ؛ وهى التى تحارب دعوته وتعرقل مسيرتها تماما مثلما حدث لموسى عليه السلام مما اضطره إلى الهجرة بأتباعه إلى مكان آمن شاء الله أن تقوم فيه الدولة الإسلامية ، ثم عاد الرسول ﷺ إلى مكة واستطاع فتحها وحارب المناوئين له ولدعوته ولدولته ، الواقفين فى طريق هذه الدعوة وهذه الدولة ، وفتح الله على يد هذه الدولة الممالك وسادت شريعة الإسلام وانتصرت وكان لابد أن تسود وتنتشر ؛ فإن الرسول وإن كانت وظيفته الأساسية هى إبلاغ الرسالة ﴿**ما على الرسول إلا البلاغ**﴾[1] إلا أنه لم يكن مجرد معلم أو واعظ فحسب ، ولكنه داع تتمخض دعوته عن حركة إيجابية تبقى وتستمر بعد وفاته ، فالأنبياء محررون اجتماعيون روحيون حملت حركاتهم التحررية بين طياتها معنى كفاح الطبقات ؛ حيث كانوا ينشدون مجتمعا لا طبقى تسوده المساواة والعدالة ويعمه الرخاء ، ولا

(١) المائدة : ٩٦ .

يمكن إيجاد هذا المجتمع المثالى ولا استمراره إلا فى ظل دولة تحميه وتدعو له .

أما عيسى عليه السلام فقد وجد كما قلنا فى مجتمع كتابى يؤمن بكتاب سماوى ويسير على شريعة إلآهية سماوية ، ولم يكن الشعب بحاجة إلى تغيير هذا النظام وإنما كانت حاجته إلى تهذيب النفوس والبعد عن الشهوات المادية التى جرفت مجتمع المسيح عليه السلام ، ولذلك كانت دعوة المسيح عليه السلام دعوة روحانية أكثر منها دعوة مادية ، لا كرها فى الدنيا ولا طلبا لرهبنة تدعو إليها المسيحية كما تصور بعض الناس (**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم**)[1]

وإنما لمحاولة ايقاف هذا التيار المادى القوى الذى لا يمكن تحويله إلا بتيار آخر مضاد ، حتى يمكن التوازن فيما بينهما ؛ ومع ذلك فإن الحواريين حملوا مسئولية نشر هذه الدعوة وقيض الله لها بعد ذلك ملكا قويا اعتنق المسيحية هو قسطنطين الأكبر الذى كان اعتناقه للمسيحية وجعلها الدين الرسمى فى عهد خليفته ؛ سببا فى انتشارها فى كثير من بلاد العالم ، ولو لم تكن هذه الدولة التى قيضها الله للمسيحية ما انتشرت هذا الانتشار .

ولعل من أسباب قلة عدد اليهود فى العالم اليوم عدم وجود دولة تدعو باسمهم وتحمى دعوتهم قبل تأسيس دولة إسرائيل أخيرا فى فلسطين ، خصوصا بعد أن تحطمت دولتهم على يد طيطس الرومانى سنة ٧٠ ميلادية ، هذا مع عدم إيمانهم بالتبشير بالدين اليهودى لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وليس لغيرهم أن يشاركهم هذا الشرف .

وقد قلنا إن تاريخ الأديان وغير الأديان يدل على أن الحسام لم يستقر فى غمده فى يوم من الأيام وقد امتشقه أنبياء الهندوس واليهود[1] .

إذن فقد كان من الضرورى لأى دين من الأديان أن تكون له دولة تدعو باسمه وتحمى حماه وتفرض فى بعض الأحيان سلطانها على الآخرين لنشر هذا الدين لمصلحتهم التى قد يجهلونها عن غير قصد منهم ؛ ويكونون فى هذه الحالة

---

(١) الحديد ٢٧

(١) يطلق على دعاة الهندوس أنبياء تجوزا .

كالسفيه أو الطفل الصغير الذى أوجب الشرع منعه من حرية التصرف لمصلحته التى يجهلها ، وإذا كان هناك أنبياء لم تكن لهم دول ، ولم يكن لهم سلطان سياسى فى بلادهم ، وقد وصل الأمر إلى حد الاعتداء على حياتهم وقتل بعضهم كما حدث ليحيى وزكريا وغيرهم من أنبياء بنى إسرائيل ، فإن هذا لم يحدث ولم يكن ليحدث لأصحاب الرسالات والدعوات الكبرى كاليهودية والمسيحية والإسلام ، لأن الله كان لابد أن يتعهد هذه الرسالات ويمنع عن أصحابها الأذى.وليس فى تاريخ الأديان ما يثبت أن صاحب رسالة قد قتل أو حتى منع نهائيا من أداء رسالته ، لأنه لو عجز عن إبلاغ هذه الرسالة لكان معناه عجز الإله عن حماية هذه الدعوة والرسالة التى كلف الرسول تبليغها .

صحيح أن الأنبياء جميعا دون استثناء أوذوا فى تبليغ هذه الرسالات ووقفت عقبات كبرى فى طريق الدعوة لها ، وهذا شئ طبيعى فإنهم ما أرسلوا إلا فى مجتمعات فاسدة ضالة ، وليس من طبيعة النفوس أن تهتدى بمجرد سماع الوعظ والإرشاد .

كما أن الرسالة عبارة عن انقلاب شامل للمجتمع يقصد به تغيير كلى فى أوضاع هذا المجتمع الفاسد .

وقد أخذ الأنبياء على عاتقهم قضية حاجة الإنسان إلى الدين وإرساء القواعد المعنوية والخلقية للمجتمع الإنسانى ، وما كانت حركاتهم لتكون روحية ، بحتة وإنما أولوا عنايتهم أيضا لتحرير الإنسان معنويا واجتماعيا .

وقد تكفل الله لأصحاب الرسالات الكبرى بتمكينهم من تبليغ هذه الرسالات وحفظهم ونصرهم ، ولذلك كانت النهاية لكثير من أقوام هؤلاء الرسل بعد بذل كل المحاولات لإقناعهم وتغيير مفاسدهم ، إعلان الحرب الإلهية ضد هذه الاقوام ، إما بعذاب دنيوى كما حدث لآل فرعون قبل إغراقهم **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾**[1] .

(١) الأعراف : ١٣٣ .

وإما بإبادتهم إبادة كاملة كما حدث لقوم نوح حين أغرقوا بالطوفان وثمود وصالح بأن أرسل عليهم الصيحة والصاعقة ، وقوم لوط حين أباد الله قراهم وجعل عاليها سافلها أو بانتصار الرسول عليهم بعد الدخول معهم فى حرب كما حدث لموسى وداوود وسليمان ومحمد عليهم السلام .

الأدلة على إشتمال الشريعتين اليهودية والنصرانية على الدين والدولة :

ومن أدلتنا على إثبات أن كتاب اليهود (التوراة) كان دستورا مشتملا على تشريعات دنيوية مع الشرائع الدينية . وأن عيسى عليه السلام جاء تابعا لشريعة موسى ومصدقا لما بين يديه من التوراة ؛ وأن القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه أى شاهدا على ما قبله من الكتب لأنه خاتمها وأشملها وأكملها ؛ حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره ؛ ولذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها[1] ما يحكيه القرآن فى سورة المائدة عن التوراة وكيف أن الله أنزل ﴿**فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾[2] .

وأن الله كتب عليهم فيها أنه ﴿**النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص**﴾[3] .

وكيف تحدث القرآن بعد ذكره للتوراة عن أنه جعل النبيين يحكمون بها وذكره لبعض ما كتبه فيها من الحدود كالقصاص والزنا وهى تشريعات دنيوية بين الله حكم الشرع فيها ثم قال ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**﴾[4] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ص ٦٥ جـ ٢ .
(٢) المائدة : ٤٤ .
(٣) المائدة : ٤٥ .
(٤) المائدة : ٤٦ .

ثم بين أن الإنجيل فيه أحكام ، وأن أهل الإنجيل لابد أن يحكموا بما أنزل الله فيه ، ثم تتحدث الآيات القرآنية بعد ذلك مباشرة عن إنزال القرآن مصدقا لما سبق من الكتب ومهيمنا عليها ، وأن الحكمة الإلهية جعلت لكل نبى شرعة ومنهاجا فتقول **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾**[1] . ونظرا لما فى هذه الآيات من أدلة تفيد أن الكتب السماوية السابقة على القرآن كان فيها هى الأخرى تفصيل لأحكام وتشريعات دنيوية مثل القصاص ، وأحكام الزنا ، وغير ذلك من أحكام ، وأن الله كان يطالبهم بتنفيذ هذه الأحكام ويوبخهم حين يتعدون عن الحكم بما أنزل الله فى هذه الأمور لذا فإنا سنضطر للحديث عنها بشىء من التفصيل .

قال تعالى فى وصف اليهود **﴿سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاؤكم فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾**[2] .

قيل نزلت فى يهوديين زنيا . وكان اليهود قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم من الأمر برجم من أحصن فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين : فلما وقعت تلك الحادثة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم تعالوا حتى نتحاكم إليه ؛ أى إلى محمد ﷺ فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبى من أنبياء الله قد حكم بذلك بينكم وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه ، وقد وردت الأحاديث بذلك[3] .

ولذلك رد الله عليهم بقوله **﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم**

(١) المائدة : ٤٨ .

(٢) المائدة : ٤٢ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير ص ٥٨ .

الله﴾[1] ثم قال ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[1] . وإن كان ابن كثير يروى سببا آخر من أسباب نزول هذه الآيات فيروى عن ابن عباس أن الله أنزلها فى طائفتين من اليهود . كانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن قتلى بنى النضير تؤدى لهم الدية كاملة ؛ وأن قريظة كان يؤدى لهم نصف الدية .

فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم فحملهم رسول الله على الحق فى ذلك فجعل الدية فى ذلك سواء[2] .

وسواء كان سبب النزول حادثة الزنا أو القتل فإن ذلك يؤكد أن شريعتهم كان فيها تفصيل لهذه الأحكام وهى أحكام تتصل إتصالا مباشرا بنظام الحكم ، وقد وبخهم الله تعالى لعدم حكمهم فى هذه الأمور بما أنزل الله عليهم .

ثم أخذ القرآن يوضح بعضا من هذه التشريعات مما هى موجودة فى التوراة فقال ﴿**وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف .... الخ**﴾[3] .

ثم قال ﴿**وقفينا على آثارهم**﴾ يعنى أنبياء بنى إسرائيل (**بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة**) أى مؤمنا بها حاكما بما فيها ﴿**وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور**﴾ أى هدى إلى الحق ونوراً يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿**ومصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ أى متبعا لها غير مخالف لما فيها إلا القليل مما بين لبنى إسرائيل بعض ما كانوا فيه يختلفون[4] .

ثم قال الله ﴿**وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾[5] .

ثم شرع بعد ذلك فى ذكر القرآن العظيم الذى أنزل الله على عبده ورسوله

---

(١) المائدة : ٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ص ٦٠ جـ ٢ .

(٣) المائدة : ٤٥ .

(٤) راجع تفسير ابن كثير ص ٦٤ جـ ٢

(٥) المائدة : ٤٧ .

الكريم بعد أن ذكر التوراة التى أنزلها على موسى كليمه ومدحها وأثنى عليها ، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الإتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله باقامته واتباع ما فيه[1] .

فقال تعالى ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾[2] ، أى فاحكم يامحمد ﷺ بين الناس عربهم عجمهم وأميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك من هذا الكتاب العظيم وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه فى شرعك[3] .

من كل هذا ومن هذا الترتيب لذكر الأديان السماوية الكبرى وكتبها يتبين لنا أن الأديان السابقة قبل الإسلام هى فروع من الإسلام الأكبر والدين الأوحد ، وأنها كانت مشتملة على أمور تشريعية للحكم والسياسة ولكل ما يحتاج إليه الناس فى دنياهم ، وأنا لا أتصور أبدا فصل الدين عن الدنيا فى أى دين أو أى عصر أو أى مصر .

فالدين دين الله وهو دين واحد فى الأولين والآخرين يستوى فى ذلك اليهودية والمسيحية والإسلام . ولا تختلف هذه الديانات إلا فى الصور والمظاهر أما الروح والحقيقة فلا تتغير بتغير الأزمان ولا بتغير الأماكن . وما طولب به العالمون أجمعون على ألسنة كل الأنبياء والمرسلين لا يتغير وهو : الإيمان بالله وحده ، والإخلاص لله فى العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم لبعض فى الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولا يتنافى هذا مع الارتقاء فى الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم فى كمال الهداية .

وإذا كانت المسيحية قد دعت إلى الروحية فإنها لم تقصد أبدا إلى العزلة عن الحياة كما لم تقصد إطلاقا إلى ما سمى فيما بعد بانفصالية الدولة عن الدين إذ

---

(١) تفسير ابن كثير صفحة ٦٦ جـ ٢ .

(٢) المائدة : ٤٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ص ٦٦ جـ ٢ .

الروحية وهى المعانى والقيم الإنسانية من المحبة والإخاء والتسامح ، لا تعنى فى قليل ولا كثير الإنصراف تماما عن شئون الحياة . كما لا تعنى توزيع الفرد بين سلطتين يخضع لأحدهما بجسمه ويخضع لثانيتهما بنفسه أو روحه[1] . والمسيح عليه السلام هو روح الله وكلمته ورسوله إلى بنى إسرائيل ، بعث كما حكى القرآن «**مصدقا لما بين يديه من التوراة**» وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شئون معاشهم ومعادهم . ولم يطالبهم المسيح أبداً بتعطيل قوة من قواهم التى منحهم الله إياها بل طالبهم بشكر الله عليها ولا يشكر حق الشكر إلا بإستعمالها جميعا فيما أعدها الله له .

وإذا كان المسيحيون قد نظروا إلى دينهم نظرة مجافية لواقع الأديان عموما ، وقالوا إن الدين قد أقام سلطتين منفصلتين تماما إحداهما خاصة بالدين والأخرى مستقلة عنها تماما . وخاصة بالدنيا ، فإنهم برغم إعتقادهم هذا لا يزالون حائرين ؛ لأنهم يجدون أن السلطتين تتنازعان وكل واحدة منهما تريد التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معا .

وليس من السهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف فى أبدانهم وأموالهم بل فى عقولهم أيدى الحكام والملوك ، بما تقتضيه مصالح الملك الفانى إذا كان ذلك التصرف مخالفا لما جاء فى الكتب السماوية أو لتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم ، فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة فهل تصبر الأخرى ؟

وهذا هو الذى وقع فى العالم المسيحى منذ ظهرت سلطة الدين وحتى الآن ، وكيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها ، والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ويمتد نفوذها بقوة إلى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء ، ولا قوة للحكومة ولا للسلطان إلا بأولئك الناس المغلوبين لسلطة الدين . وهل يستطيع البدن المحكوم بالسلطة الدنيوية أن يأتى بأعمال مستقلة عن الروح الذى يحيا بها . وهل تستطيع الأرواح أن تأتى أعمالها بدون الأبدان التى تحمل قواها[2] .

---

(١) الإسلام فى الواقع الأيدلوجى : الدكتور محمد البهى ص ١٥٥ .

(٢) الإسلام والنصرانية للمرحوم الشيخ محمد عبده ص ٤٦ وما قبلها بتصرف .

لقد أخذ المسيحيون جملة قالها المسيح فى ظروف معينة واعتبروها نصا قاطعا فى فصل الدين عن الدولة وهى قوله عليه السلام (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ولكنهم لو عرفوا سبب هذا الكلام لفهموا أن المسيح لم يقصد بها ما فهموه هم .

فالقصة على ما جاء فى الإنجيل[1] أن رؤساء الكهنة والكتبة اليهود أرادوا أن يكيدوا للمسيح بعد أن ناقشهم وأفحمهم . ففكروا فى حيلة ليتخلصوا منه . فراقبوه وأرسلوا جواسيس يظهرون أنهم أبرار لكى يمسكوه بكلمة ؛ حتى يسلموه إلى حكم الوالى وسلطانه ، فسألوه قائلين (يامعلم نعلم أنك بالاستقامة تتكلم وتعلم ولا تقبل الوجوه إلا بالحق ـــ تعلم طريق الله ـــ أيجوز لنا أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فشعر بمكرهم ، وقال لهم لماذا تجربوننى ؟ أرونى ديناراً . لمن الصورة والكتابة فجابوه وقالوا لقيصر فقال لهم : أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب وتعجبوا من جوابه وسكتوا) .

ومعنى هذا الكلام وهو الظاهر من سياق القصة . أن صاحب العملة التى تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئاً فادفعوا له ، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من الله وعليه طابع صنعه فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً[1] .

ولقد قال المسيح ما قال لأنه عرف كما يحكى الإنجيل أنهم يريدون أن يأخذوا عليه كلاماً فى حق الحاكم ليسلموا إليه ويتخلصوا منه ، وكان هؤلاء جواسيس بنص الإنجيل ، وهو قد شعر بمكرهم وكيدهم وقال لهم لماذا يجربوننى ؟ وعرف مقصدهم وما يرمون إليه .

فكان من السفه أن يقع أمامهم بما يؤخذ عليه ويكون سبباً فى معاقبته بسبب الخوض فى حق الحاكم . ولذلك بعد أن قال لهم ما قال . قال لوقا (فلم

---

(١) إنجيل لوقا إصحاح ٢٠ ـــ ٢٧ .

(١) الإسلام والنصرانية ص ٤٦ .

يقدروا على أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب) ومع ذلك فقد تكلم بالحقيقة دون أن يؤخذ عليه مأخذ .

وهو حين طلب منهم الدينار وسألهم عما عليه من الصورة والكتابة إنما أراد أن يخبرهم بأن قيصر هو صاحب المال وهو الذى أمر بطبعه أو سكه ويستطيع كحاكم متملك على هذا الشعب متحكم فيه أن يمنع هذه الدنانير ، ومادامت له فاعطوها إياه مادام قد طلبها أو فرضها على هذا الشعب فهى حقه أما حق الله فلا تعطوه إلا لله .

فكان هذا إفحاماً من عيسى لهؤلاء الأعداء (جواسيس الرومان) .

يقول الشيخ محمد عبده «والعلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله ، فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية الدينية فأى تسامح مع العلم فى هذا[1]»؟

ولقد كان المسيح عليه السلام يحض على طاعة الحكومة السائدة للأمة ويؤدى الضريبة الموضوعة عليه عن نفسه كتابع للدولة الرومانية ، وعن تلميذه سمعان الذى أوعز إليه أن يؤدى عنه تلك الضريبه[2] .

ولا يعنى هذا أبداً أن المسيحية دين روحى خالص ليس للدنيا فيه نصيب ، وإنما كان وضع الأمة وظروفها يحتمان على المسيح وأتباعه وهم قلة ألا يناصبوا الحكومة العداء فلا يقفون فى وجه السلطان وهم ضعاف .

ولكن المسيح برغم هذا صرح للحاكم الرومانى الأعلى فى ولاية اليهودية بأن السلطة الدنيوية التى وليها من جانب رومية هى فى الحقيقة صادرة من لدن الخالق ، فقد قال للحاكم الرومانى (لم يكن لك سلطان على البتة إن لم تكن قد أعطيت من فوق) والمراد بفوق ، القدرة الإلهية هى فوق كل الخليقة وهى التى تعرف باسم الدين[3] .

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) الأزاهير المضمومة ص ٢٦٦ .

(٣) نفس المرجع السابق .

مقصودنا من الحديث عن اشتمال اليهودية والمسيحية على الدين والدنيا :

حين نتحدث عن اليهودية والنصرانية إنما نتحدث عن كتاب موسى وكتاب عيسى وعن الرسالات الصحيحة غير المحرفة .

فكتاب موسى ورسالة إبراهيم وما أنزل على الرسل من بعدهم هو الإسلام الذى جاء به القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من هذه الرسالات .

وحين نقول هذا ، نقوله حتى لا يعترض معترض ويقول : كيف نقول إن اليهودية والمسيحية قد اشتملتا على الدين والدنيا مع أننا لا نجد واحداً يقول بذلك خاصة من المسيحين بالذات ، وأن المسيحيين قد فصلوا الدين عن الدولة لما ثبت لهم عدم اتفاقهما ، نقول :

إنهم قد اختلفوا عن دين الله ورسالته سواء على عهد موسى أو عهد عيسى عليهما السلام وقد أثبت القرآن الكريم هذا حيث جعل اليهود والنصارى دينهم دين النخبة الممتازة والصفوة المختارة ، **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾**[1] .

فهم حرفوا وغيروا وبدلوا فى دين الله ، وبهذا التحريف والتبديل والتغيير حال أن يكون الدين فى اليهودية والمسيحية وفى دولهم المعاصرة من مقومات الدولة كدول عصرية يجب أن تسوى بين جميع الأفراد فى الاعتبار البشرى وفى حرية العقيدة .

وحين أعطى المسيحيون القداسة والعصمة للبشر ، وربطوا بين الله وابن الله والروح القدس وآمنوا بحلول الوحدة والتثليث وربطوا بينهما وبين رئيس الحكومة الإلهية الذى جعلوا له وحده حق القول والتفسير وحق الطاعة وحق الولاء ....

---

(١) سورة المائدة : آية ١٨ .

حين صنعوا ذلك أصطدمت المجتمعات المسيحية المعاصرة مع هذا السيد الكنسي ، فثاروا ضده ، واستنكروا هذه القداسة والعصمة للإنسان فى دين الكنيسة وأعلنوا فصل الدين عن الدولة وذلك بعد أن تغيرت رسالة الله لعيسى بن مريم (عليه السلام) وتحولت إلى مسيحية الكنيسة وأقامت هذه عليها سلطة سياسية وحكومة إلهية معصومة عن الخطأ ، ومن شأنها عندئذ أن تحول دون اعتبارها مقوماً فى دولة إنسانية تصيب وتخطىء فى تقديرها ، كما تحولت قبلها وبعدها رسالة موسى عليه السلام إلى دين النخبة الممتازة والشعب المختار وتحولت إلى اليهودية ومن شأنها عندئذ أيضاً أن تحول دون اعتبارها مقوماً فى دولة عصرية لا فرق بين الأفراد فيها ، ولا ترى للشعوبية أثراً فى تمييز هؤلاء الأفراد بعضهم عن بعض[1] .

ولهذا جاء الإسلام مصححاً لتحريف الرسالتين الباقتين قبله ولبيان ما اختلف فيه أهل الكتاب هنا وهناك عن كتاب الله ،وليضع الناس جميعاً أمام الاعتبار البشرى ويرفع العصمة عن الإنسان إلا فى نطاق ما يكلف به رسول لتبليغه من وحى الله إلى الناس وهو بهذا يصحح ما اختلف فيه النصارى واليهود من كتاب الله ودينه وهو كتاب موسى وعيسى ومحمد على السواء .

والدكتور محمد البهى فى كتابه (الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر ص ١٤٥) لا يفرق بين الأديان جميعها فى أنها إنما ظهرت لتغيير الوضع الاجتماعى وأنها تأتى عقب اختلال واضح فى توازن المجتمع ويقرر بأن هذا ليس قاصراً على الرسالات الدينية سواء منها ما كان دينياً أو فلسفياً وأنها لا تأتى إلا عقب هذا الاختلال ؛ ويقول :

«إن كل نظم الحكم فى الجماعة الإنسانية تعطى لنفسها الحق فى أنها قامت لتزيل الاختلال فى التوازن وتحقق العدل الاجتماعى» .

ثم يتحدث بعد هذا عن فلسفة الثورة الفرنسية وأسباب قيامها وثورات

---

(١) ص ٣٦ من مجلة الفكر الإسلامى السنة الأولى العدد العاشر جمادى الثانية ١٣٩٠ هـ من مقال الدكتور/ محمد البهى .

القرن العشرين كالشيوعية والفاشية النازية الأولى فى إيطاليا والثانية فى المانيا .

ويتحدث عن الفلسفة الخاصة لكل هذه الثورات والتى بررت قيامها ثم يتحدث عن الرسالات الدينية (ص ١٥٤) فيقول :

لو انتقلنا من هذه الثورات جميعها ومن فلسفتها الخاصة بها المبررة لقيامها واستمرارها إلى تلك الرسالات الدينية التى تمثل ثوزات ومبررات لهذه الثورات ؛ نجدها قامت على أثر إختلال فى توازن المجتمع لتقييد الميزان أو لتقييد وضع التوازن الموجود فى المجتمع الإنسانى . ﴿**إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً**﴾[1] .

ويتحدث عن رسالة المسيح التى جاءت على أثر إختلال المجتمع الشرقى اليهودى ، ثم يقول : إن الإسلام جاء أيضاً ليعيد توازن المجتمع الإنسانى من جديد بعد إختلاله .

وقد خلص من هذا كله إلى أن الرسالات الدينية عبارة عن ثورات مثلها مثل الثورات التى قادها زعماء وتوفر على توضيحها فلاسفة ؛ فقد جاءت هى الأخرى بسبب إختلال التوازن من جديد فى مجتمعاتها التى قامت فيها .

ثم يرى ص ١٥٨ : أن كل ثورة قامت فى أى مجتمع إنسانى أو قدر لها أن تقوم يلاحظ فيها جانبان رئيسيان :

الأول : جانب سياسى .

الثانى : جانب إنسانى .

وبعد أن يتحدث عن الجانب السياسى (١٥٩ — ١٦٠) والذى يتمثل فى أن تتاح للفرد الحرية فى الحياة .

ويتحدث عن الجانب الأخلاقى فى (ص ١٦١) الذى يتمثل فى الإحتفاظ بكرامة الفرد حيث لا تهدر آدميته وإنسانيته فيقول (هذان المفهومان للحرية والكرامة الإنسانية للفرد وتحديدها على هذا النحو منبثق من معنى الثورة) .

---

(١) سورة القصص : آية : ٤ .

أى الثورة التى قامت لتزيل إختلال التوازن وتعيد من جديد علاقات الأفراد إلى الوضع الطبيعى .

وليس تحديدها الآن مشتقاً ومتنوعاً من ثورة بعينها ، وكما أن تحديدها مشتق من طبيعة الثورة فتلازم أحدهما الآخر من لوازم هذه الطبيعة الأصلية السياسة التى على أساس توفير الحرية الفردية فى المجتمع لا تنفصل عن الأخلاق التى تدعو لتوفير الكرامة الإنسانية والإحتفاظ بهذه الكرامة فى السلوك والتصرف .

ثم يقول :

(وهنا تتضح العلاقة المشتركة بين معنى الثورة ومعنى الرسالة الدينية فكلتاهما تهدف إلى تحقيق الأمرين معاً فى المجتمع البشرى) .

ثم يقول :

وهنا نشير مرة أخرى إلى أن فصل السياسة عن الأخلاق فى حياة الإنسان والمجتمع فصل مصطنع .

ويواصل كلامه لإثبات تلازم الدين والدنيا والسياسة والأخلاق كما عبر عنها أرسطو فيقول :

(وأرسطو الفيلسوف الاغريقى عندما ربط بين السياسة والأخلاق كان طبيعياً فى تفكيره وكان بعيداً عن التأثر بالعوامل التى اصطنعت هذا الفصل فيما بعد فى تاريخ الفكر البشرى)[1] .

فهل يصبح هناك شك بعد كل ما قيل فى أن الأديان جميعها مشتملة على الدين والدنيا ؟

وأن الله تكفل بحفظها ورعايتها وأسس لها دولا تحميها وتدعو لها وتحمل اسمها ؟

---

(١) الإسلام فى الواقع الأيدلوجى د . محمد البهى ص ١٦١ ، ١٦٢ .

الدين والدولة فى الإسلام :

والإسلام ككل الأديان السابقة كان لابد له من دولة تحميه ، وجماعة مؤمنة مخلصة تدعو له وتخلص فى هذه الدعوة ، مما يجعلنا نقرر أن الأديان جميعها إنما هى مشتملة على الدين والدنيا معاً ، لأن الله تعالى هو الذى خلق النفوس وحماها من الانحراف والضلاب ورسم لها ما يكفل سعادة الدنيا والآخرة .

وإذا كان من البديهات التى لا تحتمل الشك أن الإسلام **دين ودولة** ، دين يستمد منه التشريع والالهام ، تقوم على مبادئه القوانين والأنظمة والحكم الأعلى فيما يختص بتفسيره وتقنينه إجماع رجال الدين من الأئمة الحفظة الثقات الذين تخصصوا لهذا وأعدوا له حكومة يشرف عليها رجال السياسة والدبلوماسية والخبراء المهرة فى فنون الحكم والادارة ، القادة الدهاة أصحاب الفهم الواسع فى مشاكل العالم وأنظمته وحكوماته ومناوراته

حيث لا تجد السياسة فى الدين ما يقف دون مصلحة ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة خصوصاً إذا كان القابضون على زمام الأمور من حصافة الرأى وفى منعة من أن يطيش بهم التقليد أو إرضاء لطائفة خاصة ، إلا أن يروا الفساد صلاحا فيشرعوه أو يروا الصلاح فى لون الفساد فينصرفوا عنه .

إذا كان هذا فى الإسلام وقد قرره عشرات المستشرقين بعد إجماع المسلمين عليه ، واعتبرنا أنه من البديهيات التى لا تحتمل الشك ، فإنى وإنصافاً للحق وإقراراً به أرى أن اليهودية الصحيحة والمسيحية الصحيحة وهى إستمرار للشريعة اليهودية ، كانتا تشتملان أيضاً على خيرى الدنيا والآخرة ؛ أى أنهما دين ودولة أيضاً ؛ ولا داعى للتعنت والتعصب الأعمى ؛ وتقرير أن الدين الإسلامى وحده هو دين ودولة ، وأن غيره من الأديان فيه هذه الخصوصية ؛ ولكن من الإنصاف أن نقرر أن اليهودية والمسيحية ديانتان موقوتتان بزمام معين أى إلى ظهور الإسلام ، وهاتان الديانتان فرعان من الدين الأصلى الأم ؛ الإسلام .

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[1] .

ديانتان فيهما من المصالح الدنيوية والتشريعات السياسية وحاجات أتباعهما فى الناحية الروحية والدنيوية ما يكفل لهم السعادة وما يوصلهم إلى طريق الهدى والنور .

وإن كانت هذه المصالح الدنيوية والتشريعات السياسية فى هاتين الديانتين تشريعات محددة مؤقتة أيضاً لأنها موقوتة حتى يأتى الإسلام ؛ ولذلك كان فيها تفصيل وتحديد على خلاف ما فى القرآن الكريم وهو الدستور النهائى الكامل الشامل المهيمن على ما قبله من كتب (دساتير) الصالح لكل زمان ومكان .

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾[2] وهو الذى تقتضى الحكمة كماله وشموله بأن تكون مواده عامة بلا تفصيل جزئى حتى تتناسب مع كل العصور والأزمان ، خاصة وأنه خاتم الكتب ورسوله محمد ﷺ خاتم الرسل ورسالته خاتمة الرسالات .

ولذلك كان نظام الحكم فى اليهودية نظاماً إلهياً سماوياً مفصلا لا يتصرفون فيه إلا بوحى ، والأنبياء تسوسهم كما ثبت فى حديث رسول الله ﷺ أو تختار لهم حكامهم كما حدث واختار (شمويل) النبى ملكا على بنى إسرائيل بعد أن طلبوا منه ذلك ، وقد حددت لهم الأمور تحديداً وكان فى التوراة كما يحكى القرآن . ﴿موعظة وتفصيلا لكل شىء﴾ .

وكانت أنبياؤهم من الكثرة بحيث يسهل عليهم معرفة أى شىء فى دينهم ودنياهم ؛ وقد قال الرسول ﷺ فى الحديث الذى ذكرناه إن الأنبياء كانت تسوسهم وتحكمهم وأنه كلما هلك نبى خلفه نبى .

وأما الإسلام وباعتباره نهاية الشرائع وختام الحلقة فى سلسلة الديانات والشرائع ؛ وهيمنة دستوره القرآن الكريم على ما قبله من دساتير (الكتب السماوية) ....

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .

(٢) سورة المائدة : آية ٤٨ .

فلقد كان من الضرورى وهو الدين الخاتم أن يشتمل وتشتمل شريعته بنصوصها وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع وأن تكون هذه الشريعة أحكم ما تساس به الأمم ، وأصلح ما يقتضى عند التباس المصالح أو التنازع في الحقوق . وقد أجمع علماء المسلمين على هذه الحقوق وعرفها عامتهم فمن أنكر واحدة منها فقد ابتغى فى غير هداية الإسلام سبيلا .

فالمجتمع البشرى فى نظر الإسلام مجتمع متكامل ليس فيه إختلال ولا تطرف ، أى أنه لا يعتمد على طرف واحد من الطرفين ﴿**المادية والروحية**﴾ وهو لهذا لا يعرف الانفصالية فى حياة الإنسان .

وليس المجتمع البشرى فى نظر تعاليم الإسلام بموجود مستقل عن الأفراد فى علاقات بعضهم ببعض .

وكما لا يستقل فى محيط الفرد جسم الإنسان عن روحه كذلك فى محيط المجتمع لا يستقل فرد عن فرد ولذا لا يعرف الإسلام الانفصالية فى حياة الإنسان فلا يفرق فى ولائه بين ما لله وما لغير الله من إنسان[1] .

﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيراً وأحسن تأويلا﴾[2] .

---

(١) الإسلام فى الواقع الأيدلوجى د . محمد البهى .
(٢) سورة النساء : آية ٥٩ .

محاولة الغربيين إخضاع الإسلام لتحديدهم الخاص لمفهوم الدين والدولة عندهم

يقول الدكتور محمد البهى فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) وهو يتحدث عن الدين والدولة كيف أن الفكر الغربى والمسيحيون الغربيون يحاولون حين دراستهم للإسلام إخضاعه للتحديد الذى يحددونه هم للدين والدولة ؛ وإذا رفض الإسلام هذا التحديد فى شأنه بأنه ليس وحيا ولا رسالة من السماء وهو على الأكثر رسالة إصلاحية قام بها زعيم أو مصلح إنسانى[1] .

ويقول أما تحديده بالدين والدولة معاً فمأخوذ من واقع الصلة بين المسيحية والحكومة فى نظر الغربيين أنفسهم ، تلك الصلة التى تأثرت بعوامل مختلفة وتبلورت أخيراً فيما يسمى الآن بالكنيسة والدولة أو بتمايز السلطتين[2] .

ثم يقول وعلى أساس من الفصل بين الكنيسة والحكومة حدد الغربيون معنى الدين فأرادوا به التوجيه الروحى بين الأفراد كما حددوا معنى الدولة والحكومة ، فقصدوا بها تنظيم العلاقات بين الأفراد واستعانوا فى هذا التحديد بموقف المسيح فى قومه وبطابع رسالته إلى شعب إسرائيل وهى رسالة المحبة بين ذوى القربى .

ثم يقول[3] : وبهذا كان الدين فى تصور الغربيين مشتقا من طابع الرسالة التى جاء بها عيسى وكذا الحال التى إنتهى إليها النزاع بين الكنيسة والحكومة الغربية ؛ وأصبحت الروحية أو الدعوة إلى صفاء النفوس التى كدرتها شرور المادة والتزاحم فى الحياة الدنيوية مجال اختصاص الدين وما خرج عن نطاق هذه الدعوة فليس من شئون الدين ، ويرجع فيه إلى المصلحة العامة التى

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د . محمد البهى ص ٢٥ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٢٦ .

تقدرها الرعاية البشرية العامة للجماعة ، وهى تلك الرعاية التى تمثل السلطة الحكومية أو الدولة .

ثم يستطرد ويقول[1] : ومن الغريب أنهم يقفون بهذا التطبيق عند حد الإسلام وحده ولا يتجاوزونه إلى اليهودية مثلا ، فلا ينكرون عليها طبيعة الدين إذا ما اتخذته أساسا لقيام دولة إسرائيل ، وإذا ما حاول اليهود فى العالم وضع خريطة هذه الدولة وتنفيذها طبقا لتعاليم العهد القديم وطبقا لما جاء فى هذا العهد خاصا بشعب الله المختار ، وإذا ما حاولوا أيضا جعل اليهودية دستوراً لعلاقات بعضهم ببعض داخل إسرائيل وكذا لعلاقات هذه الدولة بالعالم الخارجى وبالأخص لجيرانها من العرب .

والدكتور البهى يفسر وجهة نظر هؤلاء للإسلام على أنهم يرونه مجرد دعوة للصفاء النفسى ؛ ويخرج عن طبيعة الدين ويدخل فى مجال الإصلاح البشرى فقط ، ومن ثم كان تنظيمه لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض آية على بشريته فى تقدير الغربيين المسيحيين .

ويقول الدكتور البهى[2] : والمسلمون المجددون وهم أولئك الذين تأثروا بالغربيين فى نظرتهم إلى الحياة كلها ، وليس هنا مجددون فى الشرق الإسلامى لم يتأثروا بالغربيين ، بعد أن يقروا هؤلاء على نظرتهم للدين وعلى تحديدهم لمعناه ومفهومه يحاولون أن يجدوا تخريجا لهذه الفضلة فى الإسلام حتى يبقوه دينا ، وحتى ينال فى الوقت نفسه رضاء علماء الغرب عن الإسلام والمسلمين لا كمسيحيين ولا كمؤمنين به وإنما كمشاركين للغربيين فى الحياة الحاضرة .

هذه الفضلة هى موضوع التخريج ، أو هى موضوع من موضعات التجديد فى الفكر الإسلامى الحديث ، وادعاء أن الإسلام دين لا دولة واحدة من تخريجات عدة لهذه الفضلة التى عابت الإسلام كدين ، ووقفت فى طريق اعتراف الغرب المسيحى المتحضر به .

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د . محمد البهى ص ٢٢٧ .
(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ .

ويرى الدكتور البهى : أن هذه التخريجات المتنوعة كلها تؤول إلى شئ واحد هو إلغاء شخصية الجماعة الإسلامية .

ويرى أيضا أن تصريح بعض المسلمين بأن الإسلام دين لا دولة كان واضحا فى قصر الإسلام على الأفراد دون الجماعة ، وبعبارة أخرى كان واضحا فى إلغاء شخصية الجماعة الإسلامية ، وكان واضحا أيضا فى محاولة إلغاء الجهاد أو إنكاره على الإسلام كرسالة من رسالات السماء مع أنه جزء لا يتجزأ منه[1] .

ثم يرد الدكتور البهى : على كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبد الرازق الذى يعرض دعوى أن دين الإسلام دين لا دولة ، ويفند ما يراه مؤلف هذا الكتاب من أن الزعامة النبوية موقوتة بوقت الرسول وبشخصه ولا تكون لإنسان آخر بعده مهما بلغ من سمو المنزلة فى نفسه ، أو بين المسلمين وأن الإسلام دين فقط وما يدعو إليه من وحدة بين المؤمنين به هو وحدة دينية لا وحدة فى الحكومة أو الدولة أو الترابط السياسى والعلاقات العامة[2] .

ويقول الدكتور البهى : وكان لابد للكتاب من أن يتعرض لفكرة الجهاد فى الإسلام كمظهر من المظاهر التى تجعله دين جماعة وليس دينا لمجموعة من الناس ؛ مما لا يساعد على الوقوف بالإسلام عند حد الدين فى عرف الغربيين ، فقد تعرض لها فعلا وشرحها أخيراً على أنها من خصائص الزعامة النبوية ، فهى إذن موقوته بوقتها ولذا فقد انتهى أمر الجهاد بوفاة صاحب هذه الزعامة ، وانتهت بذلك شخصية الجماعة الإسلامية ؛ وبقى المسلمون بعد وفاته أفراداً يختار على فريق منهم الاتجاه السياسى الذى ينزع إليه ولو كان اتجاها شيوعيا .

ثم يقول: وهو الذى ينتهى إليه الكتاب بالنتيجة التى ينتهى إليها تفكير السيد أحمد خان ومذهب القاديانية من إلغاء الشخصية الإسلامية[3] .

وأنا هنا لا أحاول ذكر النصوص التى ذكرها الشيخ على عبد الرازق

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٢) راجع المرجع السابق صفحات ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٣) الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى د . محمد البهى ص ٢٣٠ — ٢٤٠ .

لإثبات أن الإسلام دين لا دولة جريا وراء المستشرقين والتجديد فى الفكر الإسلامى حتى وإن أدى إلى إلغاء بدهية من البدهيات ، ولكن سأحاول باختصار إثبات أن الإسلام دين ودولة حتى.إن صمم علماء الغرب على أنه مجرد رسالة إصلاحية بشرية تقوم على الدعوة والصفاء النفسى .

والغريب أن تجربة توزيع السلطة فى الغرب بين الكنيسة والدولة وهو ما يعرف بالفصل بين الدين والدولة ، لم تثمر الإحتكاك بين السلطتين فقط بل كان من ثمراتها إخضاع إحدى السلطتين للأخرى فى النهاية ؛ وفى واقع الأمر كان هو اخضاع الدول للكنيسة فالدولة الغربية الحديثة فى أوربا وأمريكا تعتمد على النظام الديمقراطى وهو نظام التصويت الشعبى ، وفى معركة التصويت الشعبى يتفوق الحزب السياسى الذى يبذل لتنفيذ اتجاه الكنيسة من الوعود والعهود أكثرها إذا ما وصل إلى كرسى الحكم ، ومظهر الفصل بين السلطتين فى الغرب يتجلى فى فرض الضرائب وجبايتها ؛ فللدولة ضرائب وللكنيسة ضرائب أخرى ، والسلطة التنفيذية لا تتدخل فى تشريع ضرائب الكنيسة وإنما تتدخل فقط فى تحصيلها لصالح الكنيسة للعهد بين السلطتين .

إن رجال السياسة فى الغرب عامة يعرفون جيدا الثمن الذى دفعوه للفاتيكان مقابل تأييده للحلفاء ضد النازية والفاشية فى الحرب الأخيرة ويعرفون جيدا الثمن الذى يدفعونه الآن لقاء تعضيده مقاومة الشعوب فى العالم المسيحى ، وكذا رجال السياسة فى كل بلد غربى مسيحى الآن يعرفون متى يحكمون وأنهم لابد لهم من تأييد الكنيسة المحلية لحكمهم .

والتاريخ السياسى الحديث لم يزل يذكر ثورة الارجنتين على دكتاتورها السابق عندما شق عصا الطاعة على رجال الكنيسة الارجنتينية[1] .

الأدلة على أن الإسلام دين ودولة :

قلنا فى الفصل السابق إن أى دين أو دعوة لابد لها من قوة تحميها وقلنا إن

(١) الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى د . محمد البهى ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .

الدين والسياسة توأمان لا ينفصلان عن بعضهما ليس فى الإسلام فقط ؛ وإنما فى كل الأديان والرسالات السماوية ، ولأن الدولة كما قرر أفلاطون لا تعدو أن تكون كائنا عضويا تتساند أعضاؤه وتتعاون من أجل صيانة حياته وضمان استمراره ، وأن السياسة بسبب ذلك ليست هى مجرد الأحكام والقوانين التى تطبق فى مجتمع من المجتمعات ، ولكنها فى الواقع ذلك العلم الذى تصدر مبادئه العامة عن الفكر السليم والإدراك الصحيح .

ولذلك فإن السياسة علم أخلاق تتحد غايته فى تحقيق العدالة فى المجتمع ، والله تعالى ما أرسل الرسل إلا لتعليم الناس الأخلاق وتحقيق العدالة بينهم ، ولذلك تكفل بالإنسان ككل ، ورسم له الطريق الصحيح الذى يستطيع أن يسلكه فى حياته .

ولقد أرسل الرسل عليهم السلام يرمون فى الدعوة إلى أصول الإيمان بالله عن قوس واحدة ، ولكل رسول بعد هذا شريعة يراعى فى أمرها ونهيها حال من يرسل إليهم خاصة كما قلنا ، حتى جاء الوقت الذى تهيأ فيه البشر على اختلاف بيئاتهم للانتظام فى شريعة واحدة ، فبعث الله المصطفى ﷺ ، بالحنيفية السمحاء ، وجعله خاتم النبيين ، وقضى بأن تكون شريعته خاتم الشرائع ولعموم رسالته سواء الشاهد فيها ذو فطرة صافية أو بصيرة نافعة إلا أسلم وجهه لله قانتا .

﴿وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[1] .

ولخلود شريعته جعلها أبلغ الشرائع وأوفاها أصولا وأوسعها للمصالح رعاية[2] .

وقد جاء الإسلام بالأحكام والأصول القضائية العامة والصالحة للبشرية ووضع فى فم السياسة لجاما من الحكمة ، ومن هذا فإن من يتجاهل القرآن والسنة ويخفل بسيرة الرسول والخلفاء الذين كانوا يزنون الحوادث بقسطاس

(١) الأنعام : ٤٤ .
(٢) رسائل الإصلاح الخضر حسين ص ١٢١ جـ ١ .

الشريعة ، ويرجعون عن الاختلاف إلى : كتاب الله وسنة رسوله يجافى الحقيقة ويبعد عن روح الدين .

وفى القرآن الكريم شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل فى المعاملات المدنية وتتولى إرشاد السلطة السياسية قال تعالى :

﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾[1] .

وكل حكم يخالف شرع الله فهو من فصيلة أحكام الجاهلية ، ولقد طلب كما سبق من اليهود والنصارى أن يكون حكمهم غير مخالف لما شرع الله لهم فى توراتهم :

فقال لهم **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**[2] . **﴿فأولئك هم الفاسقون﴾**[3] . وفى قوله تعالى هنا **﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾**[4] . إيماء إلى أن غير الموقنين قد ينازعون فى حسن أحكام رب البرية وتهوى أنفسهم تبدلها لا بمثل أحكام الجاهلية ، وذلك لأنهم فى غطاء من تقليد قوم كبروا فى أعينهم ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم .

وفى قول الله تعالى للرسول : **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾**[5] .

فرض أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله ، ونبه على أن من لم يدخل الإيمان فى قلوبهم يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم ، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن تفتنه أسباب الشهوات عن بعض ما أنزل الله ، وفتنتهم له فى أن يسمع لقولهم ويضع مكان حكم الله حكما يلائم بغيتهم[6] .

---

(١) المائدة : ٥١ .

(٢) المائدة : ٤٥ .

(٣) المائدة : ٤٧ .

(٤) المائدة : ٥٠ .

(٥) المائدة : ٤٩ .

(٦) رسائل الإصلاح ص ١٢٦ الخضر حسين جـ ١ .

فقال لهم (اليهود والنصارى) . وقال لنا **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**[1] .

وفى آية **﴿فأولئك هم الفاسقون﴾** وفى آية أخرى **﴿فأولئك هم الكافرون﴾**[2] .

وفى القرآن الكريم أحكام كثيرة فى التشريع ليست من التوحيد ولا من العبادات كأحكام البيع والربا والرهن والدين والإشهار ، وأحكام النكاح والطلاق واللعان والولاء والظهار ، والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث وأحكام القصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزانى وقاذف المحصنات وجزاء الساعى فى الأرض فساداً ، بل فى القرآن آيات حربية فيها ما يرشد إلى وسائل الانتصار المادية والمعنوية وفى الآيات الحربية ما يتعلق بالصلح وعقد المعاهدات هذا عدا ما فى السنة الصحيحة من أحكام مفصلة فى أبواب المعاملات والجنايات وغيرهما .

وفى سيرة أصحاب الرسول وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ما يدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطانا على السياسة فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عند مبايعته شرط العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

ولولا علمهم بأن السياسة لا تنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو سيراه مجلس شوراه مصلحة .

وفى صحيح البخارى (كان الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبى ﷺ) .

وليس لنا لإبطال حجة الشيخ على عبد الرازق وأمثاله إلا أن نقرر أن فى القرآن الكريم أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات كأحكام البيع والربا والزواج والطلاق وغير ذلك من أمور تتعلق بالسياسة ونظام الحكم .

---

(١) المائدة : ٤٥ .

(٢) المائدة : ٤١ .

وما فى السنة من أحكام مفصلة فى المعاملات والجنايات وغير ذلك ، كذلك من الأدلة على ارتباط الدين بالسياسة ما أثبتناه من حديث صحيح البخارى (كان الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها فإن وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غير اقتداء بالنبى ﷺ)[1] .

وحين قرر أبو بكر أن يحارب ما نعى الزكاة واعترض عمر دارت بينهم محاورة على التفقه فى حديث رسول الله ﷺ : الذى استدل به كل منهما على وجهة نظره : فعمر رضى الله عنه يستدل بهذا الحديث على عدم جواز قتال ما نعى الزكاة استناداً إلى قول : الرسول ﷺ :

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلخ ..»[2] .

مانعو الزكاة ينطقون بالشهادتين فلا يجوز قتالهم من وجهة نظر عمر رضى الله عنه استناداً إلى هذا الحديث ، إلا أن أبا بكر أراد أن يقنعه باستناده إلى الشرع ويستدل بنفس الحديث الذى يحتج فيه بقول رسول الله ﷺ إلا بحقها ، ويقول (الزكاة من حق الأموال) ولو لم يكونوا على يقين من أن السياسة لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث .

أو لوجد أبو بكر عندما احتج عمر بالحديث فسحة فى أن يقول له ، ذلك حديث رسول الله ﷺ وقتال مانعى الزكاة من شئون السياسة[3] .

ولم يوجد حتى فى الأمراء المسلمين القدامى المعروفين بالفجور من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العلمية ، وإن كان كثير من تصرفاتهم على غير ما يأذن به الله جهالة منهم أو طغياناً .

(١) رسائل الإصلاح ص ١٧ جـ ١ .

(٢) الحديث بطوله متفق عليه بين البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وهو صحيح متواتر (الجامع الصغير) جـ ١ ص ١١٠ .

(٣) رسائل الإصلاح ص ١٢٧ جـ ١ .

وحين أراد الحجاج أن يأخذ رجلًا بجريمة بعض أقاربه وذكره الرجل بقوله تعالى : ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[1] .

تركه الحجاج وأطلق سراحه ولم يخطر بباله وهو ذلك الطاغية الجبار أن يقول له مثلا ، إن ما تلوته دين وما سأفعله سياسة[2] .

وحين بدا لعمر أن يضع حدا لمهور النساء بعد التغالى فيها ، إذا بامرأة تقف فى المسجد تعارض عمر وتقول له كيف هذا والله يقول ﴿**وآتيتم إحداهن تنظاراً فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾[3] .

فلم يزد عمر على أن قال : رجل أخطأ وأصابت امرأة ، وألغى هذا الرأى وما كان ينوى عمله ، ولم يقل ذلك دين وهذا سياسة .

إذن فالإسلام دين ودولة رضى بذلك الناس أو لم يرضوا .

وكون بعض الرؤساء المسلمين لم يحافظوا فى سياسة شعوبهم الإسلامية على أحكام الشريعة وآدابها ، فوضعوا لهم قوانين جائرة (ابتعدوا عن قوانين الإسلام وآدابه وتعاليمه وأذنوا بمظاهر غير صالحة ، إنما صنعوا هذا من ناحية جهلهم بسماحة شرع الإسلام وسعة قواعده وسمو مقاصده ، وتقليداً أعمى للغربين الذين فصلوا بين الناحيتين الدينية والسياسية وأرادوا للشعوب الإسلامية أن تنفصل عن دينها وأن تضيع هيبتها ، بل وجود الشخصية الإسلامية والجماعة الإسلامية وإذا كان على غير هؤلاء الرؤساء تبعة فعلى أولى الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها إذا أهملوا علاجهم ولم يبذلوا فى دعوتهم إلى الاستقامة جهدهم . والله علم .

---

(١) فاطر : ١٨ .

(٢) رسائل الإصلاح ص ١٢٧ جـ ١ .

(٣) النساء : ٢٠ وراجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

الباب الثاني

الإسلام في مكة

الدولة ومقوماتها

عرف الإنسان القديم نظام الدولة فى إطار المدن السياسية فى روما وأثينا واسبرطة ، ومدن الدلتا المصرية ، وفى آشور وبابل ، وفى مدن الهند والصين القديمة[1] ، وقد قام نظام المدن السياسية على أنقاض الوحدات البشرية البدائية التى يؤكد جمهور الباحثين[2] ، أنها (أى الوحدات البدائية) كانت مجتمعات سياسية كاملة العناصر والأركان ، وإن كانت لا تزال فى بداية التطور الحضارى .

حيث أن قاعدة الحكم فى هذه الوحدات البدائية تقوم أساساً على علاقة الدم ورابطة القرابة ، وكانت تعتمد فى تنظيم علاقات أفرادها على الدين والتقاليد .

ولما قام نظام المدن السياسية على أنقاض هذه الوحدات البدائية لم يغير كثيراً من قواعد الحكم القديم ، وكانت أحكام القانون تستند إلى العرف والتقاليد وتأخذ من المعتقدات الدينية مصدراً للإلزام[3] .

والمدينة السياسية تمثل نوعاً من المجتمعات السياسية الطبيعية ، وتختلف عن الأسر وقبائل العشائر ، وهى التى يعلق عليها إسم «المجتمعات البيولوجية» لأنها لا تنشأ لمجرد حفظ النوع ، وإنما لتحقيق هدف اجتماعى آخر هو كفالة الوجود الأفضل لأفرادها ، كما أنها على خلاف الأسر والقبائل والعشائر تستطيع أن تكفل نفسها بنفسها ، بل لعلها المجتمع السياسى الوحيد الذى يتميز عما سبقه فى ذلك الأمر .

ويرى أساتذة القانون الدولى أن هذه المدن السياسية تمثل أول صور معرفة الإنسان بالمجتمعات السياسية المنظمة ، التى يمكن أن يطلق عليها اسم الدولة ،

---

(١) نظرية الدولة ، طعيمة الجرف ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨ .

على خلاف الجماعات البشرية البيولوجية التى سبقت المدن السياسية فإنها تعتبر دون الحد الذى يسمح بإمكان معاملتها معاملة الدول[1] .

ومع أن بعض علماء القانون الدولى يعطون صفة الدولة حتى للجماعات البشرية الطبيعية ، كالأسر والقبائل والعشائر والبطون ، حيث يرون أن الدولة لا تعدو أن تكون مجتمعاً بشرياً تحكمه فكرة الإختلاف السياسى بين مجموعة أفراده ، بحيث يكون هناك فئة حاكمة وفئة محكومة ، بل يصل إلى الاعتراف بصفة الدولة للقبائل الرحل التى لم تستقر بعد على إقليم معين ، إلا أن كثيراً من علماء السياسة والقانون الدولى رفضوا هذه المحاولات للإعتراف بصبغة الدولة لهذه الجماعات ، ولكن الجميع يؤكدون صفة الدولة للمدن السياسية .

والمجتمع الدولى يعترف بهذا النظام فى العصر الحديث ، وتوجد مدن سياسية فى عصرنا يطلق عليها اسم الدولة (كالفاتيكان وموناكو وغيرهما) .

والدولة الإسلامية حين تأسست ظلت عدة سنوات مقصورة على المدينة المنورة ، ومع ذلك كانت دولة بكل مقوماتها ، مع أنها فى أول عهدها لم يكن رعاياها أكثر من بضع عشرات من الأفراد .

هل كانت مكة دولة ؟

تعتبر مكة من الناحية القانونية قديماً وحديثاً دولة لها كل مقومات الدولة فهى تمثل مرحلة من التقدم الحضارى ، وتقوم على ضمير جماعى وصالح مشترك عام ، يربط بين الأفراد بمجموعة من الأحاسيس التى لا تعرفها المجتمعات البدائية وهو الشرط الذى قرره الأستاذ (هوربو) لوجود دولة[2] .

فالدولة باعتبارها تنظيم سياسى هى مجموعة من الأفراد تعيش حياة دائمة ومستقرة على إقليم معين تحت تنظيم سياسى معين ، كذلك يسمح لبعض أفراد الدولة بالتصدى لحكم الآخرين[3] .

(١) المرجع السابق طعيمة الجرف ص ١٧ .

(٢) راجع ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ نظرية الدولة طعيمة الجرف .

(٣) نظرية الدولة ص ٢ .

ولذلك يلزم لقيام الدولة أن تتوفر لها ثلاثة أركان هامة على التوالى :

١ ــ **شعب** : أى مجموعة أفراد هم رعايا الدولة .

٢ ــ **إقليم** : أى بقعة من الأرض معلومة ومحددة يعيش عليها الشعب .

٣ ــ **تنظيم سياسى** : يسمح بانقسام أفراد شعب الدولة إلى حكام ومحكومين .

ومكة كانت تتوافر فيها هذه الأركان ، بل كان التنظيم السياسى فيها تنظيما واضحاً ومتطوراً وكان الحكم فيها حكماً شورياً جماعياً ، وكانت بحق تعتبر الدولة الوحيدة للعرب فى الحجاز قبل الإسلام[1] .

كان لمكة جيش أعلى خاص من الأحابيش[2] ، وهم عبارة عن عناصر ضاقت بها سبل العيش فى بلادها فجاءت إلى مكة فجندتها قريش فى جيشها إلا أن قادة هذا الجيش كانوا من العرب ، ويشبه نظامه كثيراً نظام الفرق الأجنبية فى الجيش الفرنسى ، أو ما نسميه الآن بالمرتزقة فى بعض الجيوش الاستعمارية ، وكانت مهمة الجيش فى الغالب حفظ الأمن الداخلى ، وتوحيد النظام حتى لا يعبث به عابث ، ويمكن أن نعتبره جنود شرطة (بوليس) ولم يكن المكيون يجعلون كل اعتمادهم على الأحابيش ، بل كانوا يتنادون إلى الحرب والكفاح عند الحاجة ، معتمدين على أنفسهم فى الدفاع عن مدينتهم ، يؤيد ذلك موقفهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق ، فقد اصطلوها بأنفسهم ولم يعولوا على الأحابيش .

وأنا أعتقد أن المكيين لم يكن واحد منهم ليستطيع أن يتخلى عن اشتراكه فى معركة من المعارك تقررها السلطة فى مكة حتى ولو لم يكن راغباً فى الاشتراك فى هذه المعركة .

وذلك لأنى لا استطيع تفسير موقف العباس عم النبى من ابن أخيه محمد

(١) نشأة الدولة الإسلامية أمين سعيد ص ٣ جـ ١ .

(٢) قال أبى أسحاق الأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناه بن كنانة . والهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاع : قال ابن هشام : تحالفوا جميعا فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة (ابن هشام ص ٢٧٣ القسم الأول) .

ﷺ إذ اشترك مع المشركين في بدر يحاربهم ، ثم قبلها يقف مع ابن أخيه سراً . ومن وراء قريش ، ويحضر معه مع المبايعين له فى العقبة ، يستوثق له منهم ويؤكد عليهم ضرورة حمايته ، ويطالبهم بتركه إن كانوا عاجزين عن هذه الحماية .

وكانت مكة بالذات تمتاز عن جيرانها من مدن الجزيرة العربية كالمدينة والطائفة بهذا النظام ، وهى كما قلنا كانت تعتبر الدولة الوحيدة لعرب الحجاز قبل الإسلام .

وكانت دولة مكة مركزاً من مراكز التجارة والثقافة ، وكان نظام الحكم فيها يختلف عما كان قائماً فى الممالك المنظمة ، وكان نظامها .. يباين تماماً أشكال الحكم عند قبائل البدو[1] .

وكان مبدأ توزيع السلطات (القوى) محترما فيها ، فقد اقتسمت عائلات مكة المناصب الكبرى بالتساوى ؛ والحكم فيها كان حكماً ديمقراطياً جماعياً حيث كان يشرف عليها جماعة من الشيوخ يجمعهم مجلس أو هيئة تسمى الملأ[2] ، وهذا المجلس هو برلمانهم الذى كان يطلق عليه اسم (دار الندوة) والعضوية فيه للأحرار من أهل مكة الذين لا يقل سنهم عن الأربعين[1] ، ويكن أحد من هؤلاء مملكاً على بقية قريش ، إنما كان ذلك بتراض من قريش عليهم ، وكان ممثلو الأفخاذ من رؤساء الأسر يجلسون على التوالى طبقاً لمقام أفخاذهم ، وكانوا لا يبرمون أمراً إلا بعد بحثه وتمحيصه فى هذا البرلمان ، وكانت قرارتهم محترمة عند الجميع ونافذة على الجميع[2] وكان هذا البرلمان «دار الندوة» ملتقى كبار المواطنين يقومون فيه بتدبير أعمالهم التجارية ويتشاورون عند حروبهم وتعقد فيه الألوية ويتزوج فيه من يريد التزوج .

أما الاجتماع العام من المواطنين فكان يسمى (نادى القوم) وكان يعقد

---

(١) الإدارة العربية تأليف : [أ] ق حسينى ترجمة الدكتور ابراهيم احمد العدوى .

(٢) المرجع السابق ، حسينى ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، حسينى ص ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ، حسينى ص ٢٧ .

دائما فى فناء الكعبة حيث تناقش المسائل التى تهم الجميع وقد ألقيت المهام العديدة التى تتعلق بالكعبة وشئون مكة بصفة عامة على عدد من الأسر الكبيرة[1] .

توزيع المناصب :

كانت المناصب فى مكة توزع بين أهل مكة كلها ، وقلنا أن مبدأ توزيع السلطات كان محترماً فيها ، وأن عائلات مكة كانت تقتسم المناصب الكبرى بالتساوى ، وكانت هذه المناصب مناصب دينية وسياسية فى نفس الوقت ، وإن كان الطابع الدينى يغلب عليها ، بل أن الكعبة كانت السبب فى وجود هذا النظام الفريد لنظام الحكم الذى اتفقوا عليه ووزع بينهم ، حتى لا تتنازع بطونهم على الزعامة بالسيطرة على وظائف الكعبة التى كانت منبع نفوذهم وسبب سيطرتهم روحياً ، على عرب الجزيرة كلها ويمكن مقارنة دولة مكة بالفاتيكان الآن .

كانت المناصب عبارة عن :

١ ـــ **السدانة** : وهى الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها ولها المقام الأول عندهم .

٢ ـــ **السقاية** : وصاحبها يتولى سقاء الحجيج وكانت فى بنى هاشم ، وكان يلى ذلك قبيل الإسلام العباس عم النبى ﷺ .

٣ ـــ **الرفادة** : وهى عبارة عن مبلغ من المال كانت تدفعه قريش فى كل موسم من أموالها إلى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاما يأكل منه الفقراء وكانت فى بنى نوفل ثم فى بنى هاشم .

٤ ـــ **الراية** : وكانوا يسمونها العقاب ، وإذا أرادوا الحرب أخرجوها وإذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها وإلا فإنهم يسلمونها إلى صاحبها .

(١) المرجع السابق ، حسينى ص ٢٧ .

٥ ــ **القيادة** : وهى إمارة الركب وصاحبها يسير أمام الركب فى خروجهم للقتال أو للتجارة ، وكانت فى بنى أمية وصاحبها منهم فى أول الإسلام أبو سفيان .

٦ ــ **الإشفاق** : وهى الديات والمغارم وكانت لتيم .

٧ ــ **المشورة** : وصاحبها يستشار فى الأمور الهامة وكانت فى بنى أسد .

٨ ــ **السفارة** : وهى أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيراً ، وإن نافروهم لمفاخرة جعلوا السفير منافراً ورضوا به وكان آخر سفراء قريش فى الجاهلية عمر بن الخطاب قبل أن يسلم .

٩ ــ **الحكومة** : ويمكن أن نشبهها فى الإسلام بالقضاء أو بالتحكيم ؛ وكانت مهمتها الفصل بين الناس إذا اختلفوا وقيل أنها كانت قبل الإسلام فى بنى سهم .

١٠ ــ **المسئول عن بيت المال** : وكانت هذه الأموال عبارة عن النقد والحلى التى كانوا يقدمونها لآلهتهم وكانوا يسمونها الأموال المحجرة .

وكان هناك مسئول عن دار الندوة ، وعمن يتولى شون خيل قريش ويدبر شئونها فى الحرب ، ويطلق عليها أسم الأعنة ، وكانت هناك مناصب أخرى ليست ذات أهمية ولكنهم ربما أوجدوها لبعض البطون ، كالأيسار وهى الأزلام التى كانوا يستقسمون بها للإستخارة ونحوها ، إذا هموا بأمر هام من سفر أو قتال وفيها العمارة وهى عبارة عن المحافظة على حرمة البيت .

ويظهر أنهم أكثروا من هذه المناصب مع أن بعضها لا أهمية له على الإطلاق ، وذلك ليرضوا كل بطون قريش خوفا من التحاسد ، وإجلالا لقدر الكعبة والمبالغة فى تعظيمها .

وقد جمعوا بها بين السياسة من الحكومة والدين ، والإدارة والحرب ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية ، أو هو نوع من الحكومة لا ترى له

شبيهاً بين الأمم المتمدنة ، وربما أشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه إلا أن للشورى رئيساً كالملك أو السلطان أو رئيس الجمهورية ، وليس فى هذا شيء من ذلك إلا ما قد يكون لصاحب الندوة أو السدانة أو الرياسة[1] وتفوق بعضهم فى الشخصية على الآخرين ، فيعترف لهم بالزعامة المطلقة مثل هاشم الذى كان أول من سن الرحلتين (رحلة الشتاء والصيف)[2] ولذا كانت تسمية قريش الفيض لسماحته وفضله ؛ وعبد المطلب الذى حفر بئر زمزم[3] .

كانت مكة تتعامل مع الدول المجاورة على أنها دولة لها سيادتها وقد حصلوا منها على عهود وامتيازات تسمح بحرية مرور قوافلهم التجارية عبر طرق خاصة إلى أماكن معينة وكانت هذه العهود تعرف بعهود قيصر وكسرى[4] .

كذلك فقد أبرم أهل مكة اتفاقات مع نجاشى الحبشة وشيوخ نجد الأقوياء وأقيال اليمن وبطارقة غسان وملوك الحيرة[5] .

وكانت مكة تجبى المكوس على المتاجر المارة بها ، ولابد أنه كان هناك نظام بدائى لحفظ السجلات تحفظ بمقتضاه معاهدات التحالف والاتفاقيات التجارية[1] ، كما وجدت إدارة مماثلة يعهد إليها تحصيل الضرائب من التجار الأجانب[2] .

إذاً فقد كان لمكة كل مقومات الدولة وإن كان الطابع الدينى يغلب عليها وكان لها سيطرة روحية على كل الجزيرة العربية ، فقد كانت مكاناً محترماً لدى جميع العرب ، وكانت الكعبة بيت الله الحرام يحج إليها الناس من كل حدب حتى اليهود والنصارى يرسلون الهدايا إلى هذا البيت الكريم[3] .

ولعلها كانت هدايا قصد بها جذب مودة العرب ، لا لتعظيم البيت وكان هذا شأن اليهود دائماً .

---

(١) التمدن الإسلامى جورجى زيدان ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٣٦ ، ٣٧ القسم الأولى .

(٣) سيرة ابن هشام ص ١٤٢ .

(٤) دائرة المعارف مادة مكة .

(٥) [illegible] عربية ص ٢٣ .

(٦) المرجع السابق ص ٤ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٩ .

(١) الإسلام ظهوره وانتشاره .

ولو حاولنا البحث عن كل مقومات الدولة فى مكة ، لوجدناه موجوداً فى كل نظمها الداخلية والخارجية ، نجده فى نظامها الحربى وفى الخدمات الاجتماعية كلها بلا تفصيل ، وغير هذا من النظم الدولية بمفهوم العصر القديم والحديث على السواء .

ولقد صور بعض المؤرخين[٤] عرب الجاهلية تصويراً بعيداً عن كل الحقيقية وذلك لإثبات أن الرسول ﷺ استطاع أن يجمع بين هؤلاء برغم ماهم فيه ، وأن يغير هذه الطباع القاسية المنحرفة ، وأن يؤسس منهم أمة عظيمة وظنوا أنهم بهذا ينصفون الرسول وينصفون رسالته ، ونسوا أن العرب لم يكونوا جميعا موصوفين بهذه الصفات وفيهم هذه الطباع ، وأن من كان يئد البنات منهم لم يكن كل العرب ، وإنما هى قبائل معينة صنعت ذلك لظرف خاص وكان هذا فى طبقات خاصة من الشعب أبرز ما توصف به الفقر وقلة الحياء ، وكان أهل مكة بالذات ذوو حضارة ومدنية وتقدم .

وقد أثبتنا فى الصفحات السابقة بعضاً من نظامهم المتقدم المتحضر ؛ وقد عرفوا بالصدق والأمانة والوفاء واشتهروا بالكرم — حتى تباروا مع بعضهم فى التفانى فى إكرام الوافدين وكان ؛ مقياس الكرم عند العرب أن يعطى الرجل منهم أكثر مما يأخذ[١] .

كانت هذه خصالهم بدواً وحضراً ، أما الحضر فكانوا يعيشون عيشة استقرار يشتغلون بالزراعة والتجارة ، قامت حياتهم على دعائم لإقامة الحق وإجراء العدل بينهم .

ويرى الأستاذ الخضرى ، أن علاقة العربى بأهله كانت على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا وكان للزوجة من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، إلا أن الرجل كان يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها .

ولا يمنع هذا أن كان بعض القبائل العربية تعيش على السلب والنهب إلا أننا

---

(٢) مذكرات فى التاريخ الإسلامى (ص ٧ ، ٨) محمد حبيب أحمد .

(١) ص ٩ مذكرات فى التاريخ الإسلامى (محمد حبيب أحمد) .

يجب أن نعرف أن ذلك لم يكن موجوداً فى كل القبائل ؛ وإنما كانت بعض القبائل العربية الموجودة فى غير مكة ، أو فى الحضر وكان ذلك لظروفها ووضعها الاجتماعى وحصرها فى هذه المنطقة المجدبة ما جعلها تتخذ لنفسها مراكز فى الخلاء الواسع ، وفيها تغير لتنهب ، وتسلب لتعيش ، فقد كانوا يعيشون فى ضنك دائم وجوع مستمر ؛ بسبب ضيق واردات الجزيرة بينها حتى مع وجود التجارة كانت محصورة فى المدن وبين الحضر فقط .

وقبيل الإسلام حاول الكثيرون من أبناء الجزيرة أن يهاجروا منها ، بحثاً عن الكسب وهربا من الفقر والحاجة ، إلا أن ثقل القوة فى العالم وتمركزها آنذاك فى دولتى الفرس والروم اللتين استوليتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية حبست القبائل فى مكانها ، الأمر الذى أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب النقص (والصعلكة) فقامت المنازعات المتكررة بينهم وعجزوا عن تأسيس قوة سياسية موحدة ، لها نظامها الواحد وجيشها المسلح[1] .

لكن مكة ومدن الجزيرة على الخصوص كان وضعها يختلف اختلافاً كبيراً وكان لمكة بالذات وضعها الخاص ؛ ونظامها السياسى المستقل ، وتأثيرها الكبير خصوصاً فى الناحية الدينية على كل القبائل العربية سواء كانوا بدواً أو من أهل المدن .

ولعل هذا هو السر فى استقرار الحكم فى أهل مكة وقريش بالذات بعد وفاة الرسول ﷺ برغم وجودهم فى مدينة أخرى ، حيث كان تأثير هؤلاء الناس (المكيين) باعتبارهم أهل الرسول أولا ، وأبناء البيت ثانياً ، والسبب فى استمرار الحكم فيهم ورضوخ الناس لحكمهم أكثر من غيرهم ، حتى وإن قامت حركة سياسية مصبوغة بصبغة الدين بعد وفاة الرسول ، هى عبارة عن حركة إنفصالية وهى ما يطلق عليها المؤرخون اسم (الردة) لكن مالبث الحال أن هدأت واستقرت الأمور بعد أن حاربهم أبو بكر وانتصر عليهم .

---

(١) الدعوة الإسلامية لاقرار السلام غلوش ٩٠٤ .

وأرى أن الصدمة التى ألمت بهؤلاء بعد وفاة الرسول ﷺ واعتقاد بعضهم أن الرضوخ للرسول كان خصوصية له دون غيره ، وأنه ليس عليهم وهم الذين لم يتعودوا وحدة كهذه أن يرضخوا لسلطان رجل يحكمهم ويتحكم فيهم بعد الرسول ﷺ ، كان هو سبب رفضهم للرضوخ لحكم أبى بكر وامتناعهم عن دفع الزكاة ظنا منهم أنها أتاوة وكانوا يدفعونها لرسول الله ﷺ ، وهم الذين لم يستقر الإسلام فى قلوبهم استقراراً كاملا ، لكنهم ما لبثوا بعد قليل ان استسلموا لحكم المكى القرشى أبى بكر ، وصاروا من أخلص الناس للدولة والدعوة معاً ، بل انضم بعض متنبئيهم إلى جيش المسلمين جندياً عادياً يدفع عن الدولة والإسلام ، ويدافع عنها ويبلى بلاءاً حسناً فى حروبه ومعاركه كطليحة بن خويلد .

ولابد للمؤرخ المنصف والباحث الذى يبغى الحقيقة ، أن يصور الواقع الذى كان عليه أهل مكة فى بدء الإسلام ، وأن ينصف أهلها من هذه الهمجية والتخلف الذى نعت به غيرهم من المقيمين خارجها ، وأن يذكر لأهل مكة بالذات ما كانوا عليه من استقرار فى الحكم وتنظيم فى السياسة وأن ذلك كان يسير وفق السياسة العالمية آنذاك حتى أنهم ليقولون أن دار الندوة بنظامها قد أخذوها عن البلاط الرومانى ، وهذا أيضاً يفسر نجاح المكيين فى قيادة الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ وذلك لتمرسهم على نظام الحكم فى الجاهلية والإسلام .

وضع الرسول فى الدولة المكية .

بهذا كله أردت أن أوضح أن رسول ﷺ حين خرج على الناس بدعوته كان خروجه بالدعوة خروجاً على الدولة ، ومن هنا عدوا الرسول ﷺ من الخارجين على الحكم ، وعلى نظام هذا الحكم الدينى الذى يتمتع به أهل مكة ويتوزعونه فيما بينهم .

ولو لم يتعرض الرسول لديانتهم ومعتقداتهم التى يعتمد عليها نظام حكمهم

ما وقفوا فى طريقه ولو كان الحكم فى مكة فى يد بطن من بطون قريش وحدها ، ربما أمكن بسهولة انتشار الدعوة فيها ، إلا أنهم عرفوا أنهم باعتناقهم لهذا الدين وإيمانهم بهذا الرسول إنما يتنازلون برغبتهم واختيارهم عن سلطانهم الذى اعتادوا عليه ، وسيادتهم التى ظنوا أنهم سيفقدونها بتركيز السلطة فى يديه إن اتبعوا هذا الرسول ، خاصة كبراؤهم وعظماؤهم وشهوة الحكم ليست مما يتنازل عنها الناس بسهولة إن كلفتهم حياتهم ، بل إن الوالد يحارب إبنه والإبن يقتل أباه ، ولا مانع لديه من إفناء آلاف البشر فى سبيل الوصول إلى الحكم ، والتاريخ القديم والحديث يروى لنا كثيراً من هذه الحوادث .

وقد وجدوا فى دعوة رسول الله ﷺ إلى المساواة بين البشر جميعاً وحربه لعبادة الأصنام والأوثان التى هى منبع نفوذهم وسبب سيطرتهم على العرب وتحقيره لشأنها ، أنهم سيفقدون هيبتهم ونظرة التقديس التى كان ينظر بها إليهم أهل الجزيرة العربية كلها .

ومن هنا نرى كيف أنهم حاولوا إرضاء محمد ﷺ بشتى الطرق حتى أنه لا مانع لديهم من أن يولوه ملكا عليهم بشرط أن يترك هذه الدعوة التى تقلل من شأن هذه الأصنام ، ولا مانع أن يجمعوا له المال الوفير ليكون أغناهم وأثراهم ، كل ما يرجونه أن يترك عبادتهم لهم ، ولا يتعرض لها فقد قام نظامهم السياسى على هذه العبادات والمعبودات .

ولذلك فهم لا يمانعون أيضاً فى اعتناق الدين بشرط أن يقر الرسول ﷺ بعبادتهم ومعبوداتهم ولذلك نزل عليه قول الله ﴿**قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عابدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين**﴾[1] .

لقد هادنوا الرسول ﷺ قبل محاولاتهم الكثيرة لإقناعه وتهديده ، وتهديد عمه أبى طالب[2] ، وهو فى نظر القرشين حامى حماه لكنهم بعد أن فشلوا

---

(١) سورة الكافرون .

(٢) حياة محمد : ١٤٦ .

فكروا تفكيراً يبدو منه النظام والدقة ، وإن كان يمر على كثير من الناس دون فهم لمعناه ومغزاه حين عجزوا عن إقناع محمد ﷺ بالعدول مما يدعو إليه ، وحالت بينه وبينهم أهله وعشيرته حمية وعصبية ، وكانت قريش تحسب لها ألف حساب ؛ وكان أهله يمنعون عنه اعتداء قريش مع اختلافهم معه واختلاف معظمهم على هذا الدين ، ولكنها العصبية القبلية التى كانت موجودة فى مكة آنذاك وعند العرب على العموم ؛ ولا تزال حتى فى عصرنا الحاضر فى كثير من دول العالم تقف وراء كثير من الزعماء والحكام تؤيدهم وتحميهم وتثور حين يعتدى عليهم.

فنقول أن قريشاً أو بمعنى أدق (حكومة قريش) أصدرت أمرها واتخذت قرارها فى دار الندوة (البرلمان) أن تقاطع محمداً وأهله مقاطعة قاسية كاملة .

وصدر بذلك مرسوم حكومى مكتوب ، وقع عليه كبار الزعماء فى مكة ، واتفق على تعليقه فى الكعبة ليكون حجة على كل أهل مكة وأن يؤخذ بالشدة والقسوة كل من يخالف هذا القرار .

ويقضى هذا القرار بعدم التعامل مع محمد وأهله ببيع أو شراء ، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم . وحوصر الرسول ﷺ ومعه بنو هاشم وبنو عبد المطلب فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات تقريباً[1] .

وقد طبق القرار تطبيقاً حازماً حتى أن أبا جهل ضبط حكيم بن حزم وهو يحمل قمحاً لعمته خديجة بنت خويلد زوجة الرسول ﷺ فتعلق به وحاول منعه وهدده بإفشاء أمره فى مكة ومخالفته للقرار لولا تدخل أبو البخترى بن هشام وتخلية سبيل حكيم ليصل بالقمح إلى عمته[2] .

ماذا لو أرسل هذا أو غيره إلى رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ما يحمله علنا وبلا خفاء ؟ وما الذى يمكن أن يصنعه أهل مكة أو حكومتها لأولئك الذين لا ينفذون القرار الذى أصدروه وعلقوا نصوصه فى الكعبة ؟

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٢) ابن هشام : ٩١٦ .

إنه كان حتما سيحاسب ويؤاخذ على هذا ويعاقب ، ولذلك لم يستطع واحد من أهل مكة أن يخالف ما فى القرار حتى وإن كان غير راض عما فيه ، حتى أكل المسلمون الجيف وأوراق الشجر وكانت أصوات أطفال المسلمين وعويلهم من شدة الجوع يسمع من بعيد .

لماذا كتبوا الصحيفة مادام أمرهم نافذاً ؟

وربما يسأل سائل ولم هذه الصحيفة المكتوبة ، ولم علقت فى الكعبة ؟ ولماذا لم تكتف الحكومة المكية باتخاذ قرار وإصدار الأمر به دون حاجة إلى وثيقة مكتوبة ؟ خصوصاً ونحن نثبت أن حكام مكة أمرهم نافذ وكلمتهم مسموعة ؟

لعل السبب فى هذا بل أرى أنه سبب كتابة هذه الصحيفة وأخذ التواثق عليها وحرص قريش على أخذ إجماع القبائل على هذه الوثيقة التى استجاب لها فعلا كل البطون القرشية[1] ، ما عدا بنى هاشم وبنى عبد المطلب غير أبى لهب ، أنه كان هناك حلف يعتبر قانونا نافذ المفعول هو (حلف الفضول) الذى عقدته بعض بطون قريش وتعاهدت فيه على منع الظلم فى مكة[1] .

كان لابد من تعطيل هذا الحلف مؤقتاً بالنسبة لبنى هاشم وبنى عبد المطلب وهم آل محمد حتى لا يطالب بنو هاشم حلفاءهم من أصحاب الفضول الوقوف إلى جانبهم .

ولهذا كانت قريش حريصة على الإجماع وعلى التواثق على ذلك فى صحيفة مكتوبة لأنهم اعتبروا الدعوة الإسلامية ذات خطر على مكة يهدد الجميع بالخراب ، لذلك اجتمعوا وتضامنوا على إيقاف هذا التيار ، وتوقيع هذه العقوبة على هذا البطن القرشى لعلها تجبره على التخلى عن موقفه فى حماية النبى وتضطرهم إلى تسليمه والكف عن نصرته ثم علقوا هذه الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً لهم على أنفسهم .

ولولا تحرك العاطفة «عاطفة الرحم» فى بعض القرشيين الذين اتفقوا على نقض هذه الصحيفة.وخوف حكام مكة من أن يحدث فتنة فى مكة أو حرب أهلية ، خصوصاً بعد أن حدثتِ مشاحنات واشتباكات كادت تؤدى إلى هذه الفتنة ، حين حاول زعماء قريش إيقاف المدد إلى المحاصرين من بعض ذوى القلوب الرحيمة[1] لطال الحصار أكثر من هذا حتى يستسلم هؤلاء لهم وكانت حكومة قريش ورجالاتها يحاولون ما استطاعوا الحفاظ على وحدة قبيلتهم وتماسكها ، ولم يقبلوا أن يحدث تفكك فى صفوفها أو ينشب خلاف يؤدى إلى تعارك العشائر .

وهذه الرغبة فى تماسك القبيلة هى التى جعلتِ قريشاً تنظر إلى رسالة محمد ﷺ هذه النظرة القاسية ، وتعامل المسلمين فى الدور المكى من حياة الرسول هذه المعاملة وصانت دولة مكة وقبيلة قريش من التفكك والحرب الداخلية .

---

(١) مكة والمدينة ص ٢٧٥ .

اصطفاء محمد ﷺ بالرسالة

ولد محمد ﷺ فى دولة مكة وفى هذه البيئة فى بيت حسب ونسب ، وكان لابد أن يكون هكذا حتى تكون له عصبية وشوكة تحميه وتقف بجانبه حتى يستطيع أن يبلغ بها رسالته .

ـ فأبوه عبد الله من أسرة بنى هاشم القوية فى مكة ، وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش ، قد اشتهر معظم أجداده فى الجاهلية بالسيادة أو بالتجارة الرابحة فى مكة .

ـ فقصى جده هو الذى يرجع الفضل إليه فى استيطان قريش بمكة بعد أن قادها فى حرب ناجحة ضد خزاعة .

ـ وهاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش[1] وهما رحلة الشتاء والصيف وقد تحدث عنها القرآن الكريم .

ـ وعبد المطلب هو الذى شرف قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه حيث أعاد حفر بئر زمزم بعد أن طمست ، وكان يسقى منها الحجاج الوافدن على مكة[2] .

وكان يمكن أن يظل محمد إنساناً عاديا يعيش فى مكة يرعى الأغنام وهو طفل فى عشيرة بنى سعد ، يكد ويكدح كأى شاب فقير مثله ، ويقطع الفياف والقفار ليتاجر وليكسب قوته بنفسه ، ولا يظل عالة على عمه أبى طالب . حيث يخرج معه إلى الشام فى تجارة ويشاركه مع قومه إحدى وقائع البدو المشهورة بحرب الفجار .

ومع هذا كله وفى هذه المرحلة الأولى من حياته ، كان محمد ﷺ يبتعد عن المذمومات ، فلم يشترك فى عبادة الأصنام مع مواطنيه والله يكلؤه ويرعاه ويحفظه من أقذار الجاهلية . كما أن تصرفاته كلها كانت تدل على أنه رجل

---

(١) ابن هشام ص ١٣٦ جـ ١ .

(٢) ابن هشام ص ١٤٢ جـ ١ .

صادق صريح . حتى اشتهر بين عشريته وأهله (بالأمين) وذلك لاستقامته وكمال خلقه .

ولعل ثناء القرآن الكريم على أخلاق النبى ﷺ فى آيات مبكرة جداً فى النزول ، وهى آيات سورة القلم ﴿**ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[1] ما يدل دلالة حاسمة على أنه لم يكن يتورط فى عادة أو تقليد جاهلى ينبو عنه الذوق السليم والخلق الكريم ؛ ولا يتسق مع إنصرافه إلى الله وحده واعتكافه ورياضاته الروحية ، من مثل أكل الميتة وشرب الخمر وتقريب القرابين للأوثان والإشتراك فى حفلات وطقوس عبادتها وتكريمها .

وفجأة وفى سن الأربعين بعد فترة من الزمن كان يخرج خلالها للخلوة على عادة الكثيرين من العرب ؛ وبينما هو يتحنث فى غار حراء أحد جبال مكة ويبحث عن الدين القويم بالتأمل والخلوة ، وهو يكتسب بهذا التحنث والتفرغ خبرة وممارسة عملية واستعداداً لتلقى الرسالة (دون إنتظار لها) ﴿**وما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان**﴾[2] . إذ بالوحى يأتيه من السماء بأول ما نزل من القرآن ﴿**إقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾[3] .

سؤال وجوابه :

قد يسأل سائل ما هو نوع العبادة التى كان يتعبد بها (محمد) قبل البعثة ؟

. يقول محمد عزة دروزه[4] : المعروف أن أهل هذه البيئة من العرب كانوا يعرفون أن الصلاة مظهر من مظاهر العبادة ﷺ أو الآلهة ، وأنهم كانوا يقيمون صلاة تعبدية ، وأن حالات القيام والركوع والسجود كانت معروفة ؛ وممارسة كيفيات تعبدية عند العرب والكتابيين وعند العرب أمام الكعبة بنوع خاص معروفة أيضاً .

---

(١) سيرة الرسل (دروزة) ص ٣٧ .

(٢) الشورى : ٥١ .

(٣) العلق : ١ .

(٤) سيرة الرسول ص ٣٧ .

وبناء على هذا فإنا نستطيع أن نقرر أن النبى ﷺ كان يعرف هذه الكيفيات وأنه كان يمارسها كثيراً عند الكعبة فى خلواته كعمليات تعبدية قبل بعثته ؛ لله وحده تبعاً لاتجاهه الدينى .

واصطفاء الله للرسل يتم على مرحلتين :

١ ــ مرحلة تهيئة وإعداد .

٢ ــ مرحلة تكليف وإبلاغ .

ولولا أن النبوة اصطفاء وإحسان لقلنا أن الرسل بصفاتهم يستحقونها كسباً ، لكن جمهور المسلمين يجمع على أن الرسالة لا تكتسب ، فلابد أن يخلق الله لها استعداداً خاصاً عند صاحبها يجعله أهلا لحملها وإبلاغها وبعد ذلك يصطفيه للرسالة[١] .

ومحمد ﷺ كان يتمتع بكرامة الأصل ورفعة النسب ومحافظة آبائه على السمو الأخلاق والدينى ، وكانت فى نشأته عوامل جعلته بعناية الله يكتسب منها الخبرة والممارسة العملية ، عن طريق المخالطة مع كل الأجواء والأجناس والأفهام .

مع أنه من المقرر أن أهل بيئة النبى ﷺ كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستعمرين منهم فى الحجاز ، وعن طريق الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة ، وأن كثيراً من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم ، قد تسربت إلى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة ، وليس من الطبيعى ولا من المعقول ، أن يبقى النبى ﷺ فى عزلة أو غفلة عن هذا ، صحيح أن الله علمه بوحيه وتنزيله أموراً كثيرة متنوعة ما كان يعلمها هو ولا قومه ، لكن هذا لا يعنى أنه كان غافلا عن كل ما حوله من أمور وما يدور فى بيئته وعلى ألسنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين

---

(١) بحث الدكتور غلوش الدكتوراه تحت عنوان الدعوة الإسلامية لتحقيق السعادة وإقرار السلام .

عرب وغير عرب من أنباء وقصص وظروف وحالات فإن هذا يناقض طبائع الأشياء[1] .

وكان من الحكمة الإلهية أن محمداً ﷺ لم يبدر منه فى السنين الطويلة السابقة على نزول الوحى والتى قضاها بينهم أى بوادر تشير من قريب أو بعيد أنه نبى أو أنه النبى المنتظر .

حيث كانوا يعرفون أو ينتظرون نبياً سيظهر فى مكة نفسها ، حيث كان كعب بن لؤى بن غالب يذكر بالنبوة ويبشر بها أهل مكة ويقول لهم (زينوا حرمكم وعظموه فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منه نبى كريم)[2] .

بل وصل خبر ظهور النبى إلى أقصى الجنوب ، وقد عرف اليهود أنه قد أظل زمان نبى ، وكانوا كما يقول ابن عباس يستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مبعثه[3] .

وقد روى الأرزقى[4] (أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذى يزن لعبد المطلب بما علمه من أن نبياً سوف يظهر فى العرب يضمن الزعامة لقريش يوم القيامة .

بل انتشر خبر هذه النبوة إلى أماكن كثيرة ، فهذا هو كاهن عمورية يقول لسلمان الفارسى حين أراد أن يترك المجوسية ويبحث عن الدين الحق (إنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض من العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، وبه علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة[5] .

وتذكر كتب السيرة قصة بحيرى الراهب وما قاله لأبى طالب عن نبوة محمد حين رآه معه وهو فى رحلته إلى الشام فى تجارة له ، وحيث استطاع تحديده فى

---

(1) سيرة الرسول ص ٣٨ (دروزه) .
(2) بلوغ الأرب جـ ٢٧١ .
(3) ابن كثير ص ٢١٣ .
(4) بلوغ الأرب جـ ٢٧١ .
(5) راجع حديث إسلامه فى ابن هشام .

طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموجودة فى التوراة والإنجيل ، ويوصيه أن يحافظ عليه من كيد اليهود وبطشهم به[1] .

وحين يظهر أن محمداً هو النبى المنتظر فلا غرابة برغم انتظارهم للنبى أن ينكروا نبوته حسداً وحقداً ، وحفاظاً على وضعهم ومكانتهم السياسية والدينية فى مكة .

ولكن كيف تجدى الحيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التى قدرت ظهور الدعوة واختارت لها هذا الزمان الذى تميز بالصراع والنضج وانتظار الرسالة لكى تنتشر الدعوة وتظهر على الأديان كلها بقدرة الله وعلى سنن البشر **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**[2] .

ومع أن النبى ﷺ كان من بطن ذى مكانة محترمة وعصبية عزيزة كما ذكرنا آنفاً ، إلا أنه لم يكن من الزعماء البارزين فى بيئته ، ولم يكن من الزعماء السياسيين الذين تولوا أحد المناصب السياسية لدولة مكة ، وكان هذا من أسباب وقوف زعماء قريش منه موقف الإستكبار والأنفة ترفعاً عن إتباع شخص ليست له زعامة توجب الطاعة وتبرر الإتباع ، حيث كان للزعامة أثر ودور قويان فى بيئة النبى ﷺ وعصره قبل البعثة .

ولذلك قالوا **﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**[3] ومع أن النبى ﷺ كان يُعرف بكرم الخلق ورجاحة العقل ، وكان مشهوراً عند أهل مكة كلهم بالصادق الأمين ؛ إلا أنه لم يكن بارزاً قبل البعثة فى مجال الزعامة بروزاً يلفت النظر ؛ كأبى سفيان وأبى جهل وغيرهما من زعماء مكة وحكامها ، وكان هذا مما جعل القرشيين يحنقون عليه وخاصة زعماؤهم ، ويعجبون لعدم نزول القرآن على عظيم من عظماء مكة أو الطائف واختصاص النبى ﷺ بهذا الشرف الربانى دونهم ، فقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل

---

(١) راجع القصة ابن هشام ص ١٨٠ ــ ١٨٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٣١ .

عظيم وترفعوا عن إتباع شخص ليست له زعامة الزعماء المطاعين إذا أمروا ؛ وقالوا أيضاً (**أأنزل عليه الذكر من بيننا**) (؟) ولذلك كان الرد الإلهى عليهم ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾[1] .

لم لم يشارك محمد ﷺ فى زعامة مكة قبل البعثة ؟

ولعل سائلا يسأل لم لم يشارك الرسول ﷺ فى الزعامة فى قريش قبل البعثة ؟ ولم لم يكن عضواً ممثلا فى الهيئة الحاكمة فى مكة أو له عمل متصل بهذه الهيئة كأبى بكر وعمر مثلا ؟

وقد يرى البعض أن زعماء مكة الذين أبدوا العجب لاختصاص النبى من دونهم بالرسالة ، مع أنهم الزعماء النافذون المطاعون إذا أمروا ، والمستجابون إذا دعوا قد اختصهم الله بهذه الأعراض ، أعراض الزعامة ، وهذه أعراض دنيوية أما النبوة عموماً فهى رحمة ربانية منوطة بمؤهلات عظمى لا تمت إلى تلك الزعامة والأعراض الدنيوية بسبب ، ويستدلون على هذا بمثل قوله تعالى ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾[1] .

إلا أننى لست مع هؤلاء فى كل ما يقولونه ، ومع إيمانى بأن النبوة رحمة ربانية خاصة إلا أنها لا تنفصل إطلاقاً عن الزعامات الدنيوية ، كل ما هنالك أنه بالنسبة لرسول الله ﷺ وكونه لم يكن سياسياً أو كان يشغل منصباً سياسياً فى المجتمع المكى قبل البعثة ، فإن ذلك كان لحكمة إلهية عظيمة .

لأنه لو كان يشغل منصباً سياسياً فى المجتمع المكى وخرج عليهم بهذه الدعوة لتصوروا أنه من طلاب الرياسة والملك وأنه من المتطلعين إلى الدنيا ومتاعها .

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

فحين عرضت الرياسة والملك والزعامة على رسول الله ﷺ عن طريق كبار زعماء قريش ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب وغيرهم وساوموه على الدعوة وحاولوا اغرائه إن قبل السكوت عن سب آلهتهم ومحاربة عبادتها ، رفض الرسول ﷺ هذه العروض لأنه قصد بها إبعاده عن المهمة الأصلية التى أمره الله بها وهى الدعوة إلى الإسلام الذى يدعو إلى الإصلاح الكامل الشامل[1] ، والزعامة حين تكون فى رجل ينتمى إلى بطن من البطون ذات المكانة المحترمة ، ويكون من بيئة متوسطة لاهى بالغنية الثرية أو الفقيرة المعدمة ، تكون زعامة ناجحة مقبولة عند الجميع ، ولذلك نجحت رسالة محمد ﷺ وظهرت زعامته بعد البعثة رغم أنف قريش ورغم حقدهم وحسدهم له ومحاربتهم إياه .

(١) راجع سيرة ابن هشام ص ٢٩٥ القسم الأول .



كيف بدأت الدعوة وهل كانت سرية

يرى كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن الدعوة بدأت سرية وأنها ظلت على هذا الحال ثلاث سنوات كاملة حتى نزل قول الله تعالى :

﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾[1] ، فكان هذا إيذاناً بالجهر بها ، ومن يومها من وجهة نظرهم صارت الدعوة علنية ، ويرون أن الدعوة ظلت على سريتها حتى أمر الله رسوله أن ينذر قومه أولا ، فنزل قول الله تعالى : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[2] ؛ ثم أمره بالجهر بها وإعلانها بعد ذلك .

ولكنى أرى أن الدعوة الإسلامية مثلها مثل كل الدعوات لم تبدأ سرية على الاطلاق فهى فى جوهرها وحقيقتها تختلف عن بعض المذاهب والأفكار الإنسانية ، التى يرى أصحابها وأتباعها أن تكون سرية حفاظاً على حياتهم وخوفا على هذه المذاهب والأفكار من أن تموت قبل أن تنتشر وتسود ، فتتكون الخلايا والعشائر وتعمل بعيدة عن أعين الدولة التى يعيشون فى كنفها ، خاصة إذا كانت هذه المذاهب والمعتقدات مما تحرمه الدولة أو تمنع نشاطه وذيوعه وهذا هو الفرق الكبير الذى يجب أن نفرق به بين الدعوات السماوية والدعوات الإنسانية كالشيوعية وغيرها من مذاهب ونحل انتشرت وسادت بعد فترات طويلة من الزمان ظلت تعمل فيها فى سرية وكتمان ، ورسالة محمد ﷺ وغيرها من الرسالات السماوية ، لم يكن يخشى عليها من المحاربة أو عدم الذيوع فهى رسالات سماوية تكفل الله بحفظها وحفظ أصحابها .

﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[3] .

﴿**إنا كفيناك المستهزئين**﴾[4] .

---

(١) الحجر : ٩٤ .

(٢) الشعراء : ٢١٤ .

(٣) الحجر : ٩ .

(٤) الحجر : ٩٥ .

﴿**والله يعصمك من الناس**﴾[1] .

ولهذا لم يكن هناك ضرورة مطلقاً لأن تبدأ الدعوة الإسلامية سرية خاصة وأن الفترة التى اعتبرها هؤلاء الذين قالوا بالسرية فترة قصيرة لم يؤمن فى خلالها بدعوة محمد ﷺ غير عدد قليل لا يزيد عن اثنين وأربعين ، ولم يكن هذا العدد القليل يستطيع أن يصنع للدعوة ولا لصاحبها ولا حتى لنفسه شيئاً .

كذلك فإننا لو تحرينا دعوات الرسل السابقين ما وجدنا رسالة بدأت بالسرية ، فإبراهيم عليه السلام جاهر بدعوته وحاور قومه وأباه غير خائف ولا هياب من بطشهم معلناً كلمة الحق والتوحيد ، بل وأكثر من هذا لم يكتف بمحاولة إقناعهم باللسان وإنما أمسك بالفأس وكسر الأصنام بيده ليثبت لهم عملياً أن هذه المعبودات لا تضر ولا تنفع ، ولما أرادوا قتله واحراقه بالنار كان الأمر للنار المحرقة التى تصوروا أنها ستأتى عليه فى لحظات ﴿**قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**﴾[2] .

فإبراهيم عليه السلام لم يكن له أهل ولا عشيرة تحميه من القتل أو تمنعه من أن يلقى فى النار ، بل ربما كان أبوه نفسه[3] الذى وقف مع قومه فى طريقه وطريق عودته من المحرضين على قتل ابنه وإحراقه ، فكيف برسول الله ﷺ ، وله أهل وعشيرة تحميه وتقف معه وبجواره ، وتمنع قريشاً من أن تؤذيه أو حتى تسبه حمية ، وإن كان معظمهم على غير دينه .

ولقد رأينا كيف أسلم حمزة حين عرف أن أبا جهل سب ابن أخيه (رسول الله ﷺ) وضربه على رأسه بالرمح فشج رأسه ، وكيف وقف أبو طالب بجانب ابن أخيه مع أنه ظل على شركه حتى مات ، وكيف امتنع عن أن يسلمه إليهم وقال لرسول الله ﷺ بعد أن رأى منه تمسكا بهذه الدعوة (اصنع مابدالك فوالله لن أسلمك إليهم أبداً) بل وكيف ببنى هاشم وبنى عبد المطلب

---

(١) المائدة : ٩٧ .

(٢) الأنبياء : ٦٩ — ٧٠ .

(٣) على الرأى القائل بأن آزر هو أبو إبراهيم عليه السلام .

جميعهم مسلمهم وكافرهم ينضمون إلى رسول الله ﷺ عدا أبى لهب حين حاصرته قريش فى الشعب ثلاث سنوات إذا كان هذا قد حدث لرسول الله ﷺ مع تكفل الله له بحمايته ورعايته وحفظه وحفظ دعوته ، فكيف يقال إن الدعوة حين بدأت بدأت سرية ؟ وما الذى أفادته هذه السرية ؟ وهل يطلب الله تعالى من موسى (الغريب عن مصر أن يذهب أول ما يذهب وأن يدعو أول ما يدعو ، الملك الجبار المتكبر المدعى الألوهية والذى يقول بصلافة وكبرياء (**إن لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى**)[1] والذى يقول لرعيته (**أنا ربكم الأعلى**)[2] والذى يتمنى أن يرى موسى بفارغ الصبر ليقتله بعد أن عرف حكاية قتله للمصرى وهروبه من القصر الذى تربى فيه .

هل يطلب من موسى أن تكون دعوته علنية غير متخفية ، وأن يبدأ بأكبر رأس فى الدولة وأن يدعوه إلى عبادة الله ، ويطلب من محمد ﷺ أن تكون دعوته سرية مستخفية مع حماية قومه له ووقوفهم بجانبه عصبية ؟

هل يحمى الله تبارك وتعالى موسى من بطش فرعون ، ولا يستطيع أن يحمى يحمى محمداً من بطش قومه ؟ وقد حماه فعلا طيلة بقائه بينهم فى مكة ، وهل إسلام أربعين رجلا أو أقل آمنوا بالدعوة فى خلال الثلاث سنوات الأولى تمنع من إيذاء الرسول ؟

إن موسى عليه السلام حين خاف فى بادىء الأمر من بطش فرعون به طمأنه الله إلى أنه سيحميه هو وهارون أخيه (**قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى**)[3] .

لهذا فإنى أرى أن الدعوة لم تبدأ سرية ، وإنما بدأت علانية ، كل ما هنالك أنه يمكن أن نقول إن الفترة الأولى من حياة الدعوة كانت الدعوة فيها فردية ؛ وأنها أى الدعوة ، كانت تسير فى طريقها المعد لها ، بجهود الرسول ومن اتبعه

---

(١) الزخرف : ٥١ .

(٢) النازعات : ٢٤ .

(٣) طه : ٤٥ ، ٤٦

من أصحابه ، فالمعروف أن أبا بكر حين أسلم ذهب إلى بعض أصحابه واستطاع أن يقنع خمسة[1] من كبار رجالات قريش بالإسلام وأحضرهم إلى رسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم ، ولم يكن هذا سراً فإن قريشاً كانت تعرف بذلك ، خاصة وأن مثل هذه الأشياء مما لا يمكن كتمانه ، وإذا جاز أن يقال إن أبا بكر حين كان يدعو أصحابه كان يدعوهم سراً بمعنى أن يلتقى بهم بعيداً عن أعين الناس .

فنقول إن هذا كان لمجرد الخوف على حياة بعضهم أو إيذائهم ، خاصة المستضعفين منهم ، ليس لأن الدعوة لم تكن قد عرفت ، بل إن هذا لم يكن مقصوراً على فترة معينة يمكن أن نطلق عليها فترة السرية ، وإنما كان ذلك دائماً منه ومن غيره وحتى الهجرة إلى المدينة .

بل إنى أري أن إسلام كثير من العبيد والمستضعفين فى بدء الدعوة دليل على أنه لم تكن هناك سرية على الإطلاق ، فكيف عرف سادتهم من القرشين بإسلامهم ، ومع تعذيب هؤلاء المستضعفين كبلال وغيره فإنه لم يمنعهم العذاب من أن يجهروا بالإيمان مع إمكان كتمانه ، بل كيف عرف السادة بإيمان هؤلاء ، اللهم إلا لأنهم دائما ما كانوا يجهرون بهذا الإيمان .

وإن قيل فماذا تصنع فى قول الله تعالى ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[2] ؟ أليس هذا دليلا على أن الله قد طلب من رسوله أنذار الأقربين ، وأن الرسول طلب لمنه أن يدعو قومه أولا فدعاهم غلى وليمة كما يحكى الحديث ، ثم دعاهم بعدها إلى الله[3] ؟

وما الذى نصنعه مع قوله تعالى ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾[4] وما يروى من وقوف الرسول ﷺ بعدها على الصفا ينادى (يابنى عبد المطلب يابنى فهر يابنى لؤى

---

(١) هم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص [أنظر ابن هشام ص ٢٥٠ ، ٢٥١ جـ ١] .

(٢) الشعراء : ٢١٤ .

(٣) راجع نص الحديث فى تفسير ابن كثير ص ٢٥٠ جـ ٣ .

(٤) الحجر ٩٣ .

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسطح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى[1] ؟)

أقول إن القرآن يجب أن يؤخذ كله كوحدة متكاملة فلا يؤخذ بعضه ويترك بعضه فهو يوضح بعضه بعضا .

فآية فاصدع بما تؤمر ، فى سورة الحجر وسورة الحجر ليست من أوائل ما نزل من القرآن ، وإنما ترتيبها فى أصح الروايات السورة رقم (٥٢) وترابطها مع ما قبلها وما بعدها من الآيات يوضح أنها لم تنزل وحدها ، كما أن المفسرين اختلفوا فى تفسيرها اختلافاً بيناً .

يقول القرطبى[2] ، (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) أى بالذى تؤمر به أى بلغ رسالة الله إلى جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم فقد أمرك الله بذلك .

والصدع الشق وتصدع القوم أى تفرقوا ، ومنه يومئذ يصدعون أى يتفرقون ، ثم يأتى القرطبى برأى الفراء فيقول فقوله (فاصدع بما تؤمر) قال الفراء أراد فاصدع بالأمر أى فأظهر دينك .

ثم يواصل القرطبى كلامه فيقول : وقال ابن الأعرابى معنى فاصدع بما تؤمر أى اقصد ، وقيل فاصدع بما تؤمر أى فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفر .

وقال ابن إسحاق[3] ؛ لما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله الاستهزاء أنزل الله (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) والمعنى اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله فإن الله كافيك من أذاهم كما كفاك المستهزئين ، وكانوا خمسة من

---

(١) راجع نص الحديث فى تفسير ابن كثير ص ٢٤٩ جـ ٣ .

(٢) القرطبى ص ٦١ ، ٦٢ جـ ١٢ .

(٣) القرطبى ٦١ ، ٦٢ جـ ١٢ .

رؤساء أهل مكة والوليد بن المغيرة وهو رأسهم والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والحارث بن الطلاطلة أهلكهم الله جميعاً ، قيل يوم بدر فى يوم واحد لاستهزائهم برسول الله ﷺ[1] .

ورواية ابن إسحاق فى أن الله تبارك وتعالى أنزل عليه (فاصدع بما تؤمر) بعد أن تمادوا فى الشر ، وأكثروا برسول الله الاستهزاء دليل على أن الدعوة كانت معروفة ولم تكن سرية ؛ بدليل أنهم كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ وتمادوا فى شرهم نحوه ، وكان هذا الاستهزاء والتمادى فى الشر بسبب الدعوة نفسها ، وبسبب سب الرسول ﷺ لآلهتهم ومعبوداتهم ، لأنه من الثابت أن القرشيين لم يتعرضوا لرسول الله ﷺ بالسب أو الإيذاء إلا بعد أن تعرض هو لآلهتهم ، فهل يكون معنى (فاصدع بما تؤمر) بناء على هذا ، أظهر الدين بعد أن كان مستخفياً ؟

صحيح أن بعض المسلمين كانوا يخفون إسلامهم ، وكان الرسول ﷺ يكونٌ من بعض المسلمين أسراً (خلايا) وكانت هذه الأسر تختفى اختفاء استعداد وتدريب لا اختفاء جبن وهروب ، أما الدعوة نفسها فقد كانت معروفة للجميع وفى ذلك يقول أحد العلماء ، كان رسول الله ﷺ قد جعل من المسلمين أسراً فكان يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما ، عند الرجل به قوة وسعة من المال ، فيكونان معه ويصيبان من فضل طعامه ويجعل منهم حلقات ، فمن حفظ شيئاً من القرآن علَّم من لم يحفظ فيكون من هذه الجماعات أسر أخوة وحلقات تعليم .

وكان ممن أسلم فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد ، وهو ابن عم عمر فكان فى أسرة واحدة مع نعيم عبد الله الفحام بن عدى (أسرة عمر) وكان معلمهم خبّاب بن الأرت ، وكان اختفاء المسلمين فى تلك الفترة إختفاء استعداد لا اختفاء جبن وهروب ، وكان اشتغالهم بالقرآن لا

(١) راجع القصة بتفسير القرطبى ص ٦٢ جـ ١٢ .

يقتصرون منه على تجويد تلاوته وضبط مخارج حروفه ولا على الإستكثار من سرده والإسراع فى قراءته بل كان همهم دراسته وفهمه ومعرفة أمره ونهيه والعمل به .

وأما الألوسى فى الجزء الرابع صفحة ٢٣٠ ، ٢٣١ فيفسر قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر به) بمعنى واجهر به ويقول مجاهد فيما أخرجه عنه ابن أبى حاتم أن المعنى أجهر بالقرآن فى الصلاة ، وما روى عن ابن زيد أن المراد بما تؤمر القرآن الذى أوحى إليه صلى عليه وسلم أن يبلغهم إياه وأن تكون مصدرية أى فاصدع بمأموريتك .

إذا فلم يجمع المفسرون على أن معنى (فاصدع بما تؤمر) إظهار الدين بعد أن كان مستخفياً ، وإنما رأى بعضهم وأنا أميل إليه ، أن معناه استمر فى دعوتك حتى تصدعهم فتفرق بين جماعتهم .

ولو أخذنا سورة الحجر كلها كوحدة متكاملة لوجدنا أن هناك ترابطاً بين آياتها ، فقد بدأت السورة بذكر القرآن والقسم بآياته ، ثم بدأ يهدد قريشاً ويقول أنهم سيتمنون الموت يوم القيامة حين يعرضون على النار أن لو كانوا مسلمين ؟ ثم أخذ الله يطمئنه إلى أن القرآن الذى ينزل عليه تعهد الله بحفظه ورعايته ، ثم بدأ يحكى للرسول عصيان الأمم السابقة لرسولهم واستهزائهم بهم ، وأخذ يوافق بين قدرته فى خلقه للسموات والأرض وحفظه لهذه السموات من عبث الشياطين ، واستراق السمع منها ، وامتلاكه لخزائن السموات والأرض وإرساله الرياح لواقح ، وإنزاله الماء من السماء وخلقه الإنسان من صلصال .

وما حدث من عصيان إبليس حيث عصى وامتنع عن السجود لآدم ، ثم بعدها مباشرة أراد أن يطمعهم فى مغفرته فقال (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم)[1] ؛ وأن يخيفهم من عذابه فقال تعالى : (**وأن عذابى هو العذاب الأليم**)[2] .

(١) الحجر : ٤٩ .
(٢) الحجر : ٥٠ .

ثم واصل الحديث عن عصيان الأمم السابقة لرسلهم وما حدث لهم تطميناً لرسول الله ، وتخويفاً لمن كفر به وبرسالته ، فتحدث عن لوط وقومه ، وعن أصحاب الأيكة قوم شعيب ، وعن أصحاب الحجر قوم صالح — ثم طمأن الرسول وبشره بما أعطاه إياه من فضل فقال (**ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم**)[1] وأخبره أن هذه أفضل بكثير من زخرف الحياة الدنيا وما متع الله به بعض الناس من طعام وشراب ، وألا يحزن على عدم اتباعهم إياه وأن يخفض جناحه لمن اتبعه منهم ثم أمره أن يقول لهم تهديداً (**أنى أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين**) أى المتحالفين الذى تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم[2] ، (**فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**)[3] (**فاصدع بما تؤمر**) أى لا تخف واجهر بقرآنك وبصلاتك وأعرض عن المشركين (**فإنا كافوك شرهم وحافظوك منهم**)[4] .

فأنت ترى أن هناك ترابطاً بين آية (فاصدع بما تؤمر) وما قبلها من الآيات مما يوضح أنها لم تنزل وحدها — أما أمر الرسول ﷺ بإنذار عشيرته ، الأقربين فليس معناه كما توهم كثير من الناس ، أن الدعوة حين بدأت أول ما بدأت لم تكن عامة ، وأنه أمر بإنذار الأهل والعشيرة أولا ثم أمر بعد ذلك بالإنذار العام ، خاصة وأن معظم المفسرين يرون فى تخصيص عشيرته ﷺ الأقربين بالذكر مع عموم رسالته دفع توهم المحاباة[5] ، وفى تخصيص عشيرته للإنذار أيضاً حسم لأطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب فى مفارقته إياهم على الشرك[6] .

(١) الحجر : ٨٢ .
اخيار عمر للطنطاوين .
(٢) تفسير ابن كثير ص ٥٥١ جـ ٢ .
(٣) الحجر ٩٢ ، ٩٣ .
(٤) راجع تفسير الحجر لابن كثير من ص ٥٤٥ فما بعدها جـ ٢ .
(٥) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٢٦ .
(٦) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٤٣ .

وإذا كان بعض الناس قد فهموا من قول الله لرسوله (وأنذر عشيرتك الأقربين) أنه لم يكن قد تم إنذارهم ، فما رأيهم فى قول الله تعالى للرسول فى المدينة بعد اشتهار الدعوة وانتشارها وظهور أمرها **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾**[1] ؟

وقوله **(لكل أمة جعلنا مناسكهم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم)**[2] ؟

فهل فى قوله بلغ ما أنزل إليك ، وقوله وادع إلى ربك ما يفيد أنه لم يكن يبلغ أو يدعو قبل ذلك ؟ حاشا الله ، وإنما هو لمجرد التذكير **(فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى)**[3] .

فقد طلب الله من رسوله أن يذكر قومه ويداوم على هذا التذكير والتذكير إنذاراً ، وهذه الآيات من سورة الأعلى وهى من أوائل ما نزل من القرآن فترتيبها فى النزول السابعة .

بل ما رأى السادة العلماء فى الأوليات الأولى من القرآن ، ومنها قوله تعالى **(ياأيها المدثر قم فأنذر)**[4] .

فهل كان المقصود هنا الإنذار المخصوص ، أم الإنذار العام ؟

والواضح أن قول الله تعالى فى سورة الشعراء (وأنذر عشيرتك الأقربين) جاء بعد قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) **فهذا** إنذار عام ثم خصص فقال (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

(١) المائدة : ٦٧ .
(٢) الحج : ٦٧ .
(٣) الأعلى : ٩ — ٢٧
(٤) المدثر : ١ ، ٢

هَل تأسسَّت الدّولة الإسلامية فى مكة ؟

إذا كنا قد اعتبرنا محمداً ﷺ ثائراً على الحكم والنظام فى مكة . رافضاً لهذا النظام الكهنوتى العتيق ، فلماذا لم يعلن تأسيس دولة له فى مكة ؟

الحقيقة أنه لو استطاع أن يلغى هذا النظام بقوة السيف لفعل ، ويجب أن نكون واقعيين عمليين ، فإشهار السيف فى وجه الظلم ليس منقصة ، وإنما هو ضرورة لابد منها لأن امتشاق الحسام (السيف) قد يصبح أحياناً من أسمى الواجبات الإنسانية ، فإن الإنسان لا يمكن أن يكون مرتاح الضمير إذا وقف مكتوف اليدين يتفرج على إنتهاك حرية شعب مظلوم ، أو إذا تعرضت الحرية الدينية للأخطار .

ولم يكن إمتشاق الحسام فى مكة لو استطاع محمد ﷺ ، كما نقول : «لإرغام الناس على اعتناق دينه لأنه (لا إكراه فى الدين) ولكن لمنع تسلط الحكام والمتجبرين فى مكة على الشعب المكى ، وقد رأينا مالا قاه أتباع محمد ﷺ من الأذى والعذاب الذى أودى ببعض الأرواح خلال ثلاثة عشر عاماً ، وأن أى دعوة من الدعوات لابد لها من قوة تحميها وتقف بجانبها وتضمن عدم الإعتداء عليها .

ولذلك فإنى أقرر أن السياسة والدين توأمان لا ينفصلان يخدم أحدهما الآخر ، فبالدين يمكن السيطرة على الأفراد وضمان ولائهم للدولة ، وبالسياسة والدولة يمكن إقامة الدين وحمايته .

ولذلك نجحت الدعوة المحمدية ، حيث لم يكن طابعها سياسياً صرفاً ولا دينياً صرفاً ، وإنما أخذت بالإثنين معاً ، وكان تجمع المسلمين وارتباطهم بالدولة يشكل هذا المعنى للسياسة والدولة ، ويشكل قوة كبيرة لحماية الدين والدعاية له ، ولذلك نرى أنه بعد أن كثر معتنقو هذه الدعوة . أصبحت هذه

الدعوة فى حماية الدولة عسكرياً ، وأصبحت أجهزة الدولة كلها فى حماية هذه الدعوة ، وفى نفس الوقت كانت الدعوة من العوامل القوية التى مكنت لاستقرار الحكم ونظامه .

إذاً فإنه كثيراً ما تعرض فى الحياة مواقف يصبح استعمال السيف فيها ضرورة ملحة ، وقد دل تاريخ الأديان على أن الحسام لم يستقر فى غمده فى يوم من الأيام ، وقد امتشقه (أنبياء)[1] الهندوس واليهود ، فلا الشريعة اليهودية ولا الشريعة الهندوكية تنطوى على حب السلام ، وقد صرح عيسى عليه السلام (أمير السلام) أيضاً (أنه جاء لا ليلقى على الأرض سلاماً ولكن سيفاً)[2] وجاء (ليكمل الناموس والأنبياء)[3] وكانت أحكام دينه تسمح باستعمال السيف ، وقد شهر أتباعه الحرب .

فالواقع أنه لو سنحت الفرصة المناسبة للجأ إلى السيف ، ولكن الفرصة لم تتهيأ ، ومالم يفعله عيسى بنفسه قد فعله أتباعه على الوجه الأتم ، وقد تحقق ما تنبأ به من شر مستطير ، فإن المسيحيين يصرفون الجزء الأكبر من ثروتهم وذكائهم فى إختراع الوسائل التى تؤدى إلى إطلاق نار السيف ، وإيقاد نار الحرب فى العالم ، لا سعياً وراء غاية إنسانية نبيلة ، بل إرضاء لشهوة البغى والعدوان ، وطمعاً فى السلب والنهب[4] .

والنبى محمد عليه السلام وعده الله بتأسيس الدولة وهو فى مكة ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون**﴾[5] .

وأمره ألا يقابل الشدة بالشدة ﴿**فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله**

(١) يطلق على دعاة الهندوس أنبياء تجوزا .
(٢) إنجيل متى إصحاح ١٠ ـ ٣٥ .
(٣) إنجيل متى إصحاح ٥ ـ ١٨ .
(٤) محمد المثل الأعلى للأنبياء ، تأليف كمال الدين ، تعريب أمين محمود الشريف ص ١٥٩
(٥) سورة الصافات : الآيات ١٧١ إلى ١٧٣ .

بأمره﴾[1] ومن وعد الله له بنصر حكومة الإسلام ، ومنها نفهم فكرة الدولة فى مكة ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾[2] وقول الله ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾[3] وقول الله ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا**﴾[4].

ولقد كان التشريع المكى الذى جاء به القرآن فى مكة دليلا على أنه بصدد قيام الدولة ومقدمة لتأسيسها ، فلم تكن السور المكية مقصورة على الرد على المشركين وتسلية أصحابه ، ولكنها شملت مع ذلك التشريع أهم المقاصد التى بعث الرسول الكريم لتقريرها كما أتت به الشرائع .

وخلاصة ذلك مبينة بقول تعالى ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ [5].

وقوله جل شأنه ﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير**﴾ [6].

فكان التشريع المكى تشريعاً كلياً عاماً يعنى بالمسائل التى عنيت بها جميع الأديان السابقة الحقة ، وهو القدر الضرورى لكل زمان ومكان ، المشتمل على الأحكام التى يتوقف على العمل بها تطهير القلوب وإصلاح النفوس وتكوين السلوك [7].

صحيح أن المسلمين فى مكة كانوا أفراداً قلائل مستضعفين لم تكون منهم أمة كاملة ولم تكن شئون الدولة الصحيحة قد وضحت بعد ، وكان همُّ الرسول الأكبر موجهاً إلى بث الدعوة وإلى توحيد الله ، ولم يكن فى هذه الفترة متسع للعمل السياسى المنظم الكامل .

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .
(٢) سورة الشورى : الآية ٤٠ .
(٣) سورة القمر : الآية ٢٥ .
(٤) سورة غافر : الآية ٥١ .
(٥) الشورى : ١٣ .
(٦) الشورى : ١٥ .
(٧) الاسلام ظهوره وانتشاره . حامد عبد القادر ص ١٨٩

فلم يكن هناك داع إلى التشريع العملى ، ولا ضرورة عاجلة لسن القوانين المدنية والتجارية ونحوها .

ولذلك كانت معظم آيات السور المكية خاصة بالعقيدة والخلق والعبر من السير الماضية .

وهذه التشريعات عبارة عن تفريعات عن الأصل والأساس الذى لابد من تقريره والإقرار به أولا وهو : إثبات وحدانية الله والإقرار بعبادته ونبذ ماعدا ذلك من تفريعات يراعى فيها سنة التدرج والبدء بالأهم فالمهم .

ولذ فلا مجال لدعوى بعض المستشرقين من أن الرسول ﷺ تغير فى المدينة عنه فى مكة ، وأن الطابع السياسى زاد بروزاً والطابع الدينى زاد تراجعاً ، وأنه لم يعد بعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس لإقناعهم بالحجة بصدق الدين الذى أوحى إليه ، وإنما ظهر الآن ما يكون إلى التعصب مندفعاً يستغل ما فى سلطته من قوة ومهارة سياسية فى فرض نفسه وفرض آرائه[1] .

فقد راعى الرسول ﷺ سنة التدرج الطبيعى فبدأ بالأصل ثم عرّج بعد ذلك على الفروع كما قلنا ، بادئاً فيها بالأهم فالمهم ، وكان من الحكمة الإلهية أن تكون التشريعات سواء كانت أحكاماً قرآنية أو أحكاماً شرعها الرسول ﷺ باجتهاده ، إنما تشرع إما لحادث اقتضى تشريعها كالأحكام القرآنية كلها ، أو قضاء فى خصومة أو فتوى فى واقعة ، أو جواباً عن سؤال ، كأحكام الرسول الاجتهادية التى لا تعدو أيضاً عن أن تكون تعبيراً عن إلهام إلهى ، فهى أحكام إلهية ليس للرسول فيها إلا التعبير عنها بقوله أو فعله أو أحكام صدرت عن بحثه ونظره دون إلهام إلهى ، ولكن الله لا يقره إلا على الصواب منها ، لأنه ملحوظ برعاية الله[2] .

(١) يوليوس فهلوزن وجولد تسهير ، راجع للأول تاريخ الدولة العربية ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريده ص ٥ ــ ٦ وللثانى العقيدة والشريعة فى الإسلام ترجمة د . محمد يوسف موسى وآخرين ص ١٦ ومابعدها .

(٢) التشريع الإسلامى د عبد الوهاب خلاف ص ٧ ، ٨ ، ٩ بتصرف .

وكان من الحكمة أن تكون هذه التشريعات هكذا حتى تكون أثبت فى النفوس عنها مالو كانت مجرد قوانين مجردة عن حوادثها وأسبابها .

كما أن التدرج الزمنى للأحكام ، وعدم تشريعها دفعة واحدة فى قانون واحد كان لتيسير معرفة القانون بالتدريج مادة فمادة ، ولتيسير فهم أحكامه على أكمل وجه للوقوف على الحادثة والظروف التى اقتضت تشريعها[1] .

ولقد كان التخطيط النبوى دقيقاً ومنظماً ، وكان تخطيطاً سياسياً محكماً ، فما كان اختيار رسول الله ﷺ لدار الأرقم بن أبى الأرقم لمجرد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح دينية فقط ، وإنما كانت مكاناً للاجتماع والتشاور فى كل شيء وليس لمؤرخ أن يقول إن ما كان يدور فى اجتماعات هذه الدار هو شيء معين يستطيع أن يحدده ، ولكنى أعتقد أن الرسول ﷺ كان قد حدد لكل فرد من هؤلاء عمله بدقة وتنظيم ، أليس هو الذى أشار على بعض أتباعه بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه**»[2] .

لو كان الرسول كما يقول بعض المغرضين مجرد داعية فقط لرسالته لبلّغ الرسالة وترك أتباعه وأنصاره يتصرفون كما يشاءون ، ولما جمعهم بهذا الشكل ، ولما اختار لهم ناديا يجتمعون فيه ومقراً لهم يلتقون ويتناصحون ويتفهمون ويتعلمون وينتظرون اللحظة الحاسمة التى يكون فيها لتجميعهم هذا شرعية العمل المنظم ، وحرية الحركة الإيجابية للدعوة إلى الله ، ولن يكون ذلك إلا بوجود الكيان المنظم الذى يجمعهم والهيئة المنظمة التى تدبر أمرهم وترعى شئونهم ، والذى يظن أن الرسول لم يفكر فى إقامة الدولة ولا فى تأسيسها إلا بعد وصوله للمدينة إنما هو مخطىء جانبه الصواب ، صحيح أن الدولة الإسلامية لم تتوافر لها الأركان الأساسية التى يجب أن تتوفر ليكون للدولة كيان

(١) التشريع الإسلامى د . عبد الوهاب خلاف ص ٧ ، ٨ ، ٩ بتصرف
(٢) سيرة ابن هشام ٣٢١ ، ٣٢٢ والتاريخ الإسلامى د . حسن ابراهيم ص ٨٧ جـ ١

ووجود عملى إلا فى المدينة ، لكن التفكير فى هذه الدولة إنما كان فى مكة ، وقد قامت الدولة بالفعل والرسول فى مكة بعد بيعة العقبة الثانية ، وقبل أن ينتقل الرسول إلى المدينة وكما سأثبته فى صفحات قادمة إن شاء الله .

وقد كانت فكرة الدولة موجودة فى عقل الرسول وفكره لحماية هذه الدعوة ؛ ولنشرها من أول يوم أمر فيه بتبليغ الرسالة ، وكما قلت لابد لكل دعوة من قوة تحميها ، فكان من الطبيعي والمنطق أن يكون الذين دخلوا فى دعوة جديدة ، جماعة واحدة ، وأن يعملوا مايستطيعون ليكون لهم القيام بشعائر دينهم فى حرية وأمن ، ثم لتكون لهم القدرة على نشر الدين بين الذين آمنوا به ودخلوا فيه ، وهذا وذاك لا يتأتى إلا إذا كانت لهم دولة حرة آمنة تشرف عليهم وتدبر أمورهم الدينية والدنيوية[1] .

ومن ثم كان لابد أن يفكر الرسول فى ذلك وهو فى مكة ، وليس كما يقول بعض المستشرقين ممن فى قلوبهم مرض من أن الرسول لم يفكر فى إقامة دولة إلا بعد الهجرة إلى المدينة ، حينما رأى أنه وأصحابه قد أصبحوا فى منعة وقوة تمكنهم بعون الله من الوقوف أمام المشركين .

كانت فكرة التأسيس موجودة فى فكره ، وكان يعمل لها بالفعل كما قلنا ، ولم يكن هناك مانع من قيام هذه الدولة إلا قلة عدد المسلمين وضعفهم .

ولقد كان الرسول ﷺ يتمنى أن تؤمن قريش كلها بعودته حكاماً ومحكومين ، وأن تقوم مكة باعتبارها حامية للبيت بواجبها نحو الدعوة الجديدة ، وأن يكون أول دولة تتأسس فى الإسلام عاصمتها مكة .

ولكن شاء الله أن تكون حاضرة دولة الإسلام مدينة أخرى هى (يثرب) ومع أن القرشيين وقفوا فى وجه الدعوة خوفا منها لأنهم تصوروها ستقضى على وسائل معايشهم وتجارتهم الواسعة ، وستقضى أيضاً على نفوذ مكة والكعبة على العرب ، إلا أن محمداً الرسول ﷺ ، لم يكن فى واقع الأمر يريد أن ينال

(١) نظام الحكم فى الإسلام د . محمد يوسف موسى ص ١٢ .

من نفود مكة أو الكعبة ، بل على العكس كان يرى دائما أن من واجبه المحافظة على هذا النفوذ ليستغله هو فى نشر دعوته بين العرب ، إذا ما تحول أهل مكة إلى الإسلام خصوصاً وأن مكة يرتبط تاريخها بإبراهيم عليه السلام الذى تنسب إليه الحنيفية (أى الإسلام) .

رأيي في أسباب الهجرة إلى الحبشة

معظم المؤرخين على أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة لضعفهم ولخوف الفتنة ، ولكنني أرى أن الرسول ﷺ حين أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لم يكن هذا لضعف ولا لخوف من الفتنة ، خصوصاً وأن معظم الذين هاجروا لم يكونوا من المستضعفين ، بل إن المستضعفين الحقيقيين لم يهاجروا أمثال بلال وعمرو بن فهيرة وزنيرة وغيرهم ممن اشتراهم أبو بكر وأعتقهم ، ولو حاولنا معرفة أسماء هؤلاء الذين هاجروا ، لعرفنا أن معظمهم كان من علية القوم وأنهم من أشراف بطون مكة .

وهل يعقل أن يهاجر جعفر بن أبي طالب خوفا من الفتنة وأبو طالب يحمي محمداً نفسه ، وإذا كان جعفر لم يكن له من يحميه في مكة فمن كان يحمي علياً أخاه ؟

كذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف وعبيد الله بن جحش وأخوه عبد الله والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وغيرهم من كبار رجالات قريش ومن هم من أحسن عائلاتها وبطونها ، فالمعروف أن الذين خرجوا من بني أمية وبني هاشم وبني أسد وبني نوفل وبني عبد الدار وبني تيم وبني جمح وبني سهم وبني عدي ٦٧ مهاجراً[١] من عدد المهاجرين الذين هاجروا للحبشة ، وهذه البطون التي ذكرتها هي ما انتهى إليها الشرف من قريش .

يقول محمد شكري الألوسي في بلوغ الأدب ص ٢٤ جـ ١ (اعلم أن من انتهى إليه الشرف من قريش إلى بزوغ نور الإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وهم (هاشم ــ أمية ــ نوفل ــ عبد الدار ــ أسد ــ تيم ــ مخزوم ــ عدي ــ جمح ــ سهم) .

(١) راجع في ابن هشام اسماء وبطون من هاجروا إلى الحبشة ص ٣٢٢ إلى ص ٣٣٣ جـ ١

إذاً فلم يكن الغرض من الهجرة هو الضعف والخوف من الفتنة خصوصاً وأن معظمهم كما قلنا لم يكونوا من المستضعفين .

ولعل الرسول زيادة على ما قلناه كان يريد أن يطمئن الراغبين فى الإسلام إلى أن الإسلام له بلد آخر يمكنه الالتجاء إليه عند الحاجة .

وإذا كان معظم اتباع الرسول من المستضعفين ؛ فإن الرسول أراد بالهجرة لبعض وجهاء المسلمين إفهام هؤلاء المستضعفين أن الهجرة ليست مقصورة على المستضعفين من المسلمين وحدهم .

هذا زيادة على ما قلناه من أنها أفادت من الناحية الإعلامية للدعوة الإسلامية ، حيث تسامع العرب وغيرهم فى الجزيرة العربية ، وخارجها بهذا الدين ، وعرفوا أن مجموعة من المكيين قد خرجوا من بلدهم فراراً بدينهم وهو دين جديد ظهر فى مكة على يد نبى ، فيحاولون البحث عن صاحب هذه الدعوة ومحاولة معرفة حقيقتها ، وبهذا تنتشر الدعوة خارج مكة ولعل هذا كان من أسباب قدوم الطفيل بن عمرو الدوسى إلى مكة وذهابه إلى الرسول برغم تحذير قريش له حين عرفت أنه قد جاء ليسأل عن الدعوة التى يدعو إليها محمد ﷺ وإسلامه بعد أن ناقش الرسول فيما يدعو إليه الإسلام وعرف أنها دعوة حق ، حتى أن الطفيل فى هذه الفترة المبكرة من حياة الدعوة كان سبباً آخر من أسباب انتشار الإسلام فى الجزيرة العربية حيث حمل الطفيل على كاهله عبء دعوة قومه إلى الإسلام ، ولم يكن الطفيل الدوسى إلا مثلا من كثير[1] .

كذلك (قدم على الرسول وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى حين بلغهم خبره فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له فاستجابوا وآمنوا به وصدقوه مما غاظ قريشاً ، حتى سبوهم وقالوا لهم خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلتطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ولم تثن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة محمد ولم ترده عن الإسلام[2] .

(١) راجع ابن هشام وقصة إسلام الطفيل ص ٣٨٢ إلى ٣٨٥ القسم الأول

(٢) حياة محمد ص ١٣٧

ثم إنه ولاشك قد آمن بهذه الدعوة عن طريق هؤلاء المهاجرين بعض الأحباش وإن كانوا قلة ، ولم يظهر أثرهم واضحاً فى زمن الرسول ، إلا أنه من الثابت أن الرسول قد التقى بنفسه ببعض الأحباش المسلمين فأكرمهم وقام على خدمتهم[1] .

وكان هؤلاء المسلمون ولاشك نواة انتشار الإسلام فيما بعد فى الحبشة وإن كان ذلك لم يحدث إلا بعد زمن طويل .

ولقد أثمرت هجرة هؤلاء ثمارها فى قلب الجزيرة العربية وفى خارجها ، فخرج ثلاثة وثمانين رجلا من مكة غير النساء والأطفال إلى بلد آخر لم يكن ليخفى على القبائل العربية الموجودة فى قلب الجزيرة العربية ، حيث تسامعوا ولاشك عن هذه الدعوة وعن هجرة بعض أتباعها ولو عن طريق قوافل التجارة المتنقلة بين أجزاء الجزيرة العربية وبينهما وبين الشام واليمن .

بل إنى أرى أن ذلك كان من العوامل التى ساعدت على قبول اليثربيين للدعوة حين عرضت عليهم ، بعد أن عرفوا مدى تمسك أتباع هذه الدعوة بها وبصاحبها وتركهم بلادهم وأوطانهم وأهليهم فى سبيل الدعوة ، هذا مع سماعهم من اليهود وهم أهل الكتاب عن قرب ظهور نبى .

وإنى أرى أن بقاء بعض المهاجرين فى الحبشة حتى السنة السابعة للهجرة وبعد استتباب الأمن للرسول واستقراره فى المدينة ، وزوال السبب الذى يرى كثير من المؤرخين أنهم هاجروا بسببه وهو خوف الفتنة فى دينهم .

أرى أن بقاء هؤلاء فى الحبشة حتى هذه الفترة كان مقصوداً ، ولعل الرسول ﷺ أراد ببقائهم وفيهم جعفر بن أبى طالب نشر الدعوة الاسلامية فى بلاد الحبشة ، خاصة وأن الرسول ﷺ لم يكن يألو جهداً فى إرساله الدعاة إلى كل المناطق التى يعتقد الرسول إمكان استجابتها للدعوة .

(١) روى البيهقى بسنده عن أبى أمامة قال : قدم وفد النجاشى على رسول الله ﷺ فقام يخدمهم فقال أصحابه نحن نكفيك يارسول الله فقال « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم » شرح الفتوح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد للشيخ الساعاتى : جـ ٢٠ ص ٢٢٠ الطبعة الأولى .

وسنتحدث عن إرساله للدعاة فى فصل آخر إن شاء الله ، وإلا فكيف يفسر بقاؤهم فى الحبشة حتى أوائل السنة السابعة من الهجرة ، مع حاجة الرسول إليهم لمساعدته فى حروبه ضد المشركين ؟

فلقد كان بقاؤهم هناك فى الحبشة مع نشرهم الدعوة عبارة عن بعثة دبلوماسية تمثل المسلمين فى بلاد الحبشة وتتعرف على أحوالها .

ولعل الرسول كان يخشى محاولة غدر الأحباش وهجومهم على الدولة الإسلامية ، ووجود جعفر وأصحابه فى الحبشة سيمكن الرسول من معرفته للأخبار أولا بأول ومعرفة ماإذا فكر الأحباش فى مفاجأتهم ومحاولة الغدر بهم .

وقد يسأل سائل : ولماذا لم يبق المهاجرون إذاً فى الحبشة حتى ينتهى الرسول من السيطرة على كل الجزيرة العربية ، ويطمئن إلى أنه لم يعد هناك عدو يمكن أن يحاربه ويشغله فى داخل الجزيرة ؟

أقول . إن الرسول كان قد اطمئن إلى الحبشة وملكها ، بعد أن خبرها عمليا طيلة هذه الفترة ، وكان الرسول مطمئنا بالذات إلى ملكها النجاشى ، خاصة وأكثر الروايات على أنه قد أسلم ، وليس معقولا أن يحارب المسلم المسلم .

ولا يبعد أن يكون الرسول ﷺ خاف على هؤلاء من بطش الأحباش بهم بعد وفاة النجاشى الذى مات فعلا بعد شهور من وصول هؤلاء المهاجرين إلى المدينة ، وخاصة وأن النجاشى أسلم قبل ذلك وحاولوا خلعه عن الحكم ؛ وكان من بين الأسباب التى أدت إلى الثورة عليه هى سماعهم بإسلامه وحمايته لهؤلاء المهاجرين ، ولا يبعد أن يكون الرسول قد عرف عن طريق الوحى أن النجاشى قد قرب أجله فطلب استدعاء أصحابه خوفا عليهم .

والرسل يعتمدون فى كثير من أحوالهم على الوحى وخبر السماء ﴿**وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون**﴾[1] .

(١) سورة هود ٣٥ .

فقد عرف نوح عن طريق الوحى أنه لن يؤمن بعد الآن إنسان ، ولذلك حين دعا على قومه قال : ــ

﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[1] .

وقد روى أن النجاشى حين مات أخبر النبى بوفاته فصلى عليه الرسول ﷺ صلاة الجنازة واستغفر له[2] .

ويمكن اختصار أسباب الهجرة إلى الحبشة ونتائجها فيما يلى : ــ

١ ــ اطمئنان الرسول إلى عدالة النجاشى ، وأن قومه لن يظلموا عنده ولن يهضم حقهم بدليل قول الرسول **«لو هاجرتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد»**[3] .

٢ ــ كان الرسول يأمل فى أن ينتشر الإسلام فى الحبشة . فرسالته عامة .

٣ ــ رغبة النبى ﷺ فى إعلام العرب جميعا والدول المجاورة على وجه الخصوص بالدين الجديد ، وهو من أدلة عالمية الدعوة الإسلامية .

٤ ــ كان الرسول يعرف بالوحى من الله أن الدعوة ستنتشر فى الجزيرة العربية وبلاد الشام وغيرها من ربوع آسيا وأفريقيا ، وكان إسلام صهيب الرومى وسلمان الفارسى وبلال الحبشى عنواناً على عالمية الدعوة واعتناق شعوبهم لها .

ولقد وكل الرسول إلى بعض أتباعه ، نشر الدعوة الإسلامية بين قبائلهم العربية كالطفيل بن عامر وأبو ذر وغيرهم ، ولما كانت الحبشة فى حاجة إلى دعاة يدعون للإسلام ، وكانت قريش تحارب الدعوة وتؤذى أتباعها ، رأى النبى بثاقب فكره أن يبعث بهؤلاء يدعون للإسلام وفى نفس الوقت يبعدهم عن أذى قومهم وليس بسبب الأذى وحده .

(١) سورة نوح ٢٦ .
(٢) ابن هشام ص ٣٤٠ القسم الأول .
(٣) ابن هشام ص ٣٢١ القسم الأول .

٥ ـ ولاشك أنه كان لهجرة المسلمين للحبشة أثر كبير فى نشر الإسلام وترغيب الناس فيه . فقد ذاع بين العرب أن فريقاً من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فرارا بدين تلقوه عن نبى بمكة ، وبذلك سمع بالدين الجديد من لم يسمع به من قبل ، وكما قلنا عرف الأحباش الإسلام وأسلم بعضهم وإن كانوا قلة .

٦ ـ كما أنه لخروج هذه الجماعة أثر فى تخفيف حدة عداء قومهم إذا رأوا فريقا يشترك معهم فى العروبة قد أصبح مضطهدا وأوذى فى دينه حتى اضطر أن يهاجر إلى مكان بعيد[1] .

٧ ـ لقد خافت قريش من نتائج تأييد الحبشة للمسلمين . فإنهم لم ينسوا أطماع الحبشة فى الجاهلية فى بلادهم وتجارتهم وكعبتهم ، ورأى الكفار أن هؤلاء المهاجرين يعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبى قوى[2] ولذلك أوفدوا سفيرين لمحاولة إعادة المسلمين لكنهم فشلوا .

(١) انظر الدولة العربية ص ١٠ الدكتور حسنى الخربوطلى .
(٢) المرجع السابق .

الباب الثالث

الدولة الإسلامية

في

المدينة المنورة

ميثاق قيام الدولة الإسلامية فى بيعة العقبة

تعتبر بيعة العقبة الثانية فاتحة تحول خطير الشأن فى سير الإسلام وفى تأسيس الدولة الإسلامية على السواء ، فلقد لقى النبى بعد طول جهاده ونضاله أنصار قبلوا أن ينزل فى أرضهم ويحمونه ويدافعون عنه كما يدافعون عن نسائهم وأبنائهم وهما أثمن ما عند العرب ، ويبذلون كل شىء فى سبيل تأييده ونصرته .

وقد بدأ النبى ﷺ اتصاله باليثربيين فى موسم الحج من السنة العاشرة من البعثة بنفر من الأوس والخزرج . ضمن الخطة التى وضعها لعرض نفسه على القبائل التى تزور مكة ؛ وكان منطقياً ألا يخرج الرسول ﷺ عن نطاق مكة حتى يبلغ رسالة ربه ،.وما أن أحس أنه قد أدى ما عليه نحو قرش حتى اتجه إلى خارج مكة . وذهب إلى الطائف ينشر دعوته إلا أن ثقيفاً لم تقبل هذه الدعوة ولم تبد استعدادا لمناصرته ، فلم يبق أمامه إلا القبائل الوافدة على مكة للحج والتجارة . يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الدخول فى دين الله . وكان خبره يزداد شيوعاً واسمه يزداد ذيوعاً ، ولا شك أن الجزيرة العربية كلها كانت قد سمعت وعرفت بأمر هذا النبى ومالاقاه من أهله وقومه ، وما صنعوه معه هو وأتباعه حتى اضطر بعضهم للهجرة إلى الحبشة ، وتيقن كثير من قبائل العرب أن الرسول ﷺ سيعلو أمره أكثر وأمره واصل إلى قمة السلطة المدنية لا محالة ، ولذلك شرط عليه بعض القبائل كبنى عامر بن صعصعة أن يكون لهم الأمر من بعده ، لكنه رفض وقال لهم : الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أحدهم أفتهدف نحورها للعرب دونك فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك[1] .

وأبى بعضهم الاستماع إليه ، ورد بعضهم رداً حسناً ، لكنهم جميعاً خافوا قريشاً أو جاملوها ، وكانت بين بعضهم وبينها محالفات وعهود وخضوع

(١) حياة الصحابة جـ ١ ص ٨٤

روحى باعتبارها حامية للكعبة ، ولقد ظل الرسول يدعو القبائل إلى الله عز وجل حتى انتهى إلى نفر من الأوس والخزرج ، وكانت أحوالهم فى يثرب وتسامعهم عن ظهور النبى واقتناعهم بأنه هو النبى الذى اخبرتهم به اليهود ؛ وحاجاتهم إلى منقذ ينقذهم مما هم فيه من تفكك واختلاف ، دافعاً لهم إلى اعتناق الإسلام بعد أن رأوا فيه خير منقذ لهم .

فقد روى جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى الوسم ومجنة وعكاظ[1] يقول : **«من يؤمن بى ومن يؤوينى ومن ينصرلى حتى أبلغ رسالات ربى فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه حتى أن الرجل لا يرحل من مصر أو اليمن إلى ذى رحمة فيأتيه قومه فيقولون له احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشى بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع»**[2] .

وقد أخرج أبو نعيم فى الدلائل[3] ، عن أم سعد بن الربيع رضى الله عنهما قال : (أقام رسول الله ﷺ بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله عز وجل فيؤذى ويشتم ، حتى أراد الله عز وجل بهذا الحى من الأنصار كما أراد من الكرامة ، فانتهى رسول الله ﷺ إلى نفر منهم عند العقبة وهم يحلقون رؤوسهم ، قلت من هم ياأمه ، قالت ستة نفر أو سبعة ، منهم من بنى النجار ثلاثة ، أسعد بن زرارة ، وابن عفراء ، ولم يسم لى من بقى ، قالت فجلس رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله عز وجل فقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ولرسوله ، وحين عاد هؤلاء الستة إلى قومهم وأخبروهم بخبر الرسول فتى الإسلام فى المدينة ، جاءوا فى العام الثانى اثنى عشر يثربيا من الأوس واثنان من الخزرج فاجتمعوا به عند العقبة وبايعوه بيعة العقبة الأولى .

ولقد كان من أسباب سرعة تقبل هؤلاء النفر من الخزرج للإسلام أن

(١) حياة الصحابة جـ ١ ص ٨٤ ، سيرة ابن هشام القسم الأول ص ٤٢٥٠٤٢٤

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٠

(٣) حياة الصحابة جـ ١ ص ٩٣

الخزرج كانوا حديثى عهد بهزيمة حلت بهم أمام الأوس وحلفائهم من اليهود فى يوم بعاث ، وقد حدث قبل هذا العام أن عرض النبى دعوته كما قلنا على نفر من أهل يثرب ، وكان هؤلاء النفر من الأوس قد قدموا مكة يلتمسون حلف قريش على قومهم من الخزرج ، فلم يظفروا فى الحلف كذلك لم يسلموا[1] .

وحين أخبر رجال الأوس قومهم بظهور النبى فى مكة ، ومحادثته لهم ودعوتهم إياهم للإسلام ؛ خشى الخزرج أن يسبقهم اليهود إليه وهم الذين كانوا يهددونهم باتباع نبى سيظهر ويقتلونهم به قتل عاد وإرم ، أو يسبقهم الأوس فيتحقق تهديد اليهود[2] .

ولذلك حين دعا النبى هؤلاء النفر من الخزرج قال بعضهم لبعض (يا قومى تعلمون والله أنه الذى توعدكم به يهود فلا تسبقكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه[3] .

وقد أوقف هؤلاء الخزرجيون النبى على الحالة فى بلدهم ووعدوه بالدعوة للإسلام فى يثرب ، كما بشروه بالفوز لو قدر له أن تجتمع قبائل يثرب عليه وقالوا (إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقوم عليهم ندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك)[4] .

وما أن عاد هؤلاء إلى بلادهم وانتشر الخبر فى يثرب حتى كانت المنافسة بين الأوس والخزرج ، وما كانت الأوس لتترك الخزرج تنفرد بالأمر دونها (وكان ذلك بطبيعة الحال فى صالح الدعوة) .

فجاءوا كما قلنا فى العام التالى اثنى عشر رجلاً من القبيلتين ، وكانت بيعة العقبة الأولى ، لم تزد على أخذ شروط دينية وخلقية دون مطالبتهم بعداء أحد أو منابذته بحرب .

(١) ابن هشام القسم الأول ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .
(٢) ابن هشام القسم الأول ٤٢٩
(٣) نفس المرجع ، زاد المعاد جـ ٢ ص ٥١
(٤) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥١

وهو تخطيط سديد من رسول الله ﷺ . فالناس فى يثرب لا يعرفون شيئاً عن الإسلام ولا عن مبادئه ، ولم يعرفوا بعد شيئاً عن هذه التعاليم التى يدعو إليها الرسول .

وقد كانت المدينة بحاجة إلى معلم ومرشد يعلمهم الإسلام وتعاليمه ويقرأ عليهم القرآن ويفقههم فى الدين .

أخذ الرسول منهم البيعة على (ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوه فى معروف فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذب)[1] .

ومبادىء الإسلام العامة المشتملة على الفضائل والأخلاق والآداب التى يدعو إليها الإسلام ، هى التى طلبها الرسول ﷺ من هؤلاء النفر ، ولم يكن لرسول الله أن يطلب أكثر من هذا والإسلام لم يتضح بعد لليثربيين ولا يعرفون عنه إلا أنه مجرد دعوة للفضائل والأخلاق ، وكان هؤلاء بمثابة نذر إلى قومهم لأن مهمة الرسول أى رسول ، هى تبليغ الرسالة وتجميع الأتباع لها ، أما الأتباع فمهمتهم الدعوة لهذه الرسالة والإنذار بها (**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**)[2] .

ونظراً لحاجة هؤلاء إلى تفاصيل عن الإسلام وتعاليمه وفرائضه وأركانه كان لابد أن يرسل الرسول معلماً لهؤلاء القوم والأتباع الجدد يعلمهم ويفقههم وكان لابد أن يكون هذا الداعى جديراً بالقيام بهذه المهمة الخطيرة التى اختير لها ، فعلى نجاحها أو فشلها يتوقف مصير الإسلام فى يثرب ، التى تموج بالخلافات وتضطرم فيها العصبية ، كان لابد من داع لبق فطن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويأخذ الأمر بالأناة والرفق والصبر (وكانت هذه دائماً هى طريقة رسول الله ﷺ عند اختياره للدعاة أو السفراء إلى القبائل أو

(١) راجع ابن هشام ص ٤٣٣ ، ٤٣٤

(٢) سورة التوبة : آية ١٢٢

الملوك ؛ وسنتحدث عن طريقة اختيار الرسول للدعاة والسفراء فى مكان آخر إن شاء الله) .

وقد توفرت هذه الميزات فى رجل من بنى عبد الدار اشتهر بشدة الإخلاص للإسلام هو مصعب بن عمير ، الذى استطاع بهذه الأناة والصبر والموعظة الحسنة وبخصاله الحميدة أن ينتشر الإسلام فى يثرب ؛ وأن يكتسب إلى جانبه أكبر زعيمين فى قبيلة الأوس وهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير الذين كان لإسلامهما أثر كبير فى دخول بطون برمتها فى حظيرة الإسلام ، وبذلك مهد مصعب السبيل فى **يثرب** ليهاجر إليها المسلمون من مكة ، ولتكون بعد ذلك عاصمة **للدولة الإسلام** ، يطمئن فيها الإسلام ويعتز فيها المسلمون .

وقد روى أن الرسول أرسل مع مصعب (عمرو بن أم مكتوم)[1] ولعل الرسول بهذا أراد أن يكون لكل من الأوس والخزرج إمام وقارىء ، حتى لا يحدث شقاق وتنافس بينهما ، خاصة وأن القلوب كانت لا تزال فيها شيء من الحقد ، والخلاف بينهما لم يكن قد انتهى بعد .

وفى رواية ذكرها أرنولد فى كتابه **الدعوة إلى الإسلام**[2] أن الرسول ﷺ أرسل مصعب إجابة لكتاب بعثه الأنصار من يثرب ، ولكنى لا أجد دليلا عليه ، واستبعد حدوث ذلك لعدم وجود هيئة حاكمة يمكن أن تطلب هذا كذلك فإن الرسول لا يقبل التورط الذى يؤدى إليه هذا الطلب ، حين يرسل إلى جماعة دون الأخرى مما قد يسبب مشاكل هو فى غنى عنها .

وقد عاد مصعب إلى مكة فى موسم الحج ومعه جماعة من المسلمين كان عددهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان[3] وذلك لأن الاثنى عشر رجلا الذين بايعوا الرسول ﷺ البيعة الأولى فى العقبة ، عادوا إلى يثرب **دعاة إلى الإسلام** يدعون إليه بإخلاص وحماس شديدين ، فانتشر الدين الجديد فيها انتشاراً من

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ وذكر الدكتور أحمد شلبى فى كتابه التاريخ الإسلامى والدول الإسلامية أنه عبد الله بن أم مكتوم .

(٢) صحفة : ٤٤

(٣) ابن هشام ص ٤ : القسم الأول .

دار إلى دار ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول هذه الدعوة وبسبب ما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة فى تأدية رسالتهم[1] .

جاء هؤلاء الثلاثة والسبعون رجلا إلى مكة فى موسم الحج ؛ ورجع مصعب معهم ، وأخبر الرسول بالوضع فى المدينة وما آل إليه أمر الإسلام فيها ، وأخبره بقدوم هذا العدد الكبير من المسلمين واتفق مع الرسول على الالتقاء بهم عند العقبة .

فالبيعة الأولى كانت بيعة خاصة بهؤلاء النفر ، طلب منهم الرسول الإسلام وأعلنوا إسلامهم ، وطلب منهم أن يعرضوا الإسلام على قومهم (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) ولم يشترط عليهم كما قلنا عداء أحد ولا منابذته بحرب ، ولكنها كانت شروط دينية خلقية فقط .

أما هذه البيعة فلم يكن هؤلاء مجرد أفراد آمنوا بهذه الدعوة وإنما هم ممثلون ليثرب كلها (الأوس والخزرج على الأقل ، وهم أصحاب الكلمة فيها لأن المؤرخين يكادون يجمعون على أنه لم يبق بيت فى يثرب إلا ودخله الإسلام عدا ثلاث دور من دور الأوس تأثروا بأبى قيس بن الأسلت الشاعر الذى وقف ضد الإسلام وتبعته هذه الدور حتى هاجر الرسول إلى المدينة فأسلم وأسلموا[2] .

وقد حددت هذه البيعة الوضع القانونى للنبى بين أهل يثرب واعتبرته واحداً منهم ، دمه كدمهم ، حكمه كحكمهم ، وقضت ضمنا بخروجه من عداد أهل مكة حتى وإن ظل فيها ، وانتقلت بهذا الحلف تبعية النبى من مكة إلى يثرب وهذا نوع من تغيير الجنسية فى تعبيرنا الحديث فقد وافق أهل يثرب على أن يكون محمداً واحداً منهم ، وأعطوه جنسيتهم حتى وإن بقى فى مكة لظروف سياسية ودينية .

والمتتبع لتفاصيل هذه البيعة يجد أنها لم تكن مجرد مبايعة ، وإنما هى حلف

(١) الدعوة إلى الإسلام أرنولد ص ٤٤ ترجمة الدكتور حسن ابراهيم

(٢) ابن هشام ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ من القسم الأول .

واتفاق على قيام **الدولة الإسلامية الجديدة** ، بل وإعلان قيام هذه الدولة بالفعل واعتبار الرسول **قائداً ورئيساً لهذه الدولة** (فقد أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عقيل بن أبى طالب والزهرى رضى الله عنهما ، قصة خروج العباس بن عبد المطلب مع الرسول والتقائه بالأوس والخزرج إلى أن قال لهم . يامعشر الأوس والخزرج ابن أخى وهو أحب الناس إلى فإن كنتم صدقتموه وآمنتم به وأردتم إخراجه معكم فإنى أريد أن آخذ عليكم موثقاً تطمئن به نفسى ولا تخذلوه ولا تضروه فإن جيرانكم اليهود له عدو ولا آمن مكرهم عليه)[1] .

وقد شق على أسعد بن زرارة مقولة العباس واعتبر هذا اتهاماً ولأصحابه وقال : يارسول الله (إأذن لنا فلنجبه غير مخشنين بصدرك ولا معترضين لشىء مما تكره ، إلا تصديقا لإجابتنا إياك وإيماناً بك ، فقال رسول الله ﷺ أجيبوه غير متهمينه ؛ فقام أسعد بن زرارة وأقبل على رسول ﷺ بوجهه فقال : يارسول الله ﷺ ان لكل دعوة سبيلا ، إن لين وإن شدة ، فقد دعوت اليوم إلى دعوة متجهمة للناس متوعرة عليهم ، دعوتنا إلى ترك ديننا واتباع دينك وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك ، ودعوتنا إلى قطع ما بيننا وبين الناس من الجوار والأرحام ، القريب والبعيد ، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك ، ودعوتنا ونحن جماعة فى دار عز ومنعة لا يطمع فيها أحد **أن يرأس علينا رجل من غيرنا قد أفرده قومه وأسلمه أعمامه وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك**

ثم واصل الحديث وأخبر أنهم أجابوه إلى ذلك بألسنتهم وصدورهم وأيديهم إيماناً بما جاء به . وقال . نبايعك على ذلك ونبايع ربنا وربك ؛ يد الله فوق أيدينا ودماؤنا دون دمك يدلك نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا .

ثم قال : (يارسول الله خذ لنفسك ماشئت واشترط لربك ماشئت)[2] .

من هذا يتضح أن اليثربيين حينما بايعوا محمداً لم يبايعوه على الإيمان برسالته فقط ، وإنما بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، واعتبروه

(١) حياة الصحابة ٩٥ ، ٩٦ (٢) حياة الصحابة ص ٩٥ ـ ٩٦

واحداً منهم ، يدافعون عنه ويحمونه كفرد منهم بل واعتبروه من هذه اللحظة **قائداً لهم وزعيما ورئيساً** ، وأسلموا قيادهم له وأخبروه أنهم إزاء هذا سيغيرون سياستهم تجاه جيرانهم من اليهود والعرب جميعاً ، وعرفوا أيضاً بثاقب فكرهم وبعد نظرهم أن هذا الوضع الجديد ربما يسبب لهم الدخول فى حروب ومعارك مع غيرهم ، فاستعدوا لهذا .

ولذا نرى البراء يمد يده للرسول يبايعه ويقول له : (بايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر)[1] .

واطمأنوا إلى استمرار بقاء الرسول بينهم حين قال أبو الهيثم بن التيهان أحد أعضاء الوفد (يارسول الله إنه بيننا وبين الرجال «أى اليهود» حبال نحن قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فتبسم محمد ﷺ وقال لهم : بل الدم الدم ، والهدم الهدم. أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم)[2] .

ولما هم القوم بالبيعة اعترضهم العباس بن عبادة قائلا (يامعشر الخزرج أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن فدعوه ،فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، فأجاب القوم أن نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف)[3] .

فقد استوثق الطرفان كل لنفسه ، واستوثق العباس لابن أخيه أيضاً ، وبعد أخذ البيعة من هذا الوفد الممثل لكل مدينة يثرب تقريباً ، تغير الوضع القانونى للنبى وأصبح الرسول ﷺ بهذه البيعة واحداً من أهل يثرب ورئيساً لهم ، وله أن يتصرف بما شاء ابتداء من هذه اللحظة ، وعليهم السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره[4].

(١) حياة محمد ١٦٩
(٢) حياة محمد ١٧٠
(٣) المرجع السابق ١٧٠
(٤) نفس المرجع السابق

والمؤرخون يسمون هذه البيعة الحرب ويقول ابن إسحاق[1] ، وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله فى القتال شروطاً سوى شرطه عليهم فى العقبة الأولى ، كانت الأولى هى بيعة النساء ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسول الله ﷺ فى الحرب ، فلما أذن له فيها وبايعه رسول الله فى العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

وعبادة بن الصامت يقول بايعنا رسول الله بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ... إلخ .

كذلك ومما يدل على أن هذه المبايعة لم تكن مجرد إعلان بإسلام نفر من الناس أن قريشاً حين عرفت ما حدث فيها بالتفصيل ، وأحست أن الوضع قد تغير بالنسبة لمحمد ﷺ وأنه كوّن من هؤلاء جماعة بايعوه على حربهم ، أو هم أحسوا أنهم بهذه البيعة سيضطرون إلى حربهم ، خصوصاً وأنهم كانوا قد عرفوا أن محمداً سيخرج معهم إلى بلادهم وهم ما كانوا يجهلون الحالة التى وصل إليها الإسلام هناك فى المدينة ، ولهذا ذهب بعض كبار قريش إلى منازل اليثربيين بمكة غداة البيعة وقالوا لهم (يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وأنه والله ليس حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم)[2] .

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن اليثربيين كانوا قد بايعوا الرسول واتفقوا معه على كل شىء ، واختيار الرسول ﷺ لتسع نقباء من الخزرج وثلاثة من الأوس إنما (على ماأعتقد) كان بسبب إسلام أكثر الخزرجيين ، ولم يكن قد أسلم من الأوس غير بطنين من بطونها الخمسة ، فكان اختيار النبى للنقباء بنسبة عدد من أسلم من كل قبيلة .

ولا يمنع أن يكون الـ٧٣ الذين جاؤا من المدينة ممثلين عن بطونهم بدليل أن

(١) ابن هشام ص ٤٥٤ الجزء الأول .
(٢) ابن هشام ص ٤٤٨ الجزء الأول .

الأوس لم يكن منهم غير ١١ فقط ، والباقون من الخزرجيين ، ولعل الأوسيين أحجموا فى بادىء الأمر عن اعتناق الإسلام ، خصوصاً وأنهم كانوا هم المنتصرين على الخزرجيين فى حرب بعاث ؛ وخافوا أن يؤدى اعتناقهم الإسلام إلى مساواتهم بالخزرج ، ولكنهم فى النهاية اضطروا إلى اعتناق الإسلام بعد أن أحسوا أن عدم اعتناقهم له سيحرمهم من ميزات كثيرة ، وبعد أن رأوا انتصار الرسول فى كل معاركه .

وكان لابد من تنظيم جاد لهذه الجماعة وتخطيط جديد لهذه الدولة الناشئة التى أعتقد أنها **تأسست منذ هذه اللحظات بالذات** ، حيث اكتملت كل مقوماتها وأصبح الشعب والأرض والحكم موجوداً منذ هذه اللحظة ، واكتملت بذلك أركان الدولة من الناحية القانونية ، ولهذا نجد الرسول ﷺ يصدر الأمر إلى هؤلاء القوم ويطلب منهم أن يختاروا من بينهم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم .

ويختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة فقط من الأوس ، ويقول النبى لهؤلاء النقباء وهم المسئولون أمامه من الآن عن بطونهم وقبائلهم (أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى)[1]

وأصبح هؤلاء الكفلاء من الآن مسئولين أمام الرسول ، لا يتصرفون إلا بإذنه وأمره ، ولهذا نراهم يعرضون عليه قتال أهل منى لإثبات أنهم على عهدهم ، مطيعون لأمره منفذون لأوامره ؛ إلا أن الرسول يرد على صاحب هذا الاقتراح ويقول : (لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم)[2] .

ولهذا نجد أن القرشيين غيروا موقفهم من محمد ﷺ بعد أن عرفوا بأمر هذه البيعة ؛ **وبانتسابه إلى أهل يثرب** وموافقته على اللحاق بهم وتقرر بعد اجتماع طويل فى دار الندوة تداولوا فيه الأمر ، واستعرضوا كافة احتمالات الموقف ، ضرورة التخلص من محمد ﷺ شخصياً بالقتل الأمر الذى لم يحدث من قبل ، حيث لم يفكروا فى مثل هذا الأمر قبل هذه الحادثة ؛ وذلك لأن

(١) حياة محمد ١٧٠ (٢) المرجع السابق

الوضع تغير وأصبح محمد ليس مجرد ثائر على الحكم أو خارج على النظام ، وإنما منذ الآن **زعيما لجماعة وقائدا لدولة** فى إمكانها أن تناوىء وأن تحمل السلاح ضد هذا النظام وهذا الحكم ، وعرفوا أن قتل محمد هو أفضل طريقة لحفظ كيان دولة مكة على أن يكون هذا القتل قتلا جماعياً تشترك فيه كل بطن من البطون بفتى يضربه مع الآخرين ، حتى يتفرق دمه وتعجز عشيرته عن حرب كل هذه البطون وترضى بالدية وتنجو مكة من الحرب الأهلية ، ويعود إليها كل أهلها المهاجرين ، وتعود لها وحدتها كما كانت ، ثم تسير فى تأكيد سيادتها وتحقيق مصالحها .

وهذا هو السر فى أن هذا الإجراء وهذا التفكير لم يحدث إلا بعد مبايعة العقبة الثانية بالذات ، فقد اكتفوا بتكذيبه وتفريق الناس من حوله قبل ذلك ولم يتخذوا قراراً بالقتل أو الطرد كما اتخذوا هذه المرة ، وقد روى البخارى عن ابن عمرو بن العاص أن أشد شىء صنعه المشركون برسول الله ﷺ أنه (بينما ﷺ) يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط ووضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً)[1] .

وهذا أمر عادى يمكن أن يحدث فى كل الأوساط بسبب أى خلاف عادى بسيط أو بسبب خلاف شخصى ، أو حقد من بعض الناس على رسالة رسول الله ﷺ ؛ ولم يكن هذا اتفاقا من كبراء مكة عليه ، بل إن المرة التى اتفقوا فيها عليه بعد أن ذكروا ما أصابهم منه وقالوا (مارأينا مثل ماصبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا وصرنا منه على أمر عظيم)[2] .

وحين طلع عليهم الرسول وهم على هذا الحال ، لم يستطيعوا أن يصنعوا به شيئاً أكثر من غمزه ببعض القول ، ومع ذلك نجد الرسول ﷺ يقول لهم أتسمعون يامعشر قريش (والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ص ٤٧٠ جـ ١
(٢) المرجع السابق ص ٧١ (٣) نفس المرجع السابق

فخافوا منه وترضوه ، ولم يستطيعوا أن يصنعوا به شيئاً أو يفكروا فيما فكروا فيه بعد هذه المرة .

إذا فالوضع قد تغير بعد العقبة ، ومحمد ﷺ لم يعد مجرد رجل مستضعف ، أتباعه ممزقون مشتتون مستضعفون لا يملكون له ولا لأنفسهم شيئاً ، وقد فوجئوا بتسلل المسلمين من مكة أفراداً وجماعات مهاجرين إلى يثرب يستخفى بهجرته من يخشى على نفسه ، ويستعلن بها من يجد فى نفسه قدرة على التحدى ، وحاولت قريش أن تمنع رعاياها المسلمين من الخروج ؛ وأخذت تعذب بعضهم وتنكل بهم ، بل بلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه[1] .

ومع ذلك نجحت الهجرة ولقد اتفقوا على قتل محمد ﷺ لأنهم وجدوا أن هذا أجدى من منعه من الخروج ، وهم لا يأمنون أن يتعرضوا لحرب اليثربيين دفاعا عن **نبيهم ورسولهم وزعيمهم** ، وهم أيضاً يعرفون بما عندهم من ثبات وحسن رأى وبعد نظر ، أن المهاجرين من مكة سيزيدون المسلمين فى يثرب ، ويصبحون أصحاب اليد العليا ، وأن محمداً إذا لحق بهم فإنه ربما داهمهم اليثربيون فى مكة أو قطعوا عليهم طريق التجارة إلى الشام (كما حدث بالفعل) وأن يجيعوهم كما حاولوا هم أن يجيعوا محمداً وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً[2] .

فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من هذا الهم الواصب ، ولأنهم يخشون مطالبة بنى هاشم وبنى المطلب بدمه ، وقيام حرب أهلية قد تفشو فى مكة بسببه فتكون شراً عليها مما يخشون من ناحية يثرب ، فليأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً وأن يعطوا كل واحد منهم سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل ، ويرضخ أهله ويقبلون الدية ؛ وتعود للبلاد وحدتها ومكانتها .

ومع هذا فقد تمت الهجرة ، وهاجر معظم المسلمين إلا من قدرت عليه

(١) حياة محمد ١٧٢ (٢) المرجع السابق ١٧٣

قريش ، وبقى القائد وحده فى مكة هو وأبو بكر وعلىّ وبعض المستضعفين يدبر الأمر ويخطط للانتقال إلى مقر الدولة الجديدة .

ولا مانع من أن يكون الحاكم فى بلد آخر لسبب من الأسباب يمثله ممثلون عنه دينياً وسياسياً ، فقد كان مصعب بن عمير وعمرو بن أم مكتوم ممثلين لرسول الله ﷺ فى النواحى الدينية ، وكان النقباء الذين اختارهم وفد يثرب فى العقبة ممثلين للرسول سياسياً ، فهم حكومة تعمل نيابة عن رسول الله أثناء غيابه عن مقر حكمه .

وتوطيداً لدعائم الحكم الجديد فى يثرب ، دعا الرسول ﷺ المسلمين فى جميع المناطق والجهات للذهاب إلى مقر الدولة الجديدة فى يثرب وجعل النبى الهجرة أساساً لنيل حق الرعوية لهذه الدولة اليثربية ، واستمر هذا الشرط موجوداً إلى فتح مكة سنة ٨ هجرية حتى انتهى شرط الهجرة وبقيت اختيارية ، وقد حرض القرآن الكريم المسلمين فى جميع المناطق العربية على الهجرة ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾(١) .

﴿**ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرا وسعة**﴾(٢) .

وجعل القرآن وهو **الدستور لهذه الأمة** ، المؤمنين المهاجرين غير تابعين لهذه الدولة إلا الذين هاجروا ﴿**والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا**﴾(٣)

وبعد أن أطمأن الرسول إلى استقرار أصحابه فى موطنهم الجديد ، ودبر أمره ، ونظم الخطة الجديدة التى سيسير عليها ، هاجر ومعه صديقه ووزيره أبو بكر هجرة بشرية عادية مخططة منظمة تعليمية ، فيها من الدقة والإحكام ومن العظات والعبر مايجعل الرسول ﷺ على رأس عباقرة وعظماء الساسة والمفكرين .

(١) سورة النساء : ٩٧

(٢) سورة النساء : ١٠٠

(٣) الأنفال : ٧٣

ولقد كان فى الإمكان أن ينتقل الرسول من مكة إلى المدينة بمعجزة خارقة دون عناء أو مشقة ، كأن ينتقل بالبراق مثلا كما انتقل قبل ذلك من مكة إلى بيت المقدس فى بلاد الشام ، لكن الله تعالى أراد أن يضيف إلى عبقرية محمد الإنسانية أدلة أخرى لإثبات هذه العبقرية :

الدولة الإسلامية فى المدينة

لقد كان لاستتباب الأمن بعد هجرة الرسول ﷺ واستقرار الإسلام وانتشاره فى يثرب ، وتوفيق الرسول ﷺ فى قيادة وتنظيم الدولة الإسلامية عدة أسباب :

أولا :

وجود اليهود فيها وقد هيئوا الناس لفكرة الديانة السماوية وفاخروا الأوس والخزرج بدينهم وكتابهم وعيروهم بوثنيتهم ، وهددوهم كما قلنا بظهور نبى جديد يحطم الأصنام ، فينضمون إليه ويقتلونهم قتل عاد ، وإرم وحين دعى الأوس والخزرج إلى الإسلام كانوا أكثر استعداداً لتقبله وفهماً لمعناه من وثنىّ مكة وأحرص على أن يسبقوا إليه .

ثانيا :

كذلك فإن الأوس والخزرج كانوا فى هذا الوقت أصحاب الكلمة العليا وتحالف النبى معهم ورياسته لهم سيجعلهم سادة الموقف بيثرب ويصبح اليهود موالى لهم ، وقد استطاع النبى ﷺ أن يضم اليهود إلى الجماعة الجديدة ثم استطاع حين ظهرت خيانتهم أن يخرجهم من المدينة حين أصبحوا خطراً على الدولة الناشئة .

ثالثا :

كان أصحاب الكلمة النافذة فى يثرب والذى كان من الممكن أن تقف مطامعهم الشخصية فى وجه هذا النظام الجديد ، قد مات أكثرهم فى موقعة بعاث بين الأوس والخزرج وبعد الهجرة لم يبق إلا الرؤساء الثانويون ، وكان هؤلاء أميل إلى الطاعة أو كانوا على أى حال أسهل قياداً[1] .

(١) مكة والمدينة ص ٣٨٢

كما أن خوف الأوس أن يسبقها الخزرج إلى الإسلام ، وخوف الخزرج من أن يسبقها الأوس ، شجع على اعتناق الاثنين للإسلام فكانوا يتسابقون إلى اعتناق هذا الدين حتى قبل أن يصل الرسول إلى المدينة .

يزاد على هذا عدم خوف أهل المدينة من ضياع أى شيء أو فقدانه بسبب اعتناقهم للإسلام ، بل على العكس وجدوا فى الاسلام سبباً من أسباب عزتهم ومنعتهم ، فهم زراع ولا مناصب يخافون ضياعها بل لعلهم وجدوا الأمل الذى كانوا ينشدونه .

يقول (سير توماس أرنولد)[1] ، وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية فى القرون الوسطى قد آثرت أجنبياً ليقبض على زمام الأمور فى مدنهم حفظاً للتوازن بين قوى الأحزاب المتنافسة ومنعاً للصراع الداخلى الذى كان مفسداً للتجارة والشئون العامة ، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبى نظرة تنطوى على شيء من الريبة ، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسليم زمام هذه السلطة ، بل على العكس من ذلك نرى من أسباب الترحيب الحار الذى لقيه محمد فى المدينة أن الدخول فى الإسلام قد بدأ بالطبقة المستنيرة من أهالى المدينة علاجا لهذه الفوضى التى كان المجتمع يقاسيها ،وذلك لما وجدوه فى الإسلام من تنظيم محكم للحياة وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية .

ولقد نشأت الدولة الإسلامية فى المدينة والمسلمون يومئذ من الصحابة لا يزيد عددهم على بضع مئات بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار ومع هذا فقد أخذت الدولة الإسلامية فى النمو والاضطراد .

وقد بدأ بعد الهجرة دور جديد من أدوار حياة محمد ﷺ لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل ، دور سياسى أدى فيه الرسول ﷺ من المهارة والمقدرة والحنكة ما جعل الانسان يقف مدهوشاً ثم يطأطىء الرأس إجلالا وإكباراً

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣ .

وكان أكبر همه أن يصل بيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز . وإن كانت قد عرفت إلى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن ، وكان الرسول ﷺ يستعين بوزيريه أبى بكر وعمر[1] . ويتشاور معهما .

وقد جعل الرسول ﷺ أول همه بعد تسلمه زمام السلطة رسمياً فى المدينة ، جعل تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم للقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم ، أول عمل بدأ به فى التنظيم الداخلى للدولة الإسلامية ، وحتى يسد باب الفتن لئلا تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل الهجرة آخى بين المهاجرين والأنصار ، وقبل ذلك الأنصار عن طيب نفس ، وجعل الرسول لهذا الاخاء حكم الدم والنسب فازدادت لهذا وحدة المسلمين توكيداً ، وهذه حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير الرسول ﷺ وبعد نظره خصوصاً إذا عرفنا ما كان من محاولات اليهود والمنافقين للوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لإفساد أمرهم[2] .

ولقد كان التوارث بين المتآخين فى هذا الوقت عنصراً مهماً جداً ، خصوصاً فى الفترة الأولى من حياة الدولة فى المدينة ، وذلك حتى تطرح العصبية والقبلية بعيداً ، وحتى لا يكون هناك أقوى من علاقة الدين والأخوة الاسلامية .

يقول أرنولد (ولقد كان هذا النظام لازماً حينما كان عدد المسلمين قليلا وكانت حياة التضامن ظاهرة جديدة ، كذلك فإن الفترة التى قضاها النبى ﷺ فى المدينة قبل المؤاخاة كانت فترة قصيرة جدا قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية فى النظام الاجتماعى أمرا ليس من العسير تحقيقه من الناحية العلمية ، ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجرى مكة وتقيم فى مدينة تضمر لهم العداء ، إلا أن يؤدى هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين)[3] .

(١) حياة محمد : ١٨٨
(٢) نفس المرجع : ١٨٩ (٣) الدعوة إلى الإسلام ٥٣.

وقد ألغى هذا التوارث بعد غزوة بدر أى بعد عامين من الهجرة ، حين لم يعد هذا الرباط (المؤقت) ضرورياً لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول ورعايا دولة الإسلام .

وقد وصل الرسول بهذا العمل إلى تحقيق وحدة يثرب ، وإلى وضع نظام سياسى جديد لها ، واتفق مع اليهود ، وتحالف معهم على أساس متين من الحرية والتحالف وأراد أن يوثق صلته بهم فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إليه كبراؤهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة كأهل كتاب موحدين[1] .

وبرزت فى هذا الدور المدنى عبقرية النبى وظهرت المقدرة الفائقة فى التنظيم والاحتياط للمستقبل .

فمكة كانت فيها الدعوة إلى الدين ، وتبشير المسلمين بالنصر والغلبة فى النهاية وإمدادهم بالثبات والصبر واليقين .

أما هنا فى المدينة فلم يكن عليه أن يكتفى بتبليغ الوحى الذى ينزل عليه فحسب ، بل كان عليه أن ينظم الحياة فى المدينة نفسها ؛ فلم يعد هناك مانع أو عائق يعوقه من ممارسة سلطانه بحرية كزعيم لجماعة سياسية ودولة لها كيانها واستقلالها ، وكان يدرك هذا الموقف من أول الأمر حتى قبل هجرته إلى المدينة ، وأخذ الرسول يعالج الأمور على هذا الأساس ويبنى الجبهة الداخلية بناءاً سليما قوياً حتى يمكنه مواجهة الخطر الخارجى الذى يتوقعه ، خصوصاً بعد نجاحه كل هذا النجاح .

ولقد كانت هذه الدولة فذة فى تاريخ البشرية لأنها على الرغم من قيامها فى الأصل على أسس دينية ، إلا أنها أقرت مبدأين لا جود لهما إلا فى دولة غير دينية .

الأول : حرية الأديان : وهى حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب بل إنها تتعهد برعايتها .

الثانى : هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة فى أوسع معانيها تسامحاً

(١) حياة محمد (هيكل ١٨٩)

وإنسانية هو مبدأ يكفل المساواة فى الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم[1] .

مقـــر الحكـــم

ولقد رأى الرسول ﷺ من أول الأمر أن يتخذ مكاناً يكون ملتقى للجميع ، يباشرون فيه العبادة مع غيرها من ألوان المعاملات والاحتفالات فأنشأ المسجد وأسماه بيت الله ، وفى هذا البيت كان المسلمون يلتقون للعبادة والتعلم والقضاء والبيع والشراء والاحتفالات ، ثم كثرت الأصوات حول المصلين فخصص مكاناً للتعليم وآخر للبيع .

وجعل للصلاة جانباً خاصاً بعيداً عن الضجيج أطلق عليه اسم المسجد وقد كان بيت الله عاملا كبيراً فى التوحيد والتقريب بينهم[2] .

وأرى أن جعل المسجد وهو بيت للعبادة مكانا تدار فيه شئون الدولة وتقام فيه الاحتفالات وغيرها ، أكبر دليل على أن المجتمع الإسلامى لا يفصل إطلاقا بين العبادات والمعاملات ولا يحجز بين الدين والدولة ، وقد كان هذا المسجد هو المقر الذى اتخذته الرئاسة الجديدة ، وكان كما قلنا مكاناً تبرم فيه كل الأمور ويتشاور فيه المسلمون فى شئونهم العامة من سلم وحرب واستقبال وفود وما إلى ذلك ، وكان الغرض من تأسيس المسجد ، دينياً لأداء الصلاة وسياسياً لإيجاد رابطة للجماعة الإسلامية .

وكان لابد أن يعمل الرسول ﷺ على إقامة الاستقرار بين الجماعة اليثربية والتى فشلت لحمة الدم فى أن تؤلف بينها ، فأحل محلها رابطة العقيدة وفكرة الدين المشترك ، وحرص على إزالة مابين الأوس والخزرج من عداء قديم وجمعهما فى اسم واحد هو الأنصار إبعاداً لروح العصبية وليذكرهم هذا الاسم

(١) مكة والمدينة ص ٣٨٤

(٢) التاريخ الاسلامى ص ١٣٨ : ١٣٩ جـ ١ د . أحمد شلبى .

الواحد بالتآلف لغرض أسمى وهو نصرة المبدأ الإسلامى ، ثم ألف كما قلنا بين هؤلاء وبين المهاجرين من أهل مكة بالإخاء .

ميثاق تنظيم العلاقات :

ولم يكتف بهذا بل وكأى دولة عظمى وضع النبى ميثاقا دائما (دستوراً) لتنظيم الحياة العامة فى المدينة وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها ، مما يدل على مقدرة فائقة للرسول من الناحية التشريعية ، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم .

وقد عرف هذا الدستور (بالصحيفة)[1] .

وكتابة هذه الصحيفة فى هذا الوقت المبكر وبعد الهجرة بقليل دليل على أن الدولة الإسلامية كانت قائمة فعلا قبل الهجرة ، وأن الرسول ﷺ كان يخطط لهذا التنظيم منذ فترة طويلة ، فالمعروف أن الدول لاتقوم على أساس دستور مكتوب ، وإنما تقوم الدول أولا ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور ، لكن النبى ﷺ ما كاد يستقر فى المدينة وما كاد العام الأول من هجرته ينتهى حتى كتب هذه الصحيفة[2] ، وقد جعل الرسول طرفها الأول المهاجرين والطرف الثانى الأنصار وهم (الأوس والخزرج) ، والطرف الثالث اليهود من أهل يثرب — فتعتبر هذه الصحيفة أهم ما يمكن أن يحدد لنا شكل الدولة الإسلامية وكذا معرفة وفهم الحوادث التى نشأت بعدها خصوصاً معرفة خروج اليهود على هذا الدستور ومعاقبتهم بسبب خروجهم عليه بعد التزامهم به ، والمتتبع لنصوص هذه الوثيقة السياسية الخطيرة التى وضعها الرسول منذ حوالى ألف وأربعمائة عام ، والتى تقرر حرية العقيدة ؛ وحرية الرأى ، وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة . يجد فتحاً جديداً فى الحياة السياسية والحياة المدنية لذلك العصر .

وإذا كان اليهود من بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع لم يشتركوا فى

(١) راجع نص الصحيفة — ابن هشام ص ٥٠٢ القسم الأول .
(٢) حياة محمد ص ١٩٢

توقيع هذه الوثيقة فإنه سرعان ماقبلوا هذا العهد[1] ، كذلك مالبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبى صحفاً مثلها[2] .

وهم بهذه الصحيفة ملتزمون بنصوص مافيها ، فهى خطبة عرش أو سياسة حكومة أعلنها الحاكم محمد ﷺ على الشعب والتزم بها وألزم المواطنين جميعا بجميع مافيها ، وحدد موقفهم تجاه السياسة الداخلية والخارجية على السواء .

وقد انطوت هذه الصحيفة على كثير من المبادىء والقواعد الجديدة ، والتعابير والاصطلاحات التى لم تكن معروفة بين العرب مِن قبل[3] .

١ ــ فالمسلمون أمة واحدة من دون الناس .

٢ ــ لاتغيير ولا تبديل فى الوضع الاجتماعى ، ولا مصادرة للأموال أو الأراضى فهى أقرت المهاجرين على حالهم وأقرت الأنصار على حالهم .

٣ ــ نظمت العلاقات بين المسلمين أنفسهم وحددتها ، فهم متضامنون متكافلون (لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله) .

٤ ــ الرسول ﷺ هو صاحب السلطة العليا وكل أمر يختلفون فيه يكون مرده إلى الرسول ليفصل فيه .

٥ ــ حددت العلاقات بين البطون اليهودية وبين العرب فى يثرب ، واليهود يشتركون مع المؤمنين فى الإنفاق على مدينتهم ، وهم أمة لهم دينهم وللمسلمين دينهم ، قد أنشأت بينهم مودة وتحالفاً .

٦ ــ نصت الصحيفة على اشتراك المسلمين واليهود فى الدفاع عن يثرب إذا هوجمت ولا ينفرد فريق من الفريق بعقد صلح إذا داعى إليه .

٧ ــ المدينة دار أمان فمن خرج منها فهو آمن ومن بقى فيها فهو آمن إلا من ظلم وأثم .

(١) راجع قصة الحضارة (ول ديورانت) حـ ٢ المجلد الرابع

(٢) حياة محمد ١٩٢ .

(٣) راجع نصوص الصحيفة بكتب السنة والسيرة .

والعجيب أننا لو حاولنا أن ننظر إلى هذه الوثيقة بمنظار هذا العصر لوجدناها ، ميثاقا جمع من القواعد الكلية منهاجاً يسع كل مشاكل العصر بصيغته وأشكاله المختلفة فى مجالات التقنين السياسى للشئون العالمية الخارجية والداخلية وبالمنهاج العلمى حين يصف الإسلام الحقوق ويزنها[1] .

وقد تضمنت هذه المعاهدات حقوق الأقليات ، وحقوقها فى التمتع فى أداء شعائرها وواجبات دينها ، وكان فيها أروع المبادىء القانونية فى شئون الحياة الخاصة بالمجتمع الإسلامى ، وكذلك المتعلقة بالمجتمع الدولى ، فالمسلمون تحكمهم قوانين الإسلام وتعاليمه وهم كأمة واحدة تحكمها توجيهات الإسلام ، يجب أن تعمل على نصرة ومساواة الأقليات المقيمة والمتحالفة مع المسلمين ، فقد ورد فى المعاهدة المذكورة (**وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولامتناصر عليهم**) وهم لايحمون المخربين ولا المنشقين على مجتمعاتهم فقد ورد فى المعاهدة (**وأنه لايحل لمؤمن آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يأويه ، وأنه من نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لايؤخذ منه صرف ولاعدل**) كما تضمنت هذه الصحيفة أن العدوان بكل صوره على فئة من المسلمين عدوان على الأمة الإسلامية كلها ، تقول بهذا أول معاهدة إسلامية حيث تقول الصحيفة (**وإن المؤمنين واحد لايسالم مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا سواء وعدل بينهم**) .

وفى المعاهدة الإسلامية نص صريح على تأكيد السيادة الدولية لكل أمة تتعامل مع المجتمع الإسلامى كذلك بعلاقة الأمم بعضها ببعض ، بل لو دققنا فى نصوص المعاهدة لوجدنا أنها تضمنت محالفة واتفاقا عسكرياً بمقتضاه تتعاون الأمم المتحدة فى حرب أعدائها ، فقد ورد فيها أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن على اليهود نفقتهم وأن بينهم النصر على من دهم يثرب (المدينة) .

وفى هذه الوثيقة أو المعاهدة أو **الدستور** كما أحب أن أسميها ، نصوص كثيرة تعتبر أساساً موضوعياً يتسع من وجوه كثيرة ليكون مناهج أمان لكل أشكال.

(١) الاسلام والثورة الاجتماعية ص ٣٠٨ ـ صابر طعيمه .

التعقيد الاجتماعى والسياسى التى عملت دورها فى التمهيد لصياغة عصرية مجموعة من القوانين الدولية العامة فالمعاهدة مثلا أوجبت التشاور والتناصح بين الطرفين قبل أن يدخل أحدهما الحرب . كما أنها حددت نوع العدو . وألزمت المعاهدة طرفيها بإجابة كل دعوة توجه لأحدهما إذا كانت تتعلق بالسلام فإن عليهما الالتزام معاً بالاستجابة لطلب السلام ، ففى نص الصحيفة (**وإذ دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ذلك**)[1] .

القرآن أساس التشريع فى صحيفة النبى

وقد راجع الأستاذ أحمد ابراهيم شريف فى كتابه (مكة والمدينة[2]) ، نصوص الصحيفة على القرآن الكريم فوجدها توافق القرآن فى المبادىء العامة ، فمن حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾[3] ، ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم**﴾[4] ومن حيث التراحم والتعاون بينهم ومعاونة بعضهم فيما يفدح بعضهم ويثقل كاهله ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾[5]

﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين .. إلخ**﴾[6] ، ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة ﴿**ولكل جعلنا موالى مما ترك الولدان والأقربون**﴾[7] ومن حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار ﴿**وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ..**﴾[8]

(١) الاسلام والثورة الاجتماعية بتصرف ص ٣٠٩ ـ ٣١٠
(٢) ص ٢٩٤
(٣) آل عمران : ١١٠ .
(٤) الأنفال : ٧٢ ـ ٧٥
(٥) البقرة : ٢١٥
(٦) التوبة : ٦٠
(٧) النساء : ٢٣
(٨) النساء : ٢٥

كذلك تحديد المسئولية الشخصية ﴿**ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه**﴾[1] والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[2] .

كذلك وافقت الصحيفة القرآن فى وجوب الخضوع للقانون برد الأمر إلى الدولة بأجهزتها للتصرف فى الأمور ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمرل منكم فإن تنازعتم ...**﴾[3] .

وفى شئون الحرب والسلم وأن حرب الأفراد وسلمهم إنما تدخل فى الاختصاص العام فلا تحدث فردياً ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة**﴾[4] ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾[5] ، وكذلك معاونة الدولة فى إقرار النظام والأخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو إيوائه ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى**﴾[6] .

ويلاحظ أن الصحيفة ذكرت البطون الخمسة الكبرى للخزرج وهم بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحرث وبنو جشم وبنو النجار ، ولم تذكر من بطون الأوس الكبرى إلا بطنين هما : بنو عمر بن عوف وبنو النبيت ، ثم أدمجت باقى البطون الأوسية الأخرى تحت أسم واحد وهو بنو الأوس ، وذلك لما كان عليه الحال فعلا فى يثرب ، حيث دخلت بطون الخزرج كلها فى الإسلام ، وحتى من لم يكن مؤمنا فقد دخل فى الإسلام ظاهريا ، وأما بطون الأوس فلم يدخل منها فى الإسلام إلا : بنو عمرو بن عوف وهم أهل قباء ، وبنو النبيت أما باقى البطون الأوسية فقد تأخر إسلامها فذكرتها الصحيفة مدمجة باسمها العام[7] .

كما يلاحظ إهمال الصحيفة لذكر القبائل الكبرى من اليهود التى اعتزت

(١) النساء : ١١١
(٢) الأعراف : ١٩٦
(٣) النساء : ٥٩
(٤) البقرة ٢٠٨
(٥) الأنفال : ٦١
(٦) سورة فاطر : الآية ١٨
(٧) مكة والمدينة ص ٢٩٤

بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها ، ولم تذكر إلا اليهود الموالين للبطون العربية وذلك يتفق تماما مع ما كانت عليه الحالة السياسية فى يثرب ، إلا أن الصحيفة وضعت بنداً عاما لدخول اليهود فى الدولة . احتمالا لما قد يحدث من دخول هذه القبائل فى النظام الجديد ، وقد ألحقت بالفعل بالدولة فى محالفات ملحقة كما قبلوا هذه الوثيقة بعد فترة وأقروا بما فيها كما قلنا [1] .

ولم يكن فى الإمكان أن تذوب القبائل والعشائر فى الأمة الجديدة دفعة واحدة ، وإنما بقى التشكيل الاجتماعى القبلى كما هو ، إلا أن الإسلام أنكر نظرياً فكرة امتيازات المجتمع الوثنى فى العصر الجاهلى ، وكان نظام القبيلة بقوته الداخلية وأسلوبه فى معاملة الغرباء أمراً مفيداً بلا شك ولم يكن بالامكان نبذة أو الاستغناء عنه .

فالنظام القبلى يسهل عملية تجميع الناس والانضواء تحت رياسة رؤساء القبائل كقاعدة شعبية ، ورؤساء هذه القبائل ممثلون لها يتحدثون باسمهم ، ويوصلون أفكارهم وآراءهم إلى القمة ، ولهذا ترك رؤساء القبائل كما هم ولم يحل محلهم موظفون دينيون ؛ والفرد لا ينتمى إلى الأمة إلا عن طريق العشيرة والقبيلة ؛ وجاء فى الصحيفة أن تظل القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة كما هى .

وفيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد يد سلطة كل منهما وواجباتها ؛ فقد بقيت على القبائل والنفقات ذات الصبغة الخاصة ، كدفع الدية ، ونداء الأسرى ، حيث لم تكن قد وجدت خزينة للدولة بعد ، كذلك بقى حين (الاجارة) لم يقيد فلكل فرد الحق فى أن يجير شخصاً غريباً ؛ وهو بذلك يلزم الجماعة كلها ؛ ولكن استثنى من هذه ، إجارة قريش ومن نصرها ، فإن ذلك كان محرماً على كل المشتركين فى الصحيفة ، لكن ليس من حق القبيلة أن تأخذ ثأرها بنفسها لأن أول غاية للأمة هو منع نشوب حرب فى الداخل ، وإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء .

(١) تراجع نصوص الصحيفة بكتاب السيرة النبوية لابن هشام ص ٥٠٢ القسم الأول .

وهكذا رسمت الصحيفة التخطيط العام للأمة وكانت مهمة النبى السياسية بعد هذا تنحصر فى الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها .

ولا صلة بين يثرب وبين غيرها إلا عن طريق الإسلام ، وعن طريق الالتحاق بها والتبعية لها .

لهذا ولتقوية جبهة المدينة ، اعتبرت الهجرة إليها أساساً للحصول على حق الرعوية للدولة الجديدة ، فعلى من يدخل فى الاسلام ، ويريد أن يكون مواطنا فى يثرب أن يهاجر إليها ، وقد نزل القرآن بنص صريح فى ذلك فقال : **﴿والذين آمنوا من بعد ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾**[1] .

وقد ظلت حكومة المدينة مقصورة على المدينة نفسها وعلى الريف التابع لها إلى عام فتح مكة (٨ هجرية) وظلت المدينة إلى هذا العام دولة من دول المدن كدولة مكة تماما ، وإن اختلف النظام فى كل منهما .

(١) سورة الأنفال : ٨٢ .

موقف اليهود من الدعوة الإسلامية

مما لاشك فيه أن يهود المدينة كانوا على علم بما تم بين النبى وبين الأوس والخزرج من اتفاق فى بيعة العقبة الكبرى ، وقد رأوا بأعينهم نشاط الدعاة فى يثرب قبل وصول النبى ﷺ إليها ، ولم يكن فى مقدورهم أن يمنعوا هذا الاتفاق ، أو يقفوا فى وجهه فقد كانت القوة فى يد العرب ، وفى استطاعتهم أن يدخلوا إلى المدينة من يشاؤون دون خوف اعتراض اليهود عليهم ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن قدوم الرسول إلى يثرب فى مصلحتهم ، فقد ظنوا أن فى مقدورهم استمالته إليهم وادخاله فى حلفهم ، فانه يدعو إلى ديانة تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ، ولو أفلحوا فى ضمه اليهم فربما استطاعوا أن يعيدوا إلى أنفسهم مركز التفوق فى يثرب ، ولذلك أحسنوا استقباله وبادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها ، وإلى توثيق صلاته بهم[1] .

وقد عقدوا معه عهدا وكانوا يطمعون فى أن يضموه إلى دينهم وفى أن يزدادوا به على النصارى منعة وقوة ؛ ولذلك تقربوا إليه وتقرب هو إليهم وتحدث إلى رؤسائهم وكبرائهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبارهم أهل كتاب موحدين[2] .

وكان النبى يصوم يوم صومهم ، وقبلته فى الصلاة كانت ماتزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً ، وقامت علاقة طيبة بين أصحابه من المهاجرين وبين اليهود ، فكانوا يغشون مجالسهم ويذهبون إلى بيت مدارسهم يتحدثون إليهم ويسألونهم ويسمعون منهم ويرون التوراة تصدق القرآن ، والقرآن يصدق التوراة [3].

(١) مكة والمدينة ص ٤٧٣

(٢) حياة محمد (هيكل) ص ١٩٧

(٣) راجع تفسير الطبرى جـ ٢ ص ٣٨١ : ٣٨٤

واستقرت الأحوال فى يثرب وأصبحت حرما لأهلها ، وبدت المدينة وكأنما تسير إلى ما كان ينشده لها أهلها من هدوء وتقدم ، وأخذ النبى يتجه إلى بناء الدولة الجديدة وضمان الأمن لها فى الداخل والخارج ونجحت السرايا التى أرسلها حول المدينة لتأمين ريفها وعقد المحالفات مع القبائل الضارية على جنباتها :

وهنا وجد اليهود أن دعوة الإسلام بدأت تنتشر ، وسلطانها الوحى يمتد والنبى ﷺ الذى طمعوا فى ضمه إلى صفوفهم ليزدادوا به قوة ؛ أصبح هو أقوى منهم وهو يتجه بقوته إلى المجال الخارجى ، ويعمل على توسيع نطاق دعوته ونفوذه ، بل وجدوا أن دعوته قد امتدت إلى اليهود أنفسهم واعتنق الإسلام رجل من علمائهم وأحبارهم هو عبد الله بن سلام القينقاعى الذى لم يلبث أن اتصل بالنبى فأسلم هو وأهل بيته ؛ وجابه اليهود بإسلامه ودعاهم إلى الإسلام[1] .

فقد خافوا أن تمتد دعوته إلى باقى اليهود وتفشوا فى عامتهم على حين تقضى تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى إسرائيل[2] .

وهنا بدأت حروب الجدل بين النبى ﷺ واليهود وكانت أكثر مكرا ولددا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش فى مكة ؛ فقد تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ؛ أقامتها اليهود جميعاً صفوفاً متراصة يهاجمون بها محمداً ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار[3] .

ودسوا من أحبارهم من أظهر الإسلام وأخذ يجالس المسلمين ويظهر الورع والتقوى ثم يلقى على النبى من الأسئلة مايحسبه يثير الشكوك والريب ويزعزع فى نفوس المسلمين عقيدتهم به وبرسالته[4] .

(١) حياة محمد ص ١٩٨
(٢) ابن هشام ٥١٦ ، ٥١٧ القسم الأول
(٣) حياة محمد ص ١٩٨
(٤) ابن هشام ص ٥١٣ القسم الأول

وقد انضم إليهم جماعة المنافقين من الأوس والخزرج ليسألوا ويشاركوا فى الوقيعة بين المسلمين[1] .

ولقد بلغ هذا الجدال بين محمد ﷺ واليهود مبلغا من الشدة شهد به مانزل من القرآن فيه ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ، وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم نقليلا ما يؤمنون ، ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**﴾[2] .

كان اليهود لايتركون فرصة يمكن لهم أن يوقعوا فيها بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج إلا صنعوها ، ولم يكفهم فتنة الناس عن دينهم ، ومحاولة ردهم إلى الشرك دون تهويدهم ، وصدهم لمن يريد الإسلام من المشركين ، بل حاولوا فتنة النبى نفسه وذهب أحبارهم وأشرافهم وسادتهم إليه وقالوا له (يامحمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وإنا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفوك ، وأن بيننا وبين قومنا خصومة أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم فنؤمن بك ونصدقك[3]) .

فأبى النبى فأنزل الله فيهم ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾[4] .

ولقد حاولوا أيضاً حين ضاقوا ذرعا برسول الله أن يقنعوه بالذهاب إلى بيت المقدس ؛ وهم يريدون بذلك إجلاءه عن المدينة ليخلو لهم الجو ، وذكروا

(١) ابن هشام ص ٥١٣ ، ٥١٩ القسم الأول
(٢) سورة البقرة : ٨٧ ـ ٨٩
(٣) تفسير ابن كثير ص ٦٧ جـ ٣
(٤) سورة المائدة : ٤٩ ، ٥٠ .

له أن من سبقهم من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم[1] .

لكن الرسول عرف أنهم يمكرون به ويريدون بذلك ابعاده عن المدينة خاصة بعد أن وصل إلى ماوصل إليه من القوة والمنعة وانتشار الإسلام ، بل لقد بلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حداً كان يصل أحياناً برغم مما بينهم من عهد إلى الإعتداء بالأيدى[2] .

ولقد رأى بعض الباحثين[3] . أن اليهود كادوا وكابروا ولم يبقوا فى نطاق جحود نبوة النبى وتنزيل القرآن وفى نطاق المكايدات والمكابرات والمحاكات الكلامية طويلا . بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهود والعداء الفعلى الصريح منذ عهد مبكر . فكانت مواقفهم هذه هى السبب المباشر لدور التنكيل الذى بدأت فصوله فى الربع الأول من العهد المدنى ثم استمر إلى أن تم اجلاؤهم عن المدينة .

ولقد تحدث القرآن الكريم عنهم كثيراً . وشغلوا فى القرآن المدنى حيزاً واسعاً من بدء تنزيله خصوصاً فى سورة (**البقرة وآل عمران والنساء والمائدة**) عدا غيرها من السور الثانوية[4] .

ولقد حاكوا كثيرا من المؤامرات للرسول ﷺ وشجعوا المنافقين وشاركوهم فى كثير منها ؛ بل إنه يمكن أن يقال إنهم هم الذين أوجدوهم بما بثوا ونموا فيهم الريب والشكوك ، وبما أيقظوا فيهم من روح التمرد والكيد وغذوها ؛ ولولاهم ما نما المنافقون وماثبتوا . وما كان منهم ذلك الأذى البالغ والكيد الشديد .

ولقد تحالفوا مع القرشيين وبذلك نبذوا العهد وخانوه وأصبحوا أعداء بعد أن كانوا رعية من رعايا الدولة الإسلامية ؛ بل ظاهروا القرشيين حزبياً وساعدوهم ؛ وكان جزاء كل طائفة وعقابها بحسب ما اقترفت وما ارتكبت من

(١) حياة محمد ص ٢٠٠ ، ٢٠١
(٢) المرجع السابق
(٣) محمد عزه دروزه (سيرة الرسول ص ١١١) جـ ٢
(٤) المرجع السابق ص ٤٩ جـ ٢

ذنب ؛ وليس عجيباً أن تكون الأحكام التى حكم بها الرسول ﷺ مما لا تخالف اطلاقا الشرائع ولا القوانين ولا النظم المعمول بها فى دول العالم القديم والحديث . مما سنوضحه بعد إنّ شاء الله .

وحين نكتفى بهذه الآيات الخمس من سورة البقرة والتى هى أول ما نزل بشأن اليهود حيث تعتبر من أوائل ما نزل من القرآن المدنى على الأرجح[1]

حين نقرأ هذه الآيات نجد فيها دلالة صريحة على أن اليهود لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة ، ويلفت النظر مافيها من نهى لهم من أن يكونوا أول كافر بالقرآن وعن إلباس الحق بالباطل وكتم الحق وهم يعرفونه ؛ ثم إلى السؤال الإنكارى عن أمرهم الناس بالبر وعدم سيرهم فيه . وفى كل هذا دلالات على تلك المقابلة أولا ، ثم على ظهور أمارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[2] .

ولقد قرر القرآن بعد أن ذكر كثيرا من أخلاق اليهود السيئة والفاسدة أن هذه جبلة فيهم يتوارثها الأبناء عن الآباء فاستحقوا بذلك يمين الله **﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾**[3] .

وجزاهم على هذا بتشريدهم فى مشارق الأرض ومغاربها **﴿وقطعناهم فى الأرض أمما﴾**[4].

(١) سيرة الرسول (دروزه ص ٥٧) جـ ٢
(٢) سورة البقرة : ٤٠ ــ ٤٥
(٣) سورة الأعراف : ١٦٧
(٤) سورة الأعراف : ١٦٨

وقد وصفت آيات أخرى من سورة البقرة (آيات ٨٧ إلى ٩٣) موقفا آخر من مواقف الجحود ؛ وقررت صراحة السبب الذى جعلهم يقفون موقفاً جحودياً مناقضاً لمواقفهم السابقة على البعثة التى كانوا يستفتحون بها على العرب فيجحدون شيئاً عرفوه حق المعرفة وبشروا به فاستحقوا هذه الحملات الشديدة واللعنات القاسية بسبب البغى والحقد والحسد ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل .... الآيات**﴾ .

وقد وصل الأمر باليهود زيادة على جحودهم أن خرجوا عن حدود الأدب مع النبى ﷺ وتجاوزوا هذا النطاق من الجحود وزادوا عليه السخرية والبذاءة ، وقد تضمنت هذه الآية من سورة النساء موقفا من هذه المواقف التى وقفوا فيها ساخرين من النبى ﷺ فكانوا يلوون ألسنتهم بكلمة (راعنا) حتى تؤدى إلى نعت النبى بالرعونة ، ويجهرون بعصيانه بما يأمر ويدعو ؛ ويستعملون كلمة (عصينا) على (سمعنا) استخفافا به بدلا من الجملة العربية المعتادة (سمعنا وأطعنا) أو (سمعا وطاعة)[1] ﴿**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا**﴾[2] .

بل وصل الأمر إلى إساءة الأدب مع الله فقالوا ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾[3] ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم**﴾[4] .

وعلى الجملة فانه يمكن أن يقال إن اليهود تظاهروا بالإيمان وتواصوا بعكسه ، ومما صنعوه باختصار .

١ ـ تدليسهم باسم التوراة :

٢ ـ محاولتهم تشكيك المسلمين فى صحة أفعال النبى وخاصة فى أمر تحويل القبلة .

(١) سيرة الرسول (دروزه) ص ١١٢ جـ ٢
(٢) سورة النساء : ٤٦
(٣) آل عمران : ١٨١
(٤) المائدة : ٦٤

٣ ـ كتمهم ما فى التوراة من المحرمات بقصد التشكيك .

٤ ـ تآمرهم بالتظاهر بالايمان ثم الرجوع عنه لتشكيك المسلمين .

٥ ـ دسهم بقصد إثارة الفتن والشكوك .

٦ ـ سخريتهم بالإسلام والصلاة والآذان .

٧ ـ تآمرهم مع المنافقين والمشركين .

٨ ـ تحالفهم مع المشركين وتشجيعهم لهم على الثبات على الشرك ، واتفاقهم معهم على القضاء على الكيان الإسلامى .

كل هذه الأشياء تحدث عنها القرآن بالتفصيل ولسنا هنا فى معرض الحديث عنها[1] .

ولقد تحدثنا وأطلنا الحديث فى هذه المقدمة عن كيد اليهود للدعوة والدولة الإسلامية ، وذلك لأن الكتاب اليهود ، وكثيرا من المستشرقين رأوا فى توالى فصول التنكيل باليهود ، ماجعلهم يزعمون أن النبى ﷺ قد بيت فيه التنكيل بهم وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم من البدء وإذا لم يكن قد نفذ نيته فيهم مرة واحدة فلأنهم لم يكن له قبل بهم جميعا[2]

وزعموا أن الرسول نكث بما عاهدهم عليه ، من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ؛ وأنه كان ميالا إلى سفك الدماء وطامعاً فى أموالهم لاغداقها على المسلمين .

ولقد اختصرنا برغم هذا ماصنعوه إزاء الدعوة الإسلامية ، وإزاء الدولة التى تكفلت لهم بالحرية وأعطتهم من الأمان والثقة ماأعطته للمسلمين أنفسهم .

وسنثبت إن شاء الله أن ماصنعه الرسول باليهود لم يخرج اطلاقا عما يمكن أن يصنعه أى حاكم لدولة من دول العالم القديم أو الحديث يريد حمايتها وحفظ

(١) يراجع سيرة الرسول (دروزه) من صفحة ٤٩ فما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص ١١٢ ج ٢

كيانها ؛ وكان الرسول ﷺ برغم ماصنع رحيما بهم ، فقد اتسع صدر النبى لهم سعة كبيرة فتمتعوا بحريتهم الدينية والاقتصادية والسياسية والشخصية إلى أبعد حد ، ولم يتحرك الرسول ﷺ لإتخاذ إجراء نحوهم إلا بعد أن طفح الكيل من دسائسهم ومكائدهم وأذاهم ، ووصل الحد إلى النكث بالعهد والأذى والغدر والتآمر والاضرار بكيان المسلمين مما وضحته كثيرا من آيات القرآن الكريم ، التى ذكرنا نماذج منها ، وماحفلت به كتب السنة والتاريخ .

موقف الدولة الإسلامية من اليهود

أولا : إجلاء بنى قينقاع وأسبابه : ــ

كان يهود بنى قينقاع هم أول من نقضوا ما بينهم وبين رسول الله من عهود ؛ ويكاد الرواة يجمعون على أن سبب إجلاء بنى قينقاع عن المدينة هو حادثة المرأة العربية التى ذهبت إلى سوقهم وجلست إلى صائغ يهودى ، وطلب منها بعض اليهود الموجودين عنده كشف وجهها فأبت فعقد أحدهم طرف ثوبها إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا ، وأخذت الغيرة رجلا من المسلمين فشد على الصائغ فقتله ، وانتصر اليهود لصاحبهم وقتلوا المسلم ، فغضب المسلمون وحملوا على اليهود ثم ضربوا الحصار حولهم .

وعندى أن المسألة لم تكن مسألة امرأة عربية اعتدى عليها ، وإنما كانت هذه الحادثة ؛ هى الشرارة التى أشعلت الفتيل .

فاليهود كادوا للرسول والمسلمين ؛ وخرجوا على الدولة خروجا سافرا بعد الذى جرى بينهم وبين الرسول من مناقشات ومساجلات ومماحكات ــ وما حدث من اليهود من كيد وفتن للدولة ؛ وأصبح المسلمون بعد ذلك إما أن سيكتوا عنهم ويتحملوا أذاهم الذى قد يؤدى إلى إشعال الفتنة وتمزيق (وحدة الأمة) ، **﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً﴾**[1] وإما أن يقاتلوهم ويتخلصوا منهم وينظفوا المدينة من مفاسدهم لتستقيم الحياة فيها وتسير فى طريقها المرسوم لها ويظل الشعب متماسكاً قوياً متحداً ضد العدو الخارجى ــ وحينا تنهار الأمة وتسقط تتفشى المفاسد .

ولقد رأى الرسول بعد حادثة المرأة العربية التى جعلت لأمر أكثر مما يحتمل .. رأى أنه لابد من التحرك السريع واتخاذ التدابير الكفيلة بحماية الدولة

(١) سورة المائدة : ٦٤

والدعوة ؛ فذهب إليهم وكان هذا بعد انتصار المسلمين فى بدر وزار سوقهم ؛ واجتمعوا حوله فدعاهم إلى الإسلام والدخول فى دينه لأن ذلك أفضل وسيلة لحل مشكلتهم لم تتم ، وقال لهم «**يامعشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم**»[1] .

فردوا عليه بصلف وكبرياء ؛ وقالوا والعجب والغرور يملأ أوداجهم (يا محمد إنك ترى أننا كقومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربنا لتعلمن أنا نحن الناس)[2] .

ومعنى هذا أنهم يقفون فى وجه الحاكم ويهددونه ويحاولون إفهامه أنهم أقوياء ، وأنه لايستطيع أن يحاربهم أو يناجزهم بالحرب ؛ وكان من حق الرسول كرئيس للدولة أن يتخذ الإجراء الوقائى الذى يراه مناسباً للحفاظ على أمن الدولة ، وكيانها ، فحاصرهم بقوات المسلمين وطلب منهم الخروج إلى المدينة بعد أن ظلوا محاصرين خمسة عشر يوماً[3] . اضطروا بعدها إلى النزول على حكم الرسول والتسليم بقضائه ـ وانتهت مشاورات النبى مع أصحابه باجلائهم .

وكان من حق النبى قتلهم جميعاً بعد ما ثبت خيانتهم ونقضهم للعهد . إلا أن عبد الله بن أبى تشفع فيهم وطلب من الرسول أن يرفق بهم وقال للرسول أحسن فى موالى ؛ ووافق الرسول بعد أن ألح عليه ابن أبى[4] ؛ ووجد الرسول عبادة بن الصامت أيضاً يطلب منه نفس الطلب[5]

ويرى بعض المؤرخين أن الرسول كان قد فكر فى قتلهم بعد إستشارة أصحابه[6] ولو نفذ الرسول القتل فيهم ما كان عليه شيء ولا ستحقوه بعد الذى صنعوه مع النبى والمسلمين وخانوا العهد والميثاق ؛ وقد خرجوا إلى أذرعات

(١) ابن هشام ص ٤٧ القسم الثانى
(٢) المرجع السابق ص ٤٩
(٣) المرجع السابق
(٤) حياة محمد ص ٢٤٧
(٥) المرجع السابق
(٦) المرجع السابق

على حدود الشام وبها أقاموا[1] .

ولقد خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بنى قينقاع عنها ويعتبر هذا الذى حدث تصرف سياسى آية من الدلالة على الحكمة وبعد النظر ، وهو مقدمة لم يكن منها بد للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة محمد ﷺ فى تجميع السكان وتوحيدهم ، فليس شيء أخطر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها ؛ ولم يقتل النبى منهم واحداً ولم يفقد منهم أحد ، وكانوا أول يهود أجلاهم المسلمون عن جزيرة العرب ، وكان إجلاؤهم على هذا المنوال نذيرا للقبائل اليهودية الأخرى[2] ولقد فضلوا الجلاء بعد أن أحسوا أنه لم يعد فى إمكانهم البقاء فى المدينة بعد أن انتزع المسلمون منهم السيادتين (السياسية والاقتصادية) وصار عليهم أن يقيموا تحت سلطانهم .

فلقد فوجيء اليهود وكانوا يتحكمون فى الميدان الإقتصادى والتجارى فى المدينة بعناصر جديدة تنافسهم ، ومالبثت أن تضاءلت بجانبهم خبرة اليهود التجارية ، فوجيء اليهود بالمهاجرين المكيين وفيهم مافيهم ممن برعوا فى التجارة وهى مهنتهم الأصلية ؛ ولم يكن فى الجزيرة العربية أبرع من القرشيين فى ذلك الوقت ؛ فما لبثوا أن نظموا سوق المدينة وأجروا فيها التعامل على أسس جديدة جاء بها الإسلام ، فلا ربا ولا إرهاق ولا طرقا ملتوية تذهب بأموال الناس ، وبذلك نجحوا نجاحاً كبيراً وجنوا أرباحاً لا بأس بها ، وسيطروا أو كادوا على سوق المدينة .

(والمعروف أن يهود بنى قينقاع كانوا صاغة وتجاراً) [3].

والمال وجمعه عنصر حساس عند اليهود يبيحون لأنفسهم فى سبيله مالا يباح من دين أو شرف ، وربما كان هذا من أهم الأسباب التى غيرت من معاملة اليهود للمسلمين وأثارت ثائرتهم ؛ فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين وخانوا الدولة ؛ وانبرى شعراؤهم ينظمون الشعر فى هجاء الرسول والمسلمين ويحرضون على حربهم ويشببون بنساء الأنصار [4] .

(١) نفس المرجع
(٢) أمين سعيد ص ٧٠
(٣) زاد المعاد ص ٧١ جـ ٢
(٤) ابن هشام ص ٥١ ــ ٥٤ القسم الثانى .

ولهذا نرى أنه كان لابد من إجراء حاسم يتخذ ضد هؤلاء اليهود لانقاذ الانهيار الذى يكاد أن يقضى عليها لولا يقظة الرسول وسياسته المرنة فى علاج عناصر الضعف الداخلى فى كيان الدولة ، والتى كانت تتمثل فى اليهود ، والمنافقين .

وكان تجمع اليهود ضد الإسلام واتفاقهم عليه وتآمرهم الجماعى وخيانتهم للدولة هو السبب فى اتخاذ الرسول هذا الإجراء ضدهم ، وهو كما قلنا اجراء كان يمكن أن يتخذه أى حاكم دولة ضد متمردين على الحكم خارجين على النظام .

أما المنافقون فكان لهم وضع خاص وظروف معقدة شائكة تقتضى تصرفاً آخر لا يؤدى إلى إنهيار أكثر وصدام مسلح ؛ وربما لو تعالج مثل هذه الأمور بحكمة لأدت إلى حرب أهلية ، الأمر الذى جعل الرسول ﷺ كحاكم يريد لأمته الخير والوحدة والاتحاد ، أن يتصرف بحكمة ولباقة ، وأن ينبه فقط إلى خطورة هؤلاء على الناس دون أن يتخذ إجراء مادياً ضدهم ومن حقه أن يفعل هذا ويتخذ الإجراء المناسب لردعم من أجل مصلحة الدولة وكيانها وسلامتها ، لأنهم فى حقيقة الأمر أخطر بكثير من اليهود ، وأهم عنصر من عناصر الضعف فى قلب الأمة أى أمة ، وسنتحدث عن المنافقين فى صفحات تالية إن شاء الله .

وقد عالج النبى ﷺ موقف اليهود فى براعة وقدرة ، واختار الوقت المناسب ليتحرك سياسياً نحوهم ، ليتغلب على حساسية الموقف ، وذلك لمحالفة بنى قينقاع لبعض بطون من الخزرج ، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر فى نفوس هذه البطون[1] .

فكان لابد أن يعمل النبى حساباً لشعور هذه البطون المسلمة ، فصبر حتى تحين الفرصة ليقلم أظفارهم حتى رأى نفسه مضطراً فى النهاية إلى التخلص منهم نهائياً .

(١) راجع زاد المعاد ص ٧١ جـ ٢ ، مكة والمدينة ص ٤١٥ .

ولقد دل حادث بنى قينقاع على ضعف رابطة اليهود الاجتماعية فى الحجاز وإذا كانوا قد سيطروا على شمال الحجاز فما ذلك إلا لكثرة عددهم ووفرة ثروتهم ، وجمع المال من الغرائز المركوزة فى روح اليهودى على عكس الغريزة السياسية عندهم ، فهى مفقودة أو ضعيفة على الأقل[1] .

ولقد تصرف الرسول تجاه اليهود تصرفاً حكيما عادلا حيث اتخذ من إجراءات الطرد والقتل بمقدار الضرورة ، وبقصد إزالة الضرر والخطر فقط ولمن يستحق العقوبة وحده دون غيره ـ ويدل هذا أيضاً على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملى فى وقت واحد ، وربما كان هذا بسبب أنهم كانوا كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة تسكن فى محلة خاصة ؛ وكان الولاء لا يزال موزعا بين الأوس والخزرج اللتين كانتا فى خصومة قديمة قبل الهجرة .

كذلك فيهود بنى قينقاع يساكنون الرسول فى قلب المدينة وكانوا محتكين بالنبى والمسلمين أكثر من غيرهم ، واتصالهم بالمنافقين ومحاولاتهم الدس والخديعة والتحريض ضد الدولة كان ميسوراً وكان ظاهراً ومكشوفا ، أما يهود بنى النضير فكانوا لا يسكنون فى قلب المدينة وإنما كانوا ينزلون فى ضاحيتها من جهة الغرب فى بطحان ، وبنى قريظة يسكنون فى ضاحيتها من جهة الجنوب الشرقى فى مهزورا[2] .

(١) أمين سعيد ص ٦٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢ .

الدولة الإسلامية وبنى النضير

عرفنا مما سبق أن الرسول ﷺ حين أصدر أمره باجلاء يهود بنى قينقاع عن المدينة إنما كان ذلك إجراء وقائياً اتخذه كحاكم بعد أن ثبت له خروجهم على الدولة وكيدهم لنظامها الدينى والسياسى ومحاولتهم تفتيت وحدة الأمة وتضليلهم وتحريضهم على نبذ تعاليم الإسلام، واعتدائهم على حرمة الأعراض وسبهم للرسول ومحاولة تحريفهم لكلام الله الأمر الذى لايمكن السكوت عليه .

ولما كان الرسول ﷺ قد رأى أو ظن فى أول الأمر ، أن يهود بنى قينقاع وحدهم سبب كل هذه المشاكل أو هم على الأقل أكثر اليهود تحريضاً وخروجاً على الدولة ، صنع بهم وحدهم ما صنع ولم يتعرض ليهود بنى النضير أو يهود بنى قريظة ، لعلمه أو اعتقاده أنهم لم يشاركوا فى هذا التمرد والانحراف ، أو لعله عرف عنهم شيئاً من هذا . إلا أنه لم يصل إلى الحد الذى يوجب اتخاذ اجراء ضدهم ، أو لعله ظن أن طرده لبنى قينقاع سيكون رادعا ونذيرا لغيرهم فلا يفكر فى الخروج على النظام أو معاداته والوقوف فى وجه الدعوة أو الدولة .

لكن الأيام أثبتت أنهم جميعاً يكيدون للإسلام ويتمنون زواله ولا يتركون فرصة للنيل منه إلا وصنعوها ، فانهم مالبثوا بعد هزيمة المسلمين فى أحد . حتى بدأوا يدبرون مؤامرة خطيرة للتخلص من النبى والقضاء على الوضع القائم فى يثرب كله مستعينين فى ذلك بتلك الجماعة المنافقة بزعامة (عبد الله بن أبى) وقد بدأ النبى يحس بهذا الموقف فى المدينة إلا أنه استدرجهم ليكشف عن نياتهم[1] .

(١) مكة والمدينة ص ٤٨٧ بتصرف

ولقد كان النبى ﷺ يظن أنه سيستريح وتهدأ الأحوال بعد التخلص من شاعرهم كعب الأشرف الذى انطلق يرسل الأشعار فى هجاء المسلمين ويشبب بنسائهم وذهب إلى مكة يرثى أصحاب القليب (قتلى قريش)؛ ويحرض قريشاً على المسلمين بعد انتصار المسلمين فى بدر[2] .

فقد ذهب كعب ورهط من بنى النضير إلى مكة واتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبى والمسلمين على رغم ما كان بينهم وبين بنى النضير من عهد وسلام[3] .

كان النبى يظن أنهم سيرتدعون وينتهون من عدائهم للمسلمين ، إلا أنه عرف أنهم جميعاً وبلا استثناء يكيدون له ولأصحابه ، وأن زعيمهم (سلام بن مشكم) آوى أبا سفيان فى غزوة السويق بعد بدر وأطلعه على أسرار المسلمين[4] وتأكدت لديه خيانتهم حينما ذهب اليهم يطلب منهم أن يعاونوه فى دية قتيلين من بنى عامر قتلهما عمرو بن الحضرمى ، فاتفقوا فيما بينهم على أن يلقى أحدهم صخرة كبيرة علية ليقتلوه بها[5] ، فما كان من النبى إلا أن أرسل إليهم (محمد بن مسلمة) يقول لهم إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشراً فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه[6] .

موقف الرسول ﷺ من خيانة بنى النضير

ولم يكن هذا أيضاً بسبب محاولة قتل الرسول الفتيل والنقطة التى ملأت الكأس ، فلقد قال الله فيهم فى سورة الحشر والتي يسميها ابن عباس سورة بنى النضير[6] .

ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب

(١) راجع ابن هشام ص ٥١ ، ٥٢ وما بعدهما القسم الثانى . (٥)حياة محمد (هيكل) ص ٢٧٦
(٢) سيرة الرسول (دروزه) ١٢٠ (٦) سيرة الرسول (دروزه) ١١٧
(٣) مكة والمدينة ص ٤٨٧
(٤) ابن هشام ص ١٩٠ القسم الثانى وزاد المعاد ص ٧١ الجزء ٢

النار ، **﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب﴾**[1] .

ومع أن اليهود مالوا فى أول الأمر إلى التسليم والجلاء إلا أن الدسائس التى دست والوعود التى بذلت جعلتهم يرفضون قبول الإنذار ويرسلون إلى النبى بلسان كبيرهم حيى بن أخطب قائلين : (إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع لنا ما بدالك)[2] وقال لقومه (وماعلينا إلا أن نرم حصوننا ندخل إليها ماشئنا ندرب أزقتنا وننقل الحجارة اليها وعندنا من الطعام مايكفينا سنة ، وماؤها لا ينقطع ولن يحصرنا محمد سنة كاملة)[3] ، وكان بن أبى قد أغراهم وشجعهم على المقاومة وأرسل إليهم يقول (لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصنكم فان معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان)[4] .

ولكن النبى تحرك إليهم بقواته واتجه إلى حصونهم ، ولما رأوه مقبلا قاموا إلى حصونهم وتحصنوا بها ومعهم سلاحهم ، وضرب المسلمون الحصار حولهم واستمر الحصار خمسة عشر يوما ؛ وهى المدة التى حوصر بها بنو قينقاع ، وقيل عشرين[5] ثم اضطروا إلى التسليم بعد أن تأكدوا من تصميم المسلمين على حصارهم وخذلان ابن أبى لهم وبعد تقطيع بعض نخيلهم ارغاما وارهابا[6] .

ودارت مفاوضات انتهت بالوصول إلى اتفاق على القواعد الآتية[7] :

١ ـ جلاء بنى النضير عن منازلهم وأراضيهم .

٢ ـ تصان دماؤهم وأرواحهم .

(١) سورة الحشر : ٣ ، ٤

(٢) أمين سعيد ص ٩١

(٣) المرجع السابق .

(٤) حياة محمد ص ٢٧٧ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٧٨

(٦) دروزه ص ١١٩ جـ ١ راجع فى هذا الموضوع ابن هشام من ص ١٩١ إلى ص ١٩٥ القسم الثانى .

(٧) أمين سعيد ص ٩٣ جـ ٢ وارجع ابن هشام ص ١٩١ ، ١٩٥ القسم الثانى

٣ ـ يحق لهم أن يأخذوا متاعهم .

٤ ـ يسلمون سلاحهم للمسلمين .

وخرجوا يحملون متاعهم ، فنزل منهم من نزل خيبرا وسار آخرون إلى أذرعات بالشام[١] .

وهكذا كان اخراج بنى النضير بسبب أنهم (شاقوا الله ورسوله) وناصبوا الرسول العداء أيضا ، وحاولوا قتله مرتين حيث حاولوا قتله قبل هذه المرة لما دعوه لوليمة لكنهم أخفقوا[٢]، ولم يفاجئهم الرسول ﷺ بهذا الإنذار ولم تكن هذه أول مرة يخونون فيها بل إن الرسول ﷺ بعد أن رأى منهم ما رأى (قبل محاولتهم قتله فى المرة الأخيرة) عرض عليهم أن يختاروا بين اثنين إما الخروج من المدينة وإما الرجوع إلى العقل والاتزان وتجديد الحلف مع المسلمين . ولكنهم برغم قبول بنى قريظة لتجديد الحلف مع المسلمين عن طيب خاطر ، رفضوا هم ذلك الحلف الجديد فأصبحوا أعداء الإسلام السافرين[٣].

ولقد حدث منهم ذلك فى مرحلة عصيبة فى حياة المسلمين ..فالمسلمون موتورون بهزيمتهم فى أحد وبقتل الدعاة الذين أرسلهم الرسول ﷺ إلى القبائل العربية لتعليمهم وكانوا من خيرة صحابة رسول الله ﷺ حين أرسل الرسول وفدا مكونا من عشرة من خيرة الصحابة . على رأسهم عاصم بن ثابت إلى قبائل عضل والقارة فغدروا بهم وقتلوهم[٤] .

ثم أرسل وفدا آخر من سبعين من الدعاة مع أبى براء مالك بن عامر الملقب بملاعب الأسنة برئاسة المنذر بن عمر للتبشير بالدين الإسلامى ونشره فى منطقة نجد ، لكن عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابى (ابن أخى ملاعب الأسنة) استنفر بعض القبائل عليهم فغدروا بهم وقتلوهم

(١) حياة محمد ص ٢٧٨

(٢) محمد رسول الله (مولاى محمد على ص ١٣٠) .

(٣) نفس المرجع .

(٤) راجع ابن هشام ص ١٦٩ ، ١٧٠ القسم الثانى .

حدث من بنى النضير ماحدث فى فترة حرجة فى حياة الدولة والاسلام ، وفى الوقت الذى كان فيه جميع أعداء الاسلام ممتشقين الحسام يحاولون تسديد الضربة القاضية إليه .

وإن الهجوم من الخارج مخيف ، ولكن الإنفجار الداخلى الذى قد يحدث فى أى لحظة أدعى إلى الرعب القاتل ، ولما كان الاحتراس نوعا من أنواع الدفاع إن لم يكن أهمها ، كان الشغب المفاجىء الذى قد يحدث داخل أسوار المدينة نفسها معناه ضربة فى الصميم[1] .

ولما كان بنو النضير يظهرون الود والصداقة لأعداء الإسلام علانية . وكان رفضهم تجديد الحلف مع المسلمين بمثابة إعلان للحرب علاوة على محاولتهم اغتيال النبى الكريم . لم يكن فى الإمكان معاملتهم إلا معاملة الأعداء المعاندين ، ومع ذلك فقد اكتفى النبى ﷺ بطردهم والتصريح لهم بأخذ منقولاتهم فقط ، وجردوهم من سلاحهم واستولى على بساتينهم وقراهم الزراعية وذلك بسبب تمردهم وعدم قبولهم للجلاء فى أول الأمر .

وإذا كان المؤرخون يرون أن محاولة اغتيال الرسول هى السبب فيما حدث فإننا نقول أنها كانت السبب المباشر فقط والنقطة التى ملأت الكأس ، وأنه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجل التنكيل[2] .

(١) محمد رسول الله (محمد على) ص ١٢٠

(٢) دروزه ص ١٢٠ (سيرة الرسول) جـ ١

الدولة الإسلامية ويهود بنى قريظة

أما يهود بنى قريظة فلقد كان الجزاء الذى وقعه الرسول ﷺ عليهم ، جزاء يتفق وتناسب مع الجريمة التى اتكبوها ، فبرغم الحلف المعقود بين ، الرسول وبينهم فقد وقفوا موقفاً عدائياً أشد خطورة من المواقف التى وقفها إخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير .

فإذا كان إخوانهم قد وقفوا موقفاً معادياً من الرسول وفكروا فى قتله واغتياله واكتفى الرسول برغم هذا بطردهم وإخراجهم من بلاده مع أنهم كان يستحقون أكثر مما حكم به عليهم ، إلا أن هؤلاء كان موقفهم من المسلمين موقفاً أخطر بكثير من مواقف إخوانهم .

فقد ذهب وفد من زعماء اليهود من بنى النضير المطرودين من المدينة إلى مكة ؛ ومن بين هذا الوفد (حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة ابن أبى الحقيق ومعهم من بنى وائل هوذة بن قيس وأبو عمار[1]).

وحرضنوا زعماء مكة على غزو المدينة واستئصال شأفة النبى والمسلمين قبل أن يتفاقم أمرهم وليعلنوا تضامنهم معهم وأقسموا على ذلك عند أصنام المشركين فى فناء الكعبة (وهو ماتضمنته الآية ٥١) من سورة النساء ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً**﴾ بل لم يكتفوا بهذا . وإنما ذهب الوفد إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضها ـ على مثل ذلك . ومناها بخيرات المدينة وأعلن تضامن اليهود معها وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة فأجابوهم لذلك وتحالفوا معهم[2].

(١) ابن هشام ص ٢٦٤ القسم الثانى .
(٢) المراجع السابق ص ٢١٥

ثم جاءوا إلى بنى قريظة ، وأقنعوهم بالانضمام إلى حيش المشركين ضد الرسول ﷺ وأطلعوهم على ماتم الاتفاق عليه مع أهل مكة والقبائل العربية الأخرى التى ذهبوا إليها فوافقوا وانضموا فعلا إلى جيش الأحزاب المحاصر للمدينة .

وحين أرسل الرسول رسوليه (سعد بن معاز وسعد بن عُبادة) لمعرفة حقيقة انضمام اليهود للمشركين واتفاقهم معهم. سخر اليهود منهما وحاول سعد أن يقنعهم بعدم الخروج على الرسول ومعاداته مخافة أن يحل بهم ما حل ببنى النضير أو ما هو شر منه . (وكان سعد بن معاذ حليفاً لقريظة) لكنهم برغم ذلك سبوا رسول الله ؛ وقال كعب بن الأشرف مستهزئاً من رسول الله . (لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد)[1] .

وحين وصل الأحزاب إلى خارج المدينة وحاصروها فوجىء المسلمون بقطع المدد والميرة عنهم[2] . حينذاك وجد المسلمون أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج حتى بلغ بهم الفزع وزلزلت قلوب ضعاف الايمان حتى قال بعضهم (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط)[3] .

وفى هذا الموقف نزلت هذه الآيات من سورة الأحزاب ـ ﴿**إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا**﴾[4] .

ولولا أن النبى ﷺ استعمل الحكمة والسياسة وأشار على نعيم بن مسعود أن يخذل ما استطاع وكان قد أسلم فى خلال الحصار بعد أن جاء معه قومه

(١) راجع ابن هشام ص ٢٢١ وما بعدها القسم الثانى ، حياة محمد ص ٣٠١

(٢) حياة محمد ٣٠٢

(٣) ابن هشام ص ٢٢٢ القسم الثانى .

(٤) سورة الأحزاب : ١٠ ـ ١٢

غطفان لحرب الرسول ، ولم يعرف أحد باسلامه[1] .

واستطاع نعيم بدهائه وثقة قريش واليهود وغطفان فيه أن يوقع بين قريش وقريظة وأن يوقع بينها وبين غطفان ولو لم يفعل ذلك ، فربما كان فى الأمر شىء آخر .

(١) ابن هشام ص ٢٢٩ القسم الثانى

موقف الرسول من يهود بنى قريظة

كان لابد من اتخاذ إجراء حاسم ضد بنى قريظة وكان لابد جزاء ما صنعوا أن يلقوا جزاءهم العادل ليكونوا عبرة لمن يعتبر ، وحتى لا تتكرر أمثال هذه الخيانة فى المستقبل ؛ فأمر الرسولُ أن يؤذن مؤذن فى الناس (من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة)[١] وحوصروا خمسة وعشرين ليلة[٢] ثم اضطروا فى النهاية للتسليم ، وبعثوا إلى رسول الله يعرضون عليه الخروج إلى أذرعات تاركين وراءهم ما يملكون ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على الحكم[٣] ؛ وحين طلب جماعة من الأوس من الرسول أن يقبل النبى من قريظة (وهم حلفاؤهم) ما قبله من حلفاء الخزرج[٤] ، طلب الرسول أن يختار اليهود لهم من شاؤا فاختاروا سعد بن معاذ[٥]

وقد أعماهم القدر الذى كتب لهم لوح حظهم فأنساهم مقدم سعد اليهم أول نقضهم للعهد وتحذيره إياهم ووقوعهم فى محمد ﷺ أمامه وسبهم المسلمين بغير حق .

وبعد أن أخذ سعد المواثيق على الفريقين (المسلمين واليهود) أن يسلموا لقضائه ويرضوا به ، أمر ببنى قريظة أن ينزلوا وأن يلقوا السلاح ففعلوا — فحكم سعد فيهم بقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبى الذرية والنساء ونفذ فيهم الحكم .

وربما لو تركوا الأمر للنبى ما نالهم أكثر مما نال القبائل الشقيقة لهم من أمثال بنى قينقاع وبنى النضير واكتفى النبى بابعادهم ، ولكن هكذا حكم سعد

(١) ابن هشام ص ٢٣٤ القسم الثانى
(٢) حياة محمد ص ٣٠٦ ، إبن هشام ص ٢٣٥ القسم الثانى
(٣) حياة محمد ص ٣٠٧
(٤) ابن هشام ص ٢٣٩ القسم الثانى
(٥) المرجع السابق ٢٤٠

وهم الذين اختاروه لأنفسهم ، فقد عرف سعد أن خيانتهم فى ساعة الخطر والحرج أمر فظيع وأن جريمتهم هذه التى ارتكبوها جريمة تستحق عقاباً صارماً رادعا لهم ولغيرهم ، وحتى لا تصبح المعاهدات والمواثيق فى المستقبل شيئاً غير محترم ، والقصاص الذى يلحق بالعدو المهزوم على الصورة التى جاءت فى كتابهم المقدس (التوراة) التى يؤمنون بها : تقول التوراة : ـ

(وعندما ينتهى بها الله ربك إليك فسوف تقضى على كل رجل بحد السيف أما النساء والأطفال والأغنام وكل ما فى المدينة من الغنائم فهو لك أنت وحدك ، وسوف تأكل غنائم أعدائك التى أعطاها لك الرب[1] .

وقد جاء فى سفر التثنية إصحاح ١٠ إلى ١٥ (حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعيد لك ، وإن لم تسالك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة غنيمة لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك)[2] ، لذلك نرى أن الرسول حين حكم سعد عليهم بما حكم يقول «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**»[3] .

وإذا كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم فذلك لأن جريمتهم أشد أثرا وأبعد مدى ولم يعتبروا بما كان من إجلاء إخواتهم بنى قينقاع وبنى النضير ، فهم لم يكتفوا بالقعود عن الاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة عملا بما تقضى به العهود المكتوبة بينهم ، وكانت المدينة فى خطر شديد ، بل حرضوا وانضموا إلى أعداء المسلمين وخصومهم فى أشد ساعات الخطر وأدقها ، منتهكين حرمة القواعد الأخلاقية العامة .

(١) محمد رسول الله (محمد على) ص ١٣٣ .
(٢) عبقرية محمد (العقاد) ص ٦٣ .
(٣) ابن هشام ص ٢٤٠ القسم الثانى (الأرقعة = السموات) .

ولئن كان الرسول قد عامل بنى قينقاع وبنى النضير بغير ما عامل به هؤلاء ، فلأن جريمة هؤلاء كما قلنا أشد وأخطر ، بل إن الرسول لم يعامل يهود خيبر بعدهم معاملتهم ، مع أنهم حاربوه وظلت الحرب دائرة بينهم وبين الرسول أكثر من سبعة أيام ، فقد وافق الرسول على بقائهم فى أرضهم حين التمسوا منه ذلك بعد استسلامهم له وانتهاء القتال ، على أن يؤدى للمسلمين جزية مقدارها نصف النتاج[1] ، وقد قبل الرسول ملتمسهم برغم أنه كان يعلم أنهم لن يحفظوا عهده ، ولكن الرسول كان لا يعاقب إلا على قدر الجزيمة التى تقع ، ولم تكن حرب الرسول بخيبر مجردة عن الأسباب وإنما عرف الرسول أنهم يعدون العدة لحربة ، خصوصاً بعد أن سمعوا أن قريشا قد حالت دون وصول النبى والمسلمين للبيت الحرام ، وأنه اضطر إلى عقد صلح بشروط رأوا فيها (كما تخيل بعض المسلمين أيضاً) ـ شيئاً من الإجحاف به ، فزاد هذا فى اعتقاد يهود خيبر أن الأسلام قد وهن ، وعادوا يدفئون صدورهم بآمال جديدة وأيقنوا بقرب زوال الإسلام واستئصاله من جذوره ، واتصلوا بغطفان يأتمزون من جديد ويطلبون منها تجريد حملة على المدينة ، وعلم النبى بما يضمرون واستوثق من الأمر بالتحرى الدقيق[2] .

حينذاك لم يكن بد من التحرك لدفع الخطر قبل وقوعه ، فأصدر النبى أمره لقواته بالتحرك تجاه خيبر ودارت معارك انتهت باستسلام الخيبريين .

كذلك فربما كان من أسباب التساهل الكبير مع الخيبريين ومعاملتهم بغير ما عومل به بنو النضير حين أجلاهم هم أرضهم ، أنه أمن بسقوط خيبر بأس اليهود وأمن إلى أنه لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبدا ، وقد عاملهم الرسول معاملة حسنة فترك لهم كما قلنا أرضهم يزرعونها على أن يعطوا نصف ثمارها . ورد إليهم عدة صحائف من التوراة غنمها المسلمون حين الغزو ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة ، وداسوها

(١) ابن هشام ٣٥٦ القسم الثانى .
(٢) محمد رسول الله (محمد على) ١٣٤

بأرجلهم ، ولا هو صنع صنيع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوارة[1]

وصالح النبى يهود فدك على إعطائه لهم نصف أموالهم من غير قتال بعد الذى علموا من أمر خيبر[2] .

ودان كل يهود الجزيرة العربية لسلطان الدولة الإسلامية وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيرة وأصبح الرسول ﷺ بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، وبرغم معاملة الرسول لهم معاملة طيبة إلا أنهم اضطروا لمهاجرة تلك البلاد بعد أن كانوا بها أعزة آمنين .

(١) حياة محمد ص ٣٦٠

(٢) ابن هشام ٣٥٣ القسم الثانى ، حياة محمد ٣٦٠

هل كان الإسلام خصماً لليهودية كدين ؟

حين يقرأ القارىء الحوادث والوقائع التى كانت بين الرسول (ﷺ) واليهود وما كان من إجلائهم عن المدينة ، ربما يتصور أنه كانت هناك فكرة مضادة لليهود من البدء كعنصر ولليهودية كدين وأن الرسول (ﷺ) لم يفعل ذلك إلا لأنه كان يود ألا يشاركه دين آخر فى الجزيرة العربية غير الإسلام .

ولقد اتهم بعض المستشرقين[1] ، الرسول بأنه جعل الاسلام خصما لليهودية ثم خصما للنصرانية أيضاً .

خصوصاً بعد أن خاب أمله فى اليهود خيبة مريعة وأنه حين جعل اليهود الاسلام خصما لهم ولم يعتبروه كاليهودية ؛ فإن الرسول جعل الاسلام خصما لليهودية مقابلا لذلك خصوصاً وأنهم لم يعترفوا بنبوته ولم يعترفوا بأن الوحى الذى أنزل عليه هو الوحى الذى عندهم[2] .

وقالوا : إن الرسول (ﷺ) كان قد بيت نية التنكيل وأثار حربا عنصرية دينية ضدهم من البدء ، وأنه إذا لم يكن قد نفذ فيهم ذلك مرة واحدة فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً .

وقالوا : إن الرسول كان طامعاً فى أموالهم لإغداقها على المسلمين ؛ وقد نكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية[3] .

ولكن الحقيقة أن الرسول (ﷺ) لم ينظر إلى اليهودية ولاإلى للنصرانية نظرة عداء وإنما : **أقر بهما ديانتين سماويتين ممهدتين للاسلام** . ولم ينظر إلى أتباعهما نظرة عنصرية كما قالوا .

(١) يوليوس فلهوزن فى تاريخ الدولة العربية ص ١٧ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده .

(٢) نفس المراجع السابق :

(٣) دروزه ص ١١٢ جـ ٢

العامة وسوقهم وراءهم . فى الطريق التى ساروا فيها ، كما كان شأن أكثر أهل مكة . زعماء وعامة أيضاً .

ولعل هذا وذاك يلغى أى فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر ولليهودية كدين . ويؤيد عالمية الدعوة وكونها عامة للناس جميعاً تدعو إلى الله وإلى مكارم الأخلاق بالحكمة والموعظة الحسنة بغير إكراه ولا سيطرة ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون**﴾[1] .

والدليل على أن اليهود كان فيهم من لم ينساق ولم يتورط فى العداء والكيد ما تفيده هذه الآيات من سورة المائدة ﴿**قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقين**﴾[2] ﴿**وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون**﴾[3] . ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون**﴾[4] . ﴿**ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون**﴾[5] .

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق يدل على أنها فى حق اليهود[6] وعبارات أكثرهم وكثيرا منهم وكثير منهم . تدل على الأقل على أن هناك فريقاً قليلا لم يتورط فيما تورطت فيه الكثرة من الدس والكيد وعمل السوء والفساد . وهذا المعنى بارز بروزا أكثر فى جملة (منهم أمة مقتصدة) كما هو ظاهر[7] .

وأما آيات آل عمران التالية فإنما تلهم روحها أن بعضهم ممن آمنوا بالنبوة المحمدية . كما أن أقوال المفسرين والرواة تؤيد ذلك . ﴿**ليسوا سواء من أهل**

(١) البقرة : ٨٣ .
(٢) البقرة : ٥٩ .
(٣) البقرة ٦٦ .
(٤) المائدة : ٨٠ .
(٥) عزه دروزه ص ١٢٨ ، ١٢٩ جـ ٢ .
(٦) نفس المرجع السابق .
(٧) المرجع السابق .

الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين﴾(١)

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات تضمنت حملة على اليهود لأنها ذكرت أوصافهم .

وفى نفس السورة **﴿وإن من أهل الكتاب إلا لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا . أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾** (٢).

وقد جاءت هذه الآية الأخيرة بعد فصل سابق تناول اليهود بحملة شديدة . مما يجعل الاحتمال كبيراً من أن يكون موضوع الآيات فريقاً من اليهود وهى صريحة الدلالة على إيمانهم بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآنى(٣).

أما هذه الآية من سورة النساء فإنما تدل دلالة واضحة على أن فريقا من علماء اليهود قد أبى عليه علمه وذينه أن يندمج فيما يتورط فيه سائرهم فينكر نبوة محمد أو يكابر فى صدقها أو فى ما نزل عليه من القرآن . وإنما آمن به وبما نزل عليه ولم يعبأ بموقف قومه وزملائه . وفى ذلك يقول القرآن . **﴿لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾**(٤) .

ورائع أن يسجل الله الحسنة لصاحبها . وأن يذكر الفضل لذويه ، وأن ينوه بإحسان المحسن . وهذا مما يظل مصدر تلقين قرآنى جليل الشأن ويدحض حجة المغرضين ، فالدعوة لم تتوقف . وقد أثمرت وإن كان أتباعها من اليهود أقل مما كان ينتظر لهم . ولكن مما لا ريب فيه أنها أثمرت فى بعض اليهود وبعض علمائهم وأحبارهم أمثال عبد الله بن سلام وغيره ممن تحدث عنهم القرآن

(١) سورة آل عمران : ١١٢ – ١١٤

(٢) سورة آل عمران : ١٩٩ .

(٣) عزه دروزه ص ١٢٩ جـ ٣ .

(٤) النساء : ١٦٢ .

بل كان يتصور أن اليهود والنصارى سيستجيبون للدعوة أكثر من غيرهم باعتبار أن الإسلام لا يطالب بإلغاء هاتين الديانتين وإنما يطالب بالتصحيح ؛ وأن يعملوا بمقتضى كتبهم التى أنزلها الله على أنبيائه وهى مبشرة بالاسلام وجاء كتاب الاسلام مصدقا لما فيها . بعد أن دخلهما التحريف والتبديل . ولذلك لا يطالبهم الرسول بأكثر مما طالبتهم به الديانتان السماويتان السابقتان عليه **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾**[1] .

كذلك فان الرسول لم يكن يحارب اليهود طمعاً فى أموالهم والحصول على غنائمهم . ولا كرها لهم باعتبارهم يهود . وإنما كان الرسول يتمنى أن يعتنقوا الإسلام . وهو لا يزيد عن تصحيح ما غيروه وبدلوه فى دينهم . وكان يتمنى أن يكونوا هم أول المؤمنين به وأن يتحملوا هم عبء الدعوة إلى الله بما أوتوه من علم وما عرفوه من كتب سماوية . ولكنهم استغلوا علمهم ومعرفتهم بما فى الكتب السماوية ضد هذه الدعوة **﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾**[2] .

ولا يتصورن أحد من الناس أن محمدا ﷺ لم يدعهم إلى الإسلام فرادى ومجتمعين .

وقد روى أن علياً (رضى الله عنه) سأل الرسول ﷺ حين ولاه القيادة فى اليوم السادس فى حرب المسلمين مع خيبر وقال له (أقاتلهم حتى يصبحوا مثلنا) ؟ فقال له الرسول : **«أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الاسلام . ثم أخبرهم بما يجب من حق الله فيهم فو الله لأن يهدى بك الله رجلا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم»**[3]

ففى وسط هذا الجو الرهيب العميق والذى تنعدم فيه أمام العين التى تفقأ

(١) سورة آل عمران : ٦٤

(٢) سورة البقرة : ٩

(٣) زاد المعاد ص ١٣٤ جـ ٢ .

أو الذراع الذى يبتر أو الدم الذى يراق بسيف يقطع كالنار . كل القيم التى نرتبط بالصفح أو العفو أو الخير أو السلام . لم ينس محمد ﷺ أن يحمل قائد المعركة فى يومها السابع[1] أن يدعو القوم وهم المتآمرون الناكثون المتمردون للإسلام ويقول له : «**ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من النعم**» .

كذلك فان الرسول ﷺ قبل أن يصطدم ببنى قينقاع ذهب إليهم فاجتمع بهم فى السوق ودعاهم إلى الإسلام والدخول فى دينه لأن أفضل وسيلة لحل مشكلتهم دعوتهم ، وقال لهم «**يامعشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم**»[2] لكنهم هددوه وقالوا له (لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس)[3]

وقد كان مجرد إعلان إسلام أى قبيلة من القبائل وأى فرد من الناس حاقنا لدمائهم مهما صنعوا مع المسلمين .

ولا يمنع أن تفلت برغم هذا فئة من اليهود وفيها فريق من العلماء من المؤثرات المتنوعة . العنصرية . والاقتصادية . والنفسية . والأنانية التى خضع لها اليهود فلم يسعهم إلا أن يروا أعلام النبوة واضحة جلية فصدقوا وآمنوا بالنبى والتنزيل القرآنى ولم يبالوا بما عليه قومهم أو بما يمكن أن يلقوه من جفاء وسخط واضطهاد وتكذيب .

ومعنى هذا أن الدعوة قد قوبلت من بعض اليهود فى المدينة باستجابة حرة لا اكره فيها . وكانت هناك فئة أخرى منهم لم تندفع ولم تتورط فى العداء والكيد[4] على أن مواقف الكيد والدس والجحود والتآمر إنما كانت لأسباب لا تمت إلى الحق والإنصاف والرغبة فى الهدى . بل إلى هوى الأحبار والربانيين والزعماء وأغراضهم وتأثرهم بالمؤثرات الدنيوية والجبلة الخلقية وتأثيرهم فى

(١) المرجع السابق .
(٢) ابن هشام ص ٤٧ القسم الثانى .
(٣) المرجع السابق .
(٤) دروزه ص ١٢٧ جـ ٢ .

واعترف بإيمانهم من زعماء اليهود وعامتهم .

ومع أن الرسول ﷺ جرب عهود اليهود واتفاقاتهم ونقضهم إياها ﴿**الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة**﴾[1].

إلا أنه برغم هذا كان يدعوهم إلى الإسلام والدخول فيه والانضمام إلى هيئته الجديدة ليكون لهم ماللمسلمين وعليهم ما عليهم . ويعرض هذا عليهم قبل منازلتهم برغم الذى صنعوه . لأن الرسول كان يرى أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لحل الخلاف بينه وبينهم . وحتى يطمئن إليهم .

ولم يكن هذا إجباراً لهم أو فرضاً للإسلام عليهم . وإنما رغبة من رسول الله ﷺ فى هدايتهم للخير وحبا منه فى السلم والمسألة . ولأمن جانبهم والاطمئنان اليهم . ولقد كان الرسول مضطراً فى النهاية إلى منازلتهم وإخراجهم من البلاد . بعد الذى صنعوه معه . ولم يحارب يهود خيبر لأنه يحب الحرب لذات الحرب . ولا مشى اليهم طمعاً فى غنيمة أو مال كما ادعى بعض المستشرقين وإنما كان الرسول مضطراً إلى ذلك اضطراراً . لأنهم (المسلمين) كانوا بين شرّين . شر ترك الخيبريين وقد عرف عنهم أنهم يفكرون فى حربهم وقد اتصلوا فعلا بغطفان . ولا يؤمنون أن يؤلبوا عليهم بقية القبائل كما فعل بنو النضير . أو ينضموا إليهم لمحاربة المسلمين كما فعل بنو قريظة يوم الأحزاب وبين شر قتالهم وإجلائهم وهو الأخف والأفضل بالنسبة اليهم . ومع ذلك دعوهم إلى الدخول فى دينهم والاشتراك فى الهيئة الاجتماعية الجديدة التى أنشأوها والمساهمة فى أسواقهم فأبوا . ولما لم يبق مناص من القتال أقدموا عليه بعد ما استنفدوا الجهد فى بلوغ السلام والوفاق . وغايتهم دفع الخطر الذى كان يتهددهم من ناحية خيبر لا مهاجمتها بالذات .

ولم يعامل النبى ﷺ أحداً من يهود الحجاز ـ وكانوا يبلغون بضعة عشر ألفا[2] بما عامل به بنو قريظة لا قبل هؤلاء ولا بعدهم نظراً لفظاعة جرمهم كما قلنا .

(١) الأنفال : ٥٦ .

(٢) أمين سعيد ص ١٥٧ جـ ١ .

ومع أن فوز المسلمين على يهود بنى قينقاع وبنى النضير من الناحية القانونية يعتبر فى حقيقته فوزاً عسكرياً . وشرائع أيامهم تطلق يد الغالب فى معاملة المغلوب اطلاقاً تاماً . فله أن يقتله أو يسترقه ويستخدمه فى جميع شئونه ومرافقه مدى الحياة مع أهل وولده من دون قيد ولا شرط ، إلا أن النبى لم يعاملهم بمقتضى هذه الشرائع التى كان العالم كله يخضع لها آنئذ . وعاملهم بالرفق والاحسان وتركهم يذهبون حيث شاءوا حاملين متاعهم وأموالهم يغنون وينشدون ويرقصون[1].

ولا نظن أن غالبا فى ذلك العصر عامل مغلوبه أفضل مما عامل به النبى (ﷺ) بنى قينقاع . مما يؤكد أنه لم يكن هناك عداء عنصرى بين الرسول واليهود .

(١) المرجع السابق .

الدعوة إلى الإسلام فى المدينة
وهـــل تغيـــرت عنها فى مكـــة .. ؟

رد على المستشرقين :

قلنا فى فصل سابق إن بعض المستشرقين ادعى أن الرسول ﷺ تغير فى المدينة عنه فى مكة ، وأنه كان فى مكة ثائراً على قومه ؛ غير راض عن نظامهم وعباداتهم ولم يوفق فيها ، فلم يزد فى مكة عن مجرد الدعوة إلى الاسلام ، أما فى المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه ، وأحدث تغييراً كبيرا بعد أن أصبح رئيساً لجماعة سياسية ، وأنه إزاء هذا صار الطابع السياسى يزداد بروزا ، والطابع الدينى يزداد تراجعاً ، بل ويرون أن الحكومة التى كان يرأسها الرسول ﷺ كانت من حيث السياسة الفعلية متغيرة عنها لما كانت فكرة ؛ وهم يعللون هذا بأن المعارضة دائما ما تتغير عندما تصل إلى السلطة وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التى تقوم عليها لأن تقديرها للأشياء يكون فى أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع[1] .

ويرى بعض المستشرقين أيضاً[2] أن الإسلام فى المدينة كان له طابعه الخاص وأنه اتخذ صورة غير الصورة التى كان عليها فى مكة وأن الرسول رؤى فى المدينة بعد أن أصبح حاكما سياسياً ، ينظم أعمالا حديثه ، كتوزيع الغنائم والأسلاب ووضع قوانين لتنظيم الأموال والمواريث ، بعد أن كان زاهداً فى المال وجمعه ، وأنه كان يشعر فى مكة بأنه نبى يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة ، وأنه لهذا ، فعليه مثل كل الرسل أن يقوم بانذار أمثاله فى الإنسانية وإنقاذهم من الضلال ، أما فى المدينة فقد تغيرت الظروف الخارجية وعندها تغيرت مقاصده وخططه واتجه اتجاها آخر بحكم تلك الظروف الخارجية ولأنه وجد فى بيئة تختلف عن بيئة مكة .

(١) راجع تاريخ الدولة العربية (يوليوس فلهوزن) ص ٥ ، ٦

(٢) جولد تسيهر فى العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٦ ، وما بعدها .

لكنه من الإنصاف أن أذكر أن بعض المستشرقين كان منصفاً فذكر أنه لم يتغير ولم يطرح مهمة الداعى فى المدينة كما ادعى البعض بل دافع عن الرسول ﷺ ورد على دعوى التغير :

قال أرنولد فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام)[1] .

(وقد أكد الكتاب الأوربيون مراراً أن النبى سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك) .

وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذى كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذى أوحى إليه ، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصباً مندفعاً يستغل كل ما فى سلطته من قوة ومهارة سياسية فى فرض نفسه وفرض آرائه ، ثم يقول أرنولد على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمداً فى المدينة قد طرح مهمة الداعى إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه ، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين ..

ثم عرض أرنولد إلى الكتب التى بعث بها النبى من المدينة إلى شيوخ القبائل العربية وكتب الملوك التى يدعوهم فيها إلى اعتناق الإسلام .

ثم أخذ يضرب أمثلة من البعوث الدينية التى أرسلها لتبلغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم[2] .

وقد قلنا إن الرسول ﷺ لم يتغير فى المدينة عنه فى مكة ولم تشغله الدنيا عن الدين . ولم تتغير نظرته إلى الحياة بعد أن وصل إلى قمة السلطة التى كان كما قلنا يعمل لها من أول يوم بعثه الله تبارك وتعالى . لا لمجرد الوصول اليها . ولكن ليشرع للعاملين وليرسم المنهج السليم لما يجب أن تكون عليه الدولة التى لابد منها حماية الدين .

وقلنا إن الله تبارك وتعالى بشره بها فى مكة ، وأنه كان مضطراً فى مكة

(١) ص ٥٤
(٢) راجع صفحات ٥٤ إلى ٦٠ من كتاب الدعوة إلى الاسلام لأرنولد

للعمل من أجل التوحيد فقط باعتباره الأصل والأساس ، فركز على الدعوة إلى الخير ، خصوصاً وأن مكة مسقط رأسه كانت مركزاً من المراكز الهامة الخطيرة لعبادة الأوثان والأصنام والتى هى مقر للكعبة المقدسة التى كانت المادية وكبرياء الجاهلية قد طغت فيها وتحكم الأغنياء فى الفقراء ؛ ثم يعمل بعد ذلك من أجل استقرار الحق واستمراره ؛ واقرار العدل ودوامه ، وتقرير الخير والعمل به لإقامة الدولة التى من غيرها وبدونها لا يكون خير أو عدل أو نظام ، وهو كرسول لايمكن له أن يتغير ولاأن يتبدل ؛ وإنما هو منفذ لأمر الله ومشيئته يعطيه الله من الوحى بقدر مايحتاج إليه الناس ، ويترك الله له كبشر مايمكن أن يوضح به لاتباعه مايحتاجون إليه إنسانيا وبإلهام من الله أيضاً وتوفيق **﴿وما ينطق عن الهوى﴾**[1] ؛ لأنه : **معلم ومشرع وأستاذ** . .

أما عن دعوى كونه قد تأثر بالسلطة بعد الوصول إليها وتراجع الطابع الدينى بعد أن برز الطابع السياسى ، فإن هذا ينقضه الواقع وإن كنا دائما نؤكد أنه لا فرق إطلاقاً بين مايسمى دين أو سياسة ، وأنه إذا كانت حياة مكة قد اقتضت التركيز على نقاط معينة ؛ وهى البدء بالأصل والأساس التى ستقوم عليه الدولة ، وهو « هدم الشرك والوثنية وإقامة التوحيد والعدل » فقد كان هذا مما تقتضيه أصول التدرج فى التشريع كما أن إقامة التوحيد والعدل مما يقتضيه وجود الدولة نفسها .

ومع هذا فقد ظل الرسول ﷺ بعد توليه الحكم ، وإلى أن صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ، يدعو إلى الله بشتى الوسائل والطرق ، بل وقعّد القاعدة العامة التى تكلف المؤمنين بالاستمرار فى هذه الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

وإن كانت الوسيلة فى المدينة وبعد تكوين الدولة قد تغيرت عنها فى مكة ، فهذا شيء طبيعى فإن الوضع قد تغير فى المدينة عنه فى مكة ولم يكن هذا تغيراً بمعنى التبديل ، وإنما كان تطويراً فى الأسلوب فقط وليس فى أصل الدعوة نفسها ، فمكة مثلا كان الرسول فيها وحيداً والمسلمون مستضعفون والدعوة

(١) النجم ٣ .

تسير فى خطى بطيئة وئيدة ، بدأت بالأفراد ثم وصلت إلى تكوين الخلايا والمجموعات ، ثم عرض نفسه على القبائل حين زيارتها لمكة لمحاولة الاتصال بالأفراد والمجموعات الصغيرة فى القبائل والأسواق وعند الكعبة ثم تطور الأمر إلى عرض الإسلام على المدن كما حدث حين اتصاله بأهل الطائف ، ولم تكن هناك وسيلة لعرض الدعوة غير هذه الوسائل ؛ لكنه بعد أن تطور الأمر وأصبح الرسول قائداً لدولة كان لابد أن تتطور ، فكان يبعث البعوث ويوفد الوفود ، ويعرض الإسلام على المقاتلين ؛ ويناقشهم ويحاججهم ، كما فعل مع اليهود ووفد نصارى نجران ، ثم تطور الأمر إلى إرسال الكتب إلى الملوك ودعوتهم إلى الإسلام ولم تفتر أبداً عزيمته . ولم يتخلف يوما واحداً عن الدعوة إلى الإسلام .

وكان نظام الدولة العامة نفسه بكل أركانه ومقوماته وسيلة من وسائل الدعوة بلا إكراه ولا إجبار . كالجهاد والجزية . وجمع الزكاة . وإعطائها لأصحابها . والقضاء العادل . وسماحة المسلمين أنفسهم الذين تشبعوا بروح الإسلام ومبادئه وتعاليمه فكانت حياتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم دافعاً لغير المسلمين أن يعتنقوا هذا الدين .

وكانت هذه الصفات فى المسلمين وسيلة أخرى من وسائل الدعوة إلى الإسلام .

ويمكننا أن نقول أنه بعد اكتمال كل مقومات الدولة فى أخريات حياة الرسول ﷺ . وبعد أن تحول الموقف السياسى فى جزيرة العرب إلى جانبه بعد الحديبية . فإن الدعوة أصبحت بعد هذا الاكتمال السياسى بالغة النضج وأصبحت جديرة بأن تكون دين الناس كافة : فهى لم تقف عند التوحيد ومايقتضيه من عبادات ، بل انفرج ميدانها وتناولت من صور النشاط الاجتماعى مايوازى بينها وبين سمو فكرة التوحيد ، ومايجعل صاحبها أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الانسانى وإلى تحقيق المثل الأعلى للحياة[1] .

(١) مكة والمدينة ص ٥٠٩

ونقول ذلك لأن صورة المجتمع الإنسانى الذى أراده الرسول ﷺ بدأت تظهر واضحة بعد أن نزل كثير من الأحكام الإجتماعية ووضح التشريع وقدرت الحقوق والواجبات ، وتحددت المسئوليات ونظمت الأسرة وطبقت هذه القواعد تطبيقاً عملياً .

لهذا نرى أن إرسال الرسل إلى ملوك العالم المحيط بالجزيرة العربية لدعوتهم وشعوبهم إلى رسالة الإسلام .

لم يحدث إلا بعد هذا الإكتمال والنضج والوضوح . والله أعلم . ،

إختيـار الرسـول لسـفرائه
للِمـلوك والـرّؤسـاء

كان اختيار الرسول (ﷺ) لسفرائه وحملة كتبه لا يتم إلا بعد معرفة دقيقة لهؤلاء السفراء ، واطمئنانه لهم وثقته فى قدرتهم على إثبات وجودهم وتمثيل النبى ﷺ تمثيلا صحيحاً .

ولقد كان هؤلاء السفراء (حملة الكتب) دعاة مخلصين للدعوة يؤمنون بهذا العمل إيماناً كبيراً ، ليسوا مجرد حاملى كتب ، وقد عرفوا بالحكمة والفصاحة والفطنة ، وهى أمور لابد أن تتوفر فى السفير حتى تجدى سفارته وتثمر وفادته ، وإلا فما تجدى رسالة تحمل بضعة أسطر فيها آية ، وفيها طلب عام ودعوة للإسلام ، دون أن يكون حامل هذه الرسالة عارفا بمضمون ما فيها مستعداً لشرح وتوضيح ما غمض منها ، قادراً على الاقناع بالحجة والبرهان على صدق ما فيها .

ولقد روى الإمام الحافظ أبى عبد الله بن القيم الجوزى فى كتابه زاد المعاد[1]

أن حاطب بن أبى بلتعة سفير الرسول وحامل كتابه إلى المقوقس ظل يحاول إقناعه بصدق هذه الرسالة كما ظل يوضح له أساس هذه الدعوة وأصلها ، مفهماً إياه أن هذا الذى يدعو اليه الرسول هو نفسه الذى كان يدعو به عيسى .

قال حاطب للمقوقس :

إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك .

وحين قال له المقوقس : (إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه) ردّ عليه

(١) ص ٦١ ، ٣

حاطب وقال له (ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فقد سواه ؛ إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى مابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ؛ وأنت ممن أدركهم هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به[1] .

أسلوب جميل ؛ وحجة قوية منطقية حاول بها حاطب أن يقنع المقوقس ويلزمه الحجة .

ولعل المقوقس طلب من حاطب أن يزيده توضيحاً عن الإسلام وناقشه فى كثير من الأمور المتعلقة بهذا الدين ، خاصة وقد رأينا المقوقس يقول : (إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال والكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر[2] .

فكيف عرف المقوقس كل ذلك عن الرسول ويخبره أنه فهم مافيه وما يدعو إليه ، وأنه علم أن نبياً تبقى وكان يظن أنه سيخرج بالشام وبعث مع الكتاب بهداياه [3]

وقد ذكر الجوزى أيضاً[4] ، قصة إرسال عمرو بن العاص بكتاب رسول الله ﷺ إلى (ملكى عمان) يدعوهما فيه إلى الإسلام وقد ذكر عمرو أنه إلتقى بهما ودارت بينه وبينهما مناقشات واستوضحا من عمرو مايدعو إليه الإسلام ؛ وأحوال الناس مع الرسول (ﷺ) وهل أقره قومه واتبعوه ؟ وهل آمن به الأساقفة والرهبان ؟ وغير هذا من الأمور . واستطاع عمرو بذكاءه ودهائه وإخلاصه للدعوة التى يدعو إليها أن يقنع ملكى عمان ، مرة بالتهديد والتخويف ، ومرة بذكر محاسن الإسلام ومايدعو إليه ؛ استطاع أن يقنعهما

(١) نفس المرجع .
(٢) زاد المعاد ص ٦١ جـ ٢
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق ٦٢

باعتناق الإسلام والتخلية بينه وبين جمع الصدقات وإعانته على من خالفه[1].

ومن هنا نرى أن مبعوثى الرسول إلى الملوك لم يكونوا مجرد حملة كتب وإنما كان لهم فضل كبير فى التبشير بالدبن والدعوة إليه وإقناع هؤلاء الملوك باعتناق الإسلام وعدم الوقوف فى طريقه أو محاربته ، ولقد كان المسلمون جميعاً يؤمنون بأن عليهم جميعاً مسئولية التبشير بالإسلام والدعوة إليه بقدر استطاعتهم ، مؤمنين بأن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ للرسالة ، وأن على المسلمين جميعاً فى كل زمان وفى أى مكان ، نشر الدعوة والعمل على انتشارها حيث آمنوا بقول الله تعالى : ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾[2] .

يؤمنون بضرورة وجود جماعة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة على بصيرة ، تنفيذاً لقول الله تعالى : ﴿**فلولا نفر كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾[3] .

واعين لقول الله لرسوله ﴿**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى**﴾[4] .

والله أعلم ،

(١) راجع نص حديث عمر بن العاص ص ٦٢ ، ٦٣ (زاد المعاد) جـ ٣
(٢) آل عمران : ١٠٤
(٣) التوبة : ١٢٢
(٤) يوسف : ١٠٨

التنظيم الإدارى للدولة فى عهد الحاكم

التزم المسلمون جميعًا ومعهم النبى ﷺ بالقرآن الكريم كدستور ثابت ملزم باعتباره وحياً منزلا من السماء ، وفصلّ النبى ﷺ التزامات الأمة بهذه الوثيقة التى عرفت باسم الصحيفة والتى لم يخرج ما فيها عما فى القرآن الكريم ، وتعتبر شرحًا تفصيلياً لالتزامات الرعية تجاه الدولة .

وكانت سلطة النبى عليه السلام هى العليا فى تنفيذ ما جاء فى القرآن من أوامر وأحكام ، وفى حسم المسائل التى لم يرد ذكرها فى آياته .

ومع أن سلطة النبى ﷺ كانت هى السلطة العليا ، فقد كان من السنة التى استنها أن يستشير كبار صحابته فى جميع الأمور الهامة ، وقد كان النبى ﷺ فى الجماعة الإسلامية ، النبى والرسول ، والمشرع ، والحاكم ، والقاضى ، والقائد الأعلى ، ورئيس الإدارة الادارية كلها ؛ يقوم بتنظيم العلاقات الاجتماعية وصياغة القوانين والأحكام المستمدة من القرآن ، كما كان يعمل على تنفيذها ، وكان يجمع الجيوش وينظمها ويقودها بنفسه ، كما كان يقتنى الأراضى ويقوم على إدارتها[1] ، وقد اتخذ الرسول المسجد مقرًا له يصرف فيه معظم الشئون والمهام ، وكان يستلزم هذا الأمر كتابة العقود والمراسلات فيه ، وكان يبعث الكتب إلى القبائل المختلفة كما كان يعقد المعاهدات وينفذها ويصدر الأوامر إلى الحكام وجباة الضرائب ، وكان يتم كل هذا فى المسجد حيث لم يشيد مقراً آخر للحكم طوال حياة محمد ﷺ[1] .

ولقد كان النظام الدينى والسياسى يسيران جنباً إلى جنب لا ينفصلان بل كان هذا النظام السياسى نفسه سببًا من أسباب انتشار الإسلام والإقبال عليه ، فقد عرف أن الإسلام ليس مجرد طقوس وشعائر دينية يؤيدها الناس ، إنما هو

نظام كامل للحياة ، وأن هذه الرسالة التى جاء بها محمد ﷺ هى انقلاب بكل ما تحمله تلك الكلمة من معانى ، ذلك أن دعوته الدينية لم تدخل تغييراً شاملا على النواحى السياسية فحسب ، بل كان لها نفس الأهمية أيضًا فى النواحى الاجتماعية والخلقية .

وحين يحاول الإنسان دراسة الأحوال السياسية والنظام الإسلامى المتكامل والتنظيم العجيب للدولة الإسلامية فى حياة الرسول ﷺ يجد أنها كانت تعتبر من الدول النادرة التى اكتملت فيها كل مقومات الدولة ونظمها السياسية بجميع أشكالها .

وقد يتصور بعض الناس أن الرسول ﷺ والذى كان صاحب السلطة العليا فى الدولة ويجمع فى يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية ، لظروف كان لابد أن تكون السلطة كلها فى يده وحده ، ربما تصوروه حاكما دكتاتوريا مستبدًا يتصرف فى «الحكم» على هواه غير مقيد بأسس أو قواعد أو قوانين ؟

وهم حين يتصورون ذلك مخطئون وواهمون ، فالدولة ناشئة ولازالت فى مرحلة البناء والتأسيس ، وقوانينها ليست قوانين مدنية من صنع البشر وإنما هى قوانين إلآهية وشرائع منزلة . وهو ليس مجرد حاكم لدولة ، إنما هو معلم للإنسانية كلها ، ومؤسس للنظام الجديد الذى لم يكن للعرب به سابق معرفة .

وهو وإن كانت له السيادة الكاملة فى حكمه للجماعة الإسلامية وكان فى هذه الجماعة كما قلنا النبى ، والرسول ، والمشرع ، والقائد ؛ والحاكم ، والقاضى الأعلى ، ورئيس الأداة الإدارية كلها والقائم بتنظيم العلاقات الاجتماعية وصياغة القوانين والأحكام المستمدة من القرآن والتى يعمل على تنفيذها .

إلا أنه كان ملتزما شأنه شأن المسلمين جميعًا بالقانون الذى هو **القرآن الكريم** باعتباره الوحى المنزل من عند الله والأصل لكل النظم التى تسير عليها الدولة ، وإن كانت سلطة النبى هى العليا فى تنفيذ ما جاء فى القرآن من أوامر وأحكام ، وفى حسم المسائل التى لم يرد ذكرها فى آياته .

لكنه باعتباره مؤسس الدولة الحديثة ، وباعتبار نبوته ورسالته ، وأقوال

الرسول وأفعاله سنة يجب أن يحتذى بها وأن يسير الناس على هديها ، فقد رسم الرسول ﷺ الطريقة الصحيحة فى نظام الحكم التى يجب أن يسير عليها المسلمون طالما كان للإسلام دولة تدعو باسمه وتحمى حماه .

ولذا نراه ﷺ يستشير كبار صحابته فى جميع الأمور الهامة ويشجع على أن يناقشه جميع الأفراد فى كل الأمور حتى ولو كانت من الأمور الهامة التى يتوقف عليها مصير الدولة نفسها ، وهو بهذا يضرب المثل الصحيح فى كيفية إدارة الدولة ، والاعتماد على الشورى ، وهى أسمى أنواع الديمقراطيات .

فقد استمع الرسول (ﷺ) إلى الحباب بن المنذر وهو يعرض عليه أن ينزل فى مكان آخر غير الذى نزلوا فيه ببدر يكون أكثر ملاءمة للالتقاء مع العدو ، وقبل الرسول رأيه ونفذ الخطة التي أشار بها ، كذلك ظهرت الشورى واضحة جلية حين جمع أصحابه فى المسجد الذى كان مقرًا للحكم تصرف فيه معظم الشئون والمهام الرسمية ، واستشارهم حين علم بتحرك قوات المشركين فى اتجاه المدينة لحرب المسلمين ، وانقسمت الآراء وافترقوا إلى فريقين ؛ فريق يرى الخروج إليهم وكان أكثرهم ومعظمهم من الشباب وفريق آخر رأى ما رآه الرسول نفسه وهو أن يظلوا فى المدينة ليكون موقفهم عند الدفاع أقوى وأحصن وكان هذا رأى الشيوخ ؛ واستمع الرسول ﷺ للجميع وأنصت إلى مناقشاتهم ووجهة نظر كل واحد منهم وفى النهاية وجد أن رأى الأغلبية مع الخروج ، وكان لابد تنفيذا لما تقتضيه الشورى أن ينزل على رأى الأغلبية ؛ حتى وإن كان رأيه فى جانب عدم الخروج ، ووافق على الخروج للمشركين فى أحد .

فالرسول يُقعّد لقاعدة الشورى وقد سنَّها قبل أن يسنها التشريع الدستورى الحديث حين رأى أن يفصل فى هذا الموضوع بإيثار رأى الكثرة لأنه هو القاعدة التى يجب أن يرجع إليها عند الاختلاف فى الرأى .

ولم ينظر إلى رأيه فى هذا الاختلاف ؛ ولم يحاول أن يحمل عليه من خالفه فيه ؛ لأنه لو فعل ذلك لكان سنة لمن يأتى بعده من الرؤساء ؛ فحين رأى

الكثرة فى جانب الذين يرون الخروج عن المدينة اختار رأيهم باعتبارهم أغلبية ؛ على رأى غيرهم برغم مخالفة هذا لرأيه شخصيًا .

ومع أن الحوادث قد أثبتت أن رأى الرسول ومن معه كان أرجح من رأى الكثرة ؛ إلا أنه كما قلنا مشرع أراد أن يجعلها شريعة وقاعدة لمن يأتى بعده من الحكام فلا يتشبث رئيس برأيه عند الخلاف فى الرأى بل يؤثر عليه رأى الكثرة الغالبة ليستقيم أمر الحكم ويبعد عن أسباب الفتن ؛ حتى ولو كان رأى القلة أرجح من رأى الكثرة ؛ فمخالفة رأى الكثرة قد يكون أشد ضررًا على الأمة من مخالفة رأى القلة ؛ والإسلام يؤمن بقاعدة (اختيار أخف الضررين) .

وإن قيل إن الرسول ﷺ لم يستشر أصحابه فى صلح الحديبية نقول : أنه عرف أن فى هذا الصلح السلامة والمصلحة للإسلام وللمسلمين حتى وإن غاب هذا عن بعض أصحابه ؛ خصوصًا وأن ما فعله الرسول كان إجراء قصد به حقن الدماء ، كما أنه امتثالا للأمر الإلهى والوحى السماوى ؛ فقد قال له عمر بعد كتابة الصلح وقبول شروط المشركين المجحفة (لم نقبل الدنية فى ديننا) فقال له الرسول (أنا عبد الله لن أخالف أمره ولن يضيعنى) ؛ فكأن هذا أمرًا من الله ووحياً من السماء .

ولقد رجع الرسول فيما كان قد اتفق عليه مع مفاوضى غطفان حين حوصرت المدينة فى غزوة الخندق ، من إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة نظير انسحابهم من جيش الأحزاب وعدم اشتراكهم مع القرشيين فى الحرب ضده وذلك حين عرض على بعض كبار الصحابة هذا الرأى فرفضوه ولم يوافقوا عليه ، وكان الرسول قد بعث إلى سعد بن معاذ ؛ وسعد بن عبادة ؛ وذكر لهما ما ينتويه واستشارهما ؛ إلا أنهما قالا له (يا رسول الله ؛ أمرًا تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؛ أم شيئًا تصنعه لنا ؟) ؛ قال : بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شركتهم إلى أمرها .

حينذاك وحين عرف سعد بن معاذ أن هذا رأى الرسول الخاص ولم ينزل به وحى من السماء رفضه مع أن الرسول كان قد كتب كتاب الصلح مع قائدين من قواد غطفان إلا أنه لم تقع الشهادة على الكتاب ولا وقع عليه النبى ، وكان ذلك بمفهوم عصرنا اتفاق مبدئى حتى يتم أخذ الموافقة النهائية عليه ، وقال سعد للرسول فى هذه المناسبة (يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ؛ وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعًا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ؛ نعطيهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم) ورجع الرسول عن رأيه وتناول سعد بن معاذ الصحيفة من رسول الله ومحى ما فيها من الكتاب .

وقد ضرب الرسول بذلك العمل المثل العملى فى تنفيذ نظام الشورى الذى يعتبر الأساس الأول فى قيام الدولة الإسلامية .

ولقد استشار الرسول أصحابه فى أسرى يوم بدر واستمع إلى رأى عمر وأبى بكر وغيرهما وأخذ بالرأى الأخير مع أنه لو تصرف وحده دون استشارة ما اعترض عليه أحد ولكنه كما قلنا مشرع ومعلم يضع الأسس ويقعد القواعد .

وقد اتخذ الرسول ﷺ المسجد النبوى مقرًا له ولم يكن هذا المسجد كما قلنا خاصا بالصلاة وحدها وإنما كان النبى يصرف فيه معظم الشئون والمهام المتعلقة بأمور الدولة فقد كان للاجتماعات الهامة وللمشاورات فى أى من الأمور ، وفى المسجد كان الرسول ﷺ يكتب المراسلات ويبعث بالكتب إلى القبائل المختلفة ويعقد المعاهدات وينفذها ويصدر الأوامر إلى الحكام وجباة الضرائب ويستقبل فيه الوفود حتى وإن كانوا على غير دين الإسلام ، فقد استقبل فيه نصارى نجران وسمح لهم بإقامة الصلاة فى داخله ، وعلى العموم فقد كان المسجد هو مقر الحكم ولم يشيد مقر آخر للحكم طوال حياة النبى .

ولقد قلنا إن الرسول ﷺ كان رئيساً للدولة وهو فى نفس الوقت مشرعا باعتبار أنه رسول ، ولا يخفى أن للدول نظما مختلفة ، ففيها الملكى والجمهورى والمطلق والمقيد ، ولكل دولة قوانين تختلف عما للأخرى مما لا يحصره وصف ولكنها ترجع كلها إلى أمرين تشترك فيهما جميعًا وهما المال والجند لأنه لابد للدولة من الجندية والمالية وما من دولة مهما كان نوع نظامها إلا وفيها الجند والمال ولا تقوم للدولة قائمة بدونهما بل ربما كانت الحاجة إليهما فى أوائل الدولة أشد مما بعدها .

وكان المسلمون جميعاً فى عهد الرسول هم الجند ، والزكاة والضرائب المختلفة التى تقررت شيئاً فشيئاً كانت هى الموارد المالية التى كان يصرف منها على الدولة الإسلامية .

وقد قضت الحكمة الإلهية أن تكون دعائم الحكومة فى الإسلام غير مفصلة ، لأن تفصيلها مما يختلف باختلاف الأزمان والبيئات ، ولهذا لم يتحدد شكل الحكومة فى الإسلام بتفصيل .

وحين ننظر إلى آيات الكتاب الكريم وصحيح السنة نرى أن الحكومة الإسلامية حكومة دستورية وأن الأمر فيها ليس خاصًا بفرد وإنما هو للأمة كلها ممثلة فى أولى الحل والعقد ؛ حيث أمر الله المسلمين بالشورى وكان عمل الرسول كما رأينا مبنياً على التشاور وعدم الاستقلال بالأمور ، وكذلك كان سنن الراشدين من بعده ، وهكذا كانت الدعائم للحكومة الإسلامية التى يمكن إرجاعها إلى الشورى ومسئولية أولى الأمر واسترداد الرئاسة العليا من البيعة العامة :

ولقد أراد الرسول ﷺ أن يقيم دولة كاملة بكل مقوماتها ؛ وأن ينظم الحياة العامة فى هذه الدولة تنظيما لازال المشرعون وأصحاب الفكر فى العالم كله يقفون أمامه مبهورين .

موظفون عموميون :

كان للنبى كتبة يقوم كل فى ناحية اختصاصه بكتابة ما كلف به من الرسول ﷺ ، فقد تولى مثلا على وعثمان رضى الله عنهما كتابة الوحى ، كما كان يقوم بذلك أيضاً أثناء غيابهما أبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلط يقومان بكتابة أموال الصدقات ؛ وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات بين الناس ، وكان حذيفة بن اليمان يعد تقديرات الدخل من النخيل ، وكان لدى عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عتبة سجلات عن القبائل ومياهها ، وكذلك عن الأنصار ذكورًا وإناثًا ، كذلك استعمل الرسول ﷺ زيد بن ثابت لإعداد الكتب إلى الملوك والزعماء ، وكان زيد ترجمان الرسول للفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية .

وكان الرسول ينتدب عبد الله بن الأرقم فى بعض الأحيان لإعداد الكتب إلى الملوك والزعماء بدلا من زيد ، كما أن شرحبيل بن حسنة كان يكتب التوقيعات إلى الملوك ؛ وكان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح على بن أبى طالب[٤] .

أما دخل الدولة من المغانم فكان الرسول ﷺ يكلف به معيقيب بن أبى فاطمة .

وكان يطلق على حنظلة بن الربيع اسم كاتب النبى ؛ ويقول الجهشيارى عن حنظلة بن الربيع ؛ أنه كان خليفة كل كاتب من كتاب النبى إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب ، فكان يضع عنده خاتمه .

وقد بلغ كُتّاب الرسول ﷺ اثنين وأربعين رجلا .

ولايـة الدولـة :

وكأى دولة كان للدولة الإسلامية عاصمة وإدارات ومناطق أى (مقاطعات) تابعة للدولة ، وكانت المدينة عاصمة هذه الدولة ، وكانت إدارتها هى والمناطق المجاورة لها خاضعة لسلطة النبى مباشرة ، وكان النبى ﷺ أثناء خروجه لأى سبب من الأسباب وابتعاده عن العاصمة يعين مكانه نائبًا كحاكم مؤقت للمدينة حتى يعود ، وقد تولى عبد الله بن أم مكتوم هذه المهمة أثناء غياب النبى (ﷺ) فى معظم غزواته .

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات هى : المدينة وتيماء ، والجند ومقاطعة بنى كنده ، ومكة ؛ ونجران اليمن ، وحضر موت ، وعمان ، والبحرين ، وقد نصب النبى (ﷺ) على كل مقاطعة من هذه المقاطعات والياً أى (حاكمًا) عهد إليه بإقامة الحدود وإنفاذ الأحكام وتوطيد النظام وإعداد الترتيبات الخاصة بالقضاء .

الإحصاء :

أراد النبى (ﷺ) إحصاء المسلمين مرة فقال . أكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبوا له ألف وخمسمائة رجل .

أما عن بيت المال فلم يكن للرسول بيت مال خاص للأموال العامة وإنما كان يضع الأموال فى بيته وبيوت أصحابه ، وغالباً ما كان يقسم الفىء فى نفس اليوم وكان يعطى الآهل (المتزوج) من الفىء حظين والأعزب حظاً واحدًا .

أما عن القضاء :

فقد كان الرسول (ﷺ) هو أول من تولى القضاء فى الدولة الإسلامية ثم تولاه خلفاؤه من بعده لأن القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة .

ولم يكن للمسلمين فى عهد الرسول (ﷺ) فى المدينة قاض سواه إذ كانت الأمة لا تزال على بساطتها وضيق رقعتها وإخلاص الناس بالحق ، ويرى بعض المؤرخين أن الرسول (ﷺ) كان يعهد بالقضاء إلى بعض الولاة ضمن ولايتهم أمور الولاية وأن الرسول (ﷺ) لم يعين فى أى بلد من البلاد رجلا إختص بالقضاء بين المسلمين ، وإن كان الرسول فى بعض الحالات يعهد إلى أصحابه بفض بعض الخصومات .

ويرى البعض الآخر أن أول من عين القضاة هو عمر بن الخطاب وأن تعيين القضاة حدث بعد أن اتسع سلطان الخلفاء وكثرت مهام مناصبهم ، الأمر الذى اضطرهم إلى إستنابة من يقوم عنهم بالقضاء بمركز الخلافة ؛ وفى الأعمال ، لأن القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة ، ولهذا كانوا قبل أن يضطر عمر إلى تعيين قضاة يباشرونه بأنفسهم ويجعلونه إلى من سواهم .

لكن مؤلف كتاب الإدارة العربية : يرى أنه كان هناك فصل بين المهام القضائية والتنفيذية حتى فى عهد النبى عليه السلام ويقول إن النبى (ﷺ) كان يعين لكل ولاية قاضيًا وكان هذا القاضى مستقلا من الوجهة العملية عن الوالى .

ولقد ذكر الأستاذ/ محمد كرد على فى كتابه (الإدارة الإسلامية فى عز العرب) أن الرسول استعمل أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ووجه معه راشد بن عبد الله أميرًا على القضاء والمظالم . .

وأرى أن الرسول (ﷺ) خص بعض الولايات الإسلامية بقضاة متفرغين لهذا العمل ، لكن لم يكن هذا عامًا وفى كل الولايات ، فقد ثبت أن الرسول (ﷺ) كلف معاذ بن جبل بالفصل بين الناس والقضاء بينهم مع

تكليفه بجمع الصدقات وغيرها من الأمور السياسية ، وقد عرفنا أن الرسول أرسل معاذًا إلى اليمن على رأس وفد ليعلم أهلها الإسلام ويقيموا الصلاة ويجبوا الزكاة والصدقات ، وقد أوصاه الرسول (ﷺ) بوصايا ثم سأله كيف تحكم بين الناس إذا عرضت لك قضية فقال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال بسنة رسول الله ... إلخ .

وما أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى حتى كان قد أتم النظام الكامل الشامل لأى دولة إسلامية من بعده ؛ فقد وضع الأسس والقواعد والأصول لكل ما تحتاج إليه أى دولة من أمور تنظيمية وتشريعية ، سياسية وإجتماعية وعسكرية ودينية وخلافها .

ففى الحرب مثلا وضعت الأسس والقواعد التى تنظم هذه الحرب وأسبابها وأغراضها ونتيجتها ، وقد تحدثنا بتفصيل فى باب الجهاد وأثبتنا أنها وإن كانت ضرورة إلا أن الإسلام آثر السلم على الحرب مع أمر المسلمين بالاستعداد التام لها لإرهاب العدو ولإقرار السلم .

ومع ذلك فقد ثبت أن الرسول ﷺ كان ينظم الجيش تنظيمًا دقيقًا ويعقد الألوية ويبعث السرايا والبعوث بتخطيط وتنظيم لا يقل إطلاقًا عن أرقى الدول تقدما وحضاره .

كذلك استحدث الرسول وسائل للحرب لم تعهدها الجزيرة العربية ، بل ثبت أن الرسول بعث البعوث للتدريب فى البلاد المتقدمة فى الفنون الحربية وصناعة آلاتها الحديثة ، وقد استعمل المنجنيق والدبابات والخندق وهى أمور لم تكن تعرفها العرب من قبل .

وكان الرسول (ﷺ) أيضًا يكلف بعضًا من الصحابة باستنفار الناس للجهاد وقد بعث بشر بن سفيان الخزاعى مع بديل بن أم حزام إلى خزاعة لاستنفارهم إلى قتال أهل مكة .

كذلك استعمل الرسول العسس وهم حراس الليل بالمدينة واتخذ المنادين ينادون الناس يأمرونهم بما ينفعهم أو يحذرونهم مما يضرهم .

كما حدث حين تحريم الخمر فإنه أرسل رجلا ينادى . ألا إن الخمر قد حرمت ، وحين أرسل مناديا ينادى فى الناس بعد أن ضيقوا المنازل وقطعوا الطريق فى بعض الغزوات يقول : إن من ضيق منزلًا أو قطع طريقًا فلا جهاد له

وقد فرض الرسول لعتّاب بن أسيد ، الذى ولاه مكة درهما كل يوم ، فكان هذا الراتب أول ما وضع من الرواتب للعمال . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم وغيرها .

وحين تولى عتاب عمله قام يخطب ويقول (أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ؛ فقد رزقنى رسول الله درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد .

أما قيس بن مالك الأرجعى فقد استعمله الرسول ﷺ على قومه من همدان واقطعل من ذرة نيسار مئتى صاع ، ومن ذبيب خيوان مئتى صاع ، جار له ذلك ولعقبه من بعده أبدًا .

وكان من عماله أيضًا أبو دجانة الساعدى وسباع عرفطة عاملا على المدينة .

وعين الرسول أمراء للجند ، وعمال للغنائم والجزية والأعشار كذلك عين الرسول عتّاب بن أسيد أميرًا للحج مع إمارته على مكة وذلك بعد فتحها ،

وعين أبا بكر أميراً للحج سنة ٩ هجرية .

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ أقام الدولة الإسلامية ، ووضع لها الأصول العامة التى يقوم عليها البناء السليم لأى مجتمع إنسانى ؛ ولم يدع من هذه الأصول أصلا إلا جاء فى أعدل حال وأحكم وضع وأوضح بيان .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أرشدنا مجرد إرشاد وأنار لنا الطريق لما يمكن أن يكون عليه النظام الداخلى والخارجى للدولة فإن هذا لم يكن تفصيلا لكل الجزئيات التي تدور فى حياة الناس ، وإنما هى كما نقول مجرد إرشادات فقط واستكمالا للنظام الذى يجب أن تكون عليه الدولة دون حصر ، فالجزئيات متعددة متجددة لا تقع تحت حصر ومن المحال أن يقوم فى الناس تشريع سماوى أو وضعى يفصل وقائع الحياة ويحصر ما فيها من جزئيات ، ولو كان هذا ممكنا لماتت ملكات التفكير عند الناس ولأصبحوا دمى تحركهم نصوص جامدة خارجة عن إرادتهم ، مما يذهب بوجودهم ويفقدهم شخصيتهم فى الحياة ، وهذه ميزة من ميزات الشريعة الإسلامية فقد وضعت المعالم الواضحة للناس التى توضح الطريق إلى الحق والعدل والخير وتركتهم مع عقولهم يواجهون الحياة فى صحبة الدين ﴿**ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين ، وهديناه النجدين**) .

« ولم يكن من الممكن أن يسبق المشرع الأحداث حدثا حدثا ويحدد أشكالها وأحجامها ، وقد قصدت الشريعة أن يكون ليد الناس تنظيم مجتمعهم واستكمال أسباب حياته وإمداده بحاجاته إذا ما دعت دواعيها ، وفى هذا ما يضمن بقاء الطريق مفتوحا أمام الناس ليسعوا سعيهم فى الحياة وليكون لكل مجتهد نصيبه بقدر إجتهاده ولو كان من تدبير الشارع أن يرسم منهج الدولة الدائم وأن يضع لها جميع الخطط السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لأطال الله فى غمر النبى ﷺ حتى تبزغ جميع الأحداث والمشكلات التى ستتعرض لها حياة هذا المجتمع على امتداد أوطانه وأزمانه .

سياسة الرسول فى اختيار الولاة ومراقبتهم

كان الرسول ﷺ يعين ولاة للمقاطعات التابعة للدولة الإسلامية وكان يعين إلى جانب الولاة عمالاً على القبائل وعلى المدن ، (وكان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة فى الحجاز واليمن عامل من قبله يقوم بإمامة المسلمين فى الصلاة وجمع الزكاة .

وكان هؤلاء الجباة خبراء دربهم النبى ﷺ على القواعد الخاصة بجباية الزكاة ، وقد اتصف جميع عمال النبى بالنزاهة والخلق القويم ، ولم تقدم شكوى ضد أى عامل منهم من أية ناحية ، اللهم إلا ماحدث من وفد عبدالقيس حين شكي من العلاء بن الحضرمى عامل البحرين فعزله الرسول ﷺ وولى أبان بن سعيد مكانه وقال له : أستوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراتهم .

ولقد كان الرسول ﷺ حين يولى والياً يختاره ممن يشتهرون بالحكمة والسياسة ويعرفون بالتدين والفقه فى الدين (غالباً) وكان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية لأنه إنما طلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء ؛ ولم يطلب أهل الإجتهاد والجهل بها والضعف عنها .

ولم يكن الرسول ﷺ يفرق بين مايمكن أن نسميه الآن بمفهومنا المعاصر دين وسياسة ، وقد بعث النبى ﷺ معاذاً إلى اليمن وأوصاه بهذه الوصية «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله تعالى وإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض زكاة تؤخذ من أغنيائهم ثم ترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوا ذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ؛ واتق**

دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » .

وكذلك نرى الرسول ﷺ يكتب إلى عمر بن حريث ، عامله على نجران كتاباً يضمنه الفرائض والسنن والصدقات والديات .

وكان الرسول ﷺ يتخير عماله من أولى العلم والدين يختارهم عن الأغلب من المنظور إليهم فى العرب ليوقروا فى الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، ويحسنون العمل فيمن يتولون ويُشربون قلوب من ينزلون عليهم بالإيمان[٣] ؛ وكان الرسول مع هذا كله لا يترك العمال وشأنهم يتصرفون كما يشاؤون دون أن يحاسبهم أو يسألهم عن أعمالهم ، فقد كان يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وحين استعمل ابن اللتبية على الصدقات ورجع بها إلى النبى ، حاسبه النبى ، فقال له ابن اللتبية : «هذا لكم وهذا أهدي إلى» فقال النبى : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا ، وقال : من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول (أى خيانة) .

وقد رأينا كيف عزل العلاء بن الحضرمى عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس اشتكاه .

وخلاصة القول أن الرسول ما كان يفرق بين العمل الدينى والعمل السياسى وإن كان هذا لم يمنع الرسول عليه السلام من أن يخص بعض الناس بأعمال دينية وبعضهم بأعمال سياسية صرفة ، وقد قصر الرسول ﷺ على بعض العمال إمامة المسلمين فى الصلاة وجمع الزكاة ، وهذا دليل على جواز تفرغ بعض الناس للعمل الدينى وإقتصارهم عليه ، ولم يكن هذا مانعاً من فرض السلطان السياسى على هؤلاء العمال كأفراد خاضعين للنظام العام للدولة .

كذلك فرض السلطان الدينى على الوالى ومطالبته به من قبل العامل المتولى لهذه الأمور الدينية .

وقد استعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران وولاه الصلاة والحرب ، واختص راشد بن عبد الله بالقضاء والمظالم ، فقد كان الرسول ﷺ يقدر لكل إنسان قدره ويضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وإنى أرى أن السبب فى عدم إعطاء الرسول ﷺ حق القضاء والنظر فى المظالم لأبى سفيان هو أن أبا سفيان قريب عهد بالإسلام ولعله يجهل كثيراً من الأمور التشريعية التى لابد لمن يلى القضاء أن يعرفها ويكون متفقهاً فيها ، وإذا كان الرسول قد ولاه الحرب فهو قائد قديم وسياسى محنك ، والصلاة ليست فى حاجة إلى تدريب وخبرة ، ولذلك لم يكن هناك مانع من أن يكون أبا سفيان إماماً للمسلمين فى الصلاة ، ولقد كان الغالب أن يكون الحاكم هو الإمام فى الصلاة ، أما جمع الزكاة والنظر فى المظالم والمحتسب فهى أمور فى حاجة إلى متخصصين فيها ، وذوى خبرات ، والرسول كان يؤمن بالتخصص وكان يقدر لكل صحابى قدره ، ويعرف مافيه من صفات تؤهله للعمل المناسب له ، فكثيراً ماكان يقول «**أرحم أمتى لأمتى أبو بكر وأشدهم فى دين الله عمر ؛ وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم على ؛ وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ؛ وأفرضهم زيد بن ثابت واقرؤهم أبى بن كعب ؛ ولكل أمة أمين ؛ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح** .

فالرسول (ﷺ) يعرف أصحابه واحداً واحداً ويعرف إمكاناتهم الفكرية وقدراتهم العقلية ، وإذاكانت المهمة التى يريد الرسول (ﷺ) أداؤها فى حاجة إلى أكثر من واحد عين لها ماتحتاج إليه من أفراد إلا أنه كان يضع واحداً منهم على رأسهم كأمير لهم ؛ وحين ذهب معاذ بن جبل إلى اليمن بتكليف من رسول الله (ﷺ) وزود بما زود به من وصايا وتعليمات لم يكن وحده وإنما كان معاذ

رئيساً لوفد شكّله الرسول (ﷺ) وكلفه بالسفر إلى اليمن لتعليم أهلها الإسلام وإقامة الصلاة وجباية الزكاة والصدقات .

وكان الوفد أو البعثة مكوناً من معاذ بن جبل رئيساً وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة أعضاء .

ولقد أرسل الرسول (ﷺ) ومع هذه البعثة كتاباً موجهاً إلى زرعة ذى يزن فى هذا الشأن هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

أما بعد — فإن رسول الله محمد النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أنه إذا أتاكم رسلى ؛ فأوصيكم بهم خيراً **«معاذ بن جبل . وعبد الله بن زيد ، ومالك ابن عبادة ؛ وعقبة بن نمر ؛ ومالك بن مرة ؛ وأصحابهم ؛ وأن اجمعوا الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلى ؛ وأن أميركم معاذ بن جبل فلا ينقلب إلا رضيّاً »** .

الدعوة الإسلامية وغزوات الرسول

قامت حروب بين المسلمين فى زمن الرسول وبين المشركين فى الجزيرة العربية . وفى خلال تسع سنوات من عشر قضاها الرسول (ﷺ) فى المدينة وصل عدد السرايا إلى ثمانية وثلاثين سرية وعدد الغزوات إلى ست وعشرين غزوة . على خلاف بين المؤرخين[1] . وبرغم هذا العدد الضخم من السرايا والغزوات فإننا لو حاولنا إحصاء عدد الذين قتلوا من المسلمين فى جميع الغزوات والسرايا وعدد قتلى خصومهم ومنافسيهم من العرب واليهود لقلنا إنه لم يكن هناك قتال بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة . ولتبين أنه لم يكن هناك إرهاب ولا إرهاق ، وأن السيف لم يكن له علاقة مطلقا فى فتح الحجاز واليمن وبعض أطراف الشام . وإنما تم الفتح بسبب تضامن المسلمين فيما بينهم والتفافهم حول نبيهم وحرصهم على اتباع تعاليمه وشدة ايمانهم بسمو الغاية التى يعملون من أجلها ويستميتون فى سبيلها .

وقد كتب أحد المؤرخين[2] بيانا بالغزوات التى غزاها الرسول (ﷺ) وأسمائها وما حدث فيها وعدد القتلى من المسلمين وخصومهم وكتب بيانا آخر عن السرايا وأسمائها وعدد القتلى فيها من الفريقين .

ومن هذا الاحصاء يتبين لنا أن عدد الذين قتلوا من المسلمين فى جميع الغزوات التى غزاها النبى (ﷺ) لم يزد عن مائة وثمانية عشر قتيلا . كما أن عدد قتلى السرايا بما فيهم قتلى سريتى الدعوة والتبشير بالدين (الرجيع وبئر معونة) . والذين أرسلوا للتبشير لا للغزو مائتين وسبعة عشر قتيلا . فإذا أخرجنا منهم أربعة وسبعين وهم عدد قتلى التبشير بالدين فمعنى ذلك أن يكون

(١) نشأة الدولة الإسلامية. امين سعيد ص ١٥٦ ، راجع أسماء وعدد الغزوات والسرايا بابن هشام ص ٦٠٨ ، ص ٦٠٩ القسم الثانى
(٢) راجع من ص ١٥٤ إلى ١٥٧ جـ ١ امين سعيد (نشأة الدولة الإسلامية) .

جميع قتلى السرايا العسكرية (مائة وثلاثة وأربعين قتيلا) ويكون جميع مافقده المسلمون فى كل حروبهم وبعوثهم العسكرية التى استمرت على مدى تسع سنوات وأتموا فيها فتح الحجاز واليمن وجانبا من الشام هو (مائة وثمانية وخمسين قتيلاً فقط).

أما عدد قتلى خصوم المسلمين ومنافسيهم فهو بناء على ماوصل الينا وماذكر فى هذا البيان. لايزيد عن **مائتين وعشرين قتيلا فقط فى** كل الغزوات والسرايا بما فى ذلك قتلى اليهود فى خيبر وعددهم ثلاثة وتسعين يهوديا. وإذا أخرجنا منهم قتلى اليهود. لم يبق سوى **مائة وسبعة وعشرين** قتيلا وعلى فرض إضافة مثلهم فى المعارك التى لم يذكر فيها عدد القتلى وهو أكبر تقدير. يكون المجموع حوالى مائتين وأربعين قتيلا سقطوا فى خلال تسع سنوات، ولايدخل فى هذا الإحصاء قتلى بنى قريظة[1] من اليهود ومعناه كما قلنا أنه لم تكن هناك حروب بمعناها المفهوم منها.

ونحن هنا لانحب أن نذكر تفصيلات مادار فى هذه المعارك ولاأسبابها. إنما أحب أن أذكر بإجمال أن الرسول (ﷺ) لم يكن يود على الإطلاق أن يدخل معركة من هذه المعارك ولاأن يراق دم عربى، مسلم ولاغير مسلم حق ولادم يهودى، وإنما كان الرسول ﷺ مضطراً لدخول هذه المعارك ولإرسال هذه السرايا. لاحباً فى الحرب لمجرد الحرب فقد كان النبى ﷺ راغبا كل الرغبة فى أن يبتعد عنها دائماً ولايؤمن بها كوسيلة لنشر دعوته. لهذا كانت حروبه كلها حروب دفاع ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد التأكد من نكث العهد، وإصرار العدو على القتال. يستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم. ففى غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية. فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ماتكلف من الجهد والنفقة

(١) نشأة الدولة الاسلامية أمين سعيد راجع بيان الغزوات والسرايا واسمائها من ص ١٥٤ إلى ١٥٧.

فى تجهيزه وسفره[1] .

وماحيلة محمد ﷺ وقد دفعته قريش دفعاً إلى الحرب ؟ فان كان النبى قد حارب فإنما قبل أن يتخذ الحرب كوسيلة لحماية نفسه ودينه ودعوته . وليس حبا فى الحرب ولا رغبة منه فى اتخاذها وسيلة من وسائل نشر دعوته .

وقد راعى فيها الحرمات الإنسانية وفى هذا كله تهذيب لفكرة الحرب نفسها .

ولم تخرج حرب الرسول ﷺ عن الصفة التى وصفه الله تبارك وتعالى بها ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ . هذه الرحمة التى جاءت بها الرسالة المحمدية هى نفسها التى دفعت إلى القتال . وليست رحمة الاسلام الشفقة المجردة . إنما رحمة الاسلام هى الرحمة التى تعم ولا تحض . ومن الرحمة بالمجموع الأخذ على يد الظالم . ومن الرحمة بالعالمين دفع شر المعتدين . فكان الدافع إلى القتال هو الرحمة . ولذلك كان القتال فى أضيق صورة وكانت الرحمة تظل القتال أيضاً[2].

وحين نحاول استعراض الرحمة فى حروب الرسول ﷺ نجد مايؤكد وجهة نظرنا من أن الحرب كانت من أبغض الأشياء إلى قلب الرسول ﷺ رغم معرفته أنها من ضرورات الحياة وأنها من أسباب حماية الحضارات وتركيزها والمحافظة عليها وأن االقتال والنزعة الحربية فى فطرة الناس ومن غرائزهم . ولذلك هذب الرسول فكرتها فى النفوس وحصرها فى فى أضيق حدودها . وأسلم طرائقها . وحدد أهدافها وحاول تنظيم هذه النزعة أسمى تنظيم . وإنزالها فى المنزلة التى خلقت من أجلها .

فى بدر مثلا تجلت هذه الرحمة فى دفنه قتلى المشركين ورفضه أن تظل جثثهم نهباً للسباع والطيور ، ورفضه التمثيل ببعض الأسرى . فحين طلب منه بعض المسلمين أن يخلع ثنيتى سهيل بن عمرو مع أنه كان يؤذيه ويهجوه

(١) عبقرية محمد (العقاد) ص ٣٠

(٢) العبقرية العسكرية (محمد فرج) ص ٢١ .

رفض . بل رفض مجرد أن يذمه عمر بن الخطاب . ورفض أيضاً رأى عمر بقتل أسرى قريش ببدر ، وكان فى أحلك المواقف وأشدها عليه يدعو ربه دائماً بطلب الرحمة والمغفرة لقومه وهم أشد أعدائه ويرجو أن يتركوه وشأنه يبلغ رسالات ربه ويقول :

(اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون) .

وكان هكذا فى كل حروبه حتى نراه يعطى قريشا جثة نوفل بن عبد الله ابن المغيرة الذى أراد اجتياز الخندق على فرس له بعد ما غربت الشمس أثناء حصار الأحزاب للمدينة فهوى هو وفرسه فى الخندق وصرع وتحطم . ويرفض الرسول عرض أبى سفيان قائد جيش الأحزاب بدفع دية جثته مائة من الإبل ويعطيهم إياها بلا مقابل[1] .

ولقد كانت هذه المعاملة الطيبة من الرسول ﷺ للمشركين ومحاولته بذل أقصى ما فى وسعه من جهد للحد من فظائع الحرب وحصرها فى أضيق نطاق مستطاع . سببا من أسباب انتشار الإسلام ؛ ولقد أعطى النبى الأوامر المشددة الصارمة بعدم قتل غير المحاربين . حتى أنه حين وصل إلى علمه أن امرأة وجدت بين القتلى فى إحدى المعارك غضب وقال (لم تكن محاربة)[2] .

ولقد كان ذلك سبباً من أسباب اعتناق كثيرين للاسلام بعد ما رأوا فيه هذه السماحة وهذه الرحمة حتى فى الحرب .

وحين عرض على الرسول ﷺ الصلح فى الحديبية وتفاوض معه رسل قريش من أجل الصلح . كان حبه فى السلام وكرهه فى الحرب من العوامل التى جعلته يوافق على هذا الصلح ويقبل شروطاً فى ظاهرها إجحاف بالاسلام والمسلمين بل قال (لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)[3] .

(١) حياة محمد (هيكل) ص ٢٠٣ .
(٢) العبقرية العسكرية ص ٩٠ .
(٣) ابن هشام ص ٣١٥ القسم الثانى .

وقال أيضاً : (والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة من حرمات الله إلا أعطيتهموها)[1]

وحين سمع الرسول أن قريشاً صممت على منعه من دخول مكة قال : (يا ويح قريش وقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فان هم أصابونى كان الذى أرادوا وأن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين . وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة)[2] .

ولعل هذا النص يوضح إلى أى مدى كان الرسول ﷺ يرغب فى السلام ولا يريد الحرب ، وكان كل همه أن يترك ليؤدى الرسالة التى كلف بها ويدعو إلى الإسلام . ويفهم من هذا النص أيضاً أن قريشا كانت تحول بينه وبين سائر العرب بما لها من نفوذ عليها .. ولذلك يقول الرسول ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ثم يقسم الرسول بأنه سيظل يجاهد ما استطاع لتبليغ الرسالة وتوصيلها إلى كل الناس حتى الموت . ولهذا حين عقدت معاهدة الحديبية وتم الصلح بين الرسول والمشركين وكان فى هذا الصلح ترك الحرية للعرب ليختاروا الدين الذى يرغبون فيه . رحب الرسول ﷺ بها واعتبره ذلك نصراً وفتحاً .

فقد كان الرسول ﷺ يتمنى ويرجو أن تنتهى هذه الحرب بينه وبين قريش حتى تعطى المسلمين فرصة لنشر الدين والتفرغ للدعوة وتعليم الناس أصولها وقواعدها وما اشتملت عليه من مبادىء ونظم . وقد أعطت هذه الهدية فعلا فرصة لنشر الدعوة والتفرغ لها . فحين تركت قريش المسلمين وشأنهم ولم تقف فى طريق دعوتهم . دخل الناس فى دين الله أفواجاً .

ولقد كانت هذه المعاهدة فعلا فتحاً . بل كانت من أعظم الفتوح فى تاريخ الاسلام كله ، فقد أمن الناس بعضهم بعضاً . واختلط المسلمون بالكفار

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ١٧٣ .

(٢) ابن هشام ص ٣٠٩ القسم الثانى

وتحدثوا معهم عن الإسلام وجادلوهم فيه وأسمعوهم القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين غير خائفين .

وظهر من كان مختفياً بالإسلام وتركت الحرية للناس يدخلون فى الإسلام أو يظلون على دينهم كما يشاؤن[1] .

وظهرت تعاليم الإسلام واضحة جلية وعملت الدعاية له والإعلام به عملهما . وأحسن الناس بالفرق الكبير بين ما فى الإسلام من تعاليم وما هم عليه من ضلال . ونشطت الدعوة نشاطاً كبيراً . وتحرك أتباع الإسلام هنا وهناك بلا خوف يدعون إلى الله على بصيرة بألسنتهم وأعمالهم . وتسامع العرب جميعاً بهذه المعاهدة ، وأصبح الإسلام ديناً معترفا به فى الجزيرة العربية فبدأ العرب يدخلون فى دين الله أفواجا . واعترفت قريش بدولة الإسلام وأعطتها الحق فى دخول رعاياها مكة لزيارة البيت بعد أن حرموا منه طيلة ست سنوات . والتقى المسلم المهاجر بأهله وعشيرته من المشركين رعايا مكة .

وكأن هذه المعاهدة كانت فتحا لطريق الدعوة بعد أن كان مسدوداً مغلقاً . ولذلك قال المفسرون : إن المقصود بالفتح هو الانتصارات التى تلت هذا الصلح وجعلت خلقاً عظيماً يدخلون الإسلام .

والحقيقة أن الحديبية كانت فتحاً مبيناً فعلا لا يقل فى أثره وعظمته عن أكبر معارك الإسلام . وإذا كانت بدر قد ثبتت قواعد الدولة الناشئة فان الحديبية قد فتحت أمامها المجال لتصل إلى الهدف الذى كان النبى يرمى إليه وهو توحيد العرب فى دولة واحدة تكون نواة للدولة إسلامية كبرى تشمل الإنسانية وتحقق رسالة العدالة والخير لبنى الإنسان على الأرض . وانفتح بصلح الحديبية المجال أمام النبى ليتابع إبلاغ رسالته للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها .

ومع أن الصلح كان فى الصورة الظاهرة ضيما للمسلمين . إلا أنه كان فى الباطن عزا وفتحاً ونصراً ، وكان الرسول ﷺ ينظر إلى ماوراءه من الفتح العظيم والعز والنصر من وراء ستر رقيق . وكان يعطى المشركين كلما سألوه

(١) زاد المعاد ص ١٣٠ بتصرف .

من الشروط التى لم يحتملها أكثر الصحابة ورسول الله يعلم ما فى ضمن هذا المكروه من محبوب[1] .

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيراً لكم﴾[2]

وربما كان مكروه النفوس إلى . محبوبها سببا ما مثله سبب[3]

ولم يكن الرسول ﷺ فى حالة ضعف أو خوف فاضطر لقبول الصلح . ولكنه كان على استعداد للدخول مع أهل مكة فى حرب لو صمموا على الحرب ولذلك نراه حين ينصحه بدليل بن ورقاء الخزاعى بالعودة إلى المدينة ويخبره بأن قريشا لن تسمح له بدخول مكة وأنهم سيقاتلونه ويصدونه عن البيت الحرام . يقول **«إنا لم نجىء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين . وإن قريشاً قد نهكتم الحرب وأضرت بهم فان شاؤوا ماددتهم ويخلوا بينى وبين الناس . وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا . وإلا قد جموا . وإن أبوا إلا القتال فو الذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره»**[4] .

والحقيقة أن النبى أظهر بهذا الصلح . بعد النظر ودقة التقدير ، وأثبتت الأيام أن قبول الرسول لهذه الشروط التى ظنها بعض المسلمين فى صالح قريش أنها كانت فى مصلحة المسلمين ، فقد ذهب النبى فيها بالنصيب الأوفر ، وحقق بواسطتها أهدافه الكبرى ، لأن فترات النضال بين قريش والمسلمين ، لم تدع الناس وقتاً للتفكير ، حتى إذا ما تمت هذه الهدنة بدأ الكثيرون من العرب يفكرون فى الإسلام ، وأتاحت لمن يريد من القبائل الإنضمام إلى صفوف الرسول ﷺ صراحة ، وأتاحت له فرصة العمل بحرية وهو آمن ، وأخذ المسلمون المستضعفون فى مكة يظهرون ويتحركون فى حرية وأمان ، وبدأ كثيرون من أبطال قريش وزعمائها يفكرون فى الإسلام ومبادئه وتقدمه ويسرعون إلى المدينة معلنين إسلامهم كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص

(١) زاد المعاد ص ١٣٠ جـ .
(٢) البقرة ٢١٦ .
(٣) زاد المعاد ص ١٣٠ جـ ٢ .
(٤) زاد المعاد ص ١٢٤ جـ ٢

وعثمان بن طلحة حارس الكعبة[1]؛ ولم يسلم خالد فى صمت وهو بطل مكة المغوار وفارسها فى أحد وله مكانته العظيمة فى قريش وإنما قال على ملأ من قريش (لقد اسبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحقق على كل ذى لب أن يتبعه)[2].

وباسلام هؤلاء الثلاثة الكبار أسلم عدد كبير من أهل مكة، وأصبحت مكة فى حكم البلد الذى فتح أبوابه للدعوة الاسلامية، ولم يبق إلا أن تفتح أبوابها وتسلم القياد للمسلمين.

وكأنى بقريش بعد هذا الانتصار السياسى الباهر وإعلان إسلام كثير من قادتها قد أصبحت فى فوضى سياسية وعدم تحكم فى مواطنى دولتهم.

ولم تعد لهم سيطرة على القبائل العربية التى كانت إلى هذا التاريخ تعمل لقريش ألف حساب، وتخضع لها ولنفوذها، حتى رأينا بعد أقل من عام رجال هذه القبائل نفسها تؤلف القوى الكبرى فى جيش الرسول المتقدم لفتح مكة حيث انتشر الإسلام فى خلال هذه المدة القصيرة انتشاراً سريعاً فى هذه القبائل حتى كان عدد من دخل الإسلام فى هذه المدة القصيرة أضعاف مادخله منذ بعثه النبى ﷺ لذلك رأينا الرسول (ﷺ) بعد اثنين وعشرين شهراً فقط من هذا الصلح، يقود جيشاً قوامه عشرة آلاف متجهاً بهم لفتح مكة بعد نقضهم للمعاهدة، وكان معظم هذا الجيش قد دخل الدين فى خلال فتر الصلح.

إذا فإن صلح الحديبية قد أتاح الفرصة للرسول ﷺ والمسلمين أن يعملوا للدعوة بعد أن شغلتهم الحروب المتصلة بينهم وبينهم وبين أهل مكة؛ فقد جعلت هذه الهدنة الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً بعد أن كانت القبائل التى تقيم جنوبى مكة بعيدين عن سلطان الدين الجديد لإنقطاع وسائل الاتصال؛ ولم يكن الطريق سهلا أو ممهداً أمام الدعاة، والمعروف أن الرسول (ﷺ) بعد هجرته للمدينة، لم يكن فى وسعه الإتصال بسهولة بهذه القبائل

(١) مكة والمدينة ص ٤٦٧ وراجع اسلام عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة فى ابن هشام ص ٢٦٦ ـ ٢٨٨ القسم الثانى.

(٢) مكة والمدينة نقلا عن الواقدى ص ٤٦٧

القريبة من مكة ، ولم يعد الرسول يلتقى بهم كما كان يلتقى وهو فى مكة بوفودهم القادمة للحج وزيارة البيت أو التجارة ، ولم تكن لهذه القبائل علاقات بالمدينة كعلاقتهم بمكة وأهلها ، وإن كان لا يألو جهداً فى تكليف بعض أفراد ممن اعتنقوا الاسلام من هذه القبائل العربية ويطلب منهم دعوة قبائلهم للإسلام ، لكن هذا على ماأعتقد لم يكن ليلقى القبول الكامل لدى هذه القبائل ، خاصة وأن هؤلاء الدعاة الجدد لا يعرفون من تعاليم الإسلام إلا القليل ، وربما كانت علاقة الدعاة الجدد بأهل مكة وارتباطهم بمحالفات وخضوعهم لهم دينياً باعتبار أنهم سدنة البيت ، أيضاً من الأسباب التى تؤخر فى إعتناق هؤلاء للإسلام .

يدل على هذا قصة اسلام الطفيل بن عامر ، فالمعروف أن الطفيل جاء إلى النبى وهو فى مكة قبل الهجرة واعتنق الإسلام وتحمس تحمساً شديداً لهذا الدين الجديد ، وطلب منه الرسول (ﷺ) أن يعود إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، وحين رجع إلى بلده استطاع أن يقنع أباه وزوجه لكنه وجد قومه غير راغبين فى ترك عباداتهم الوثنية القديمة ، فرجع إلى النبى وقد استولى عليه اليأس مما أصابه بسبب الإخفاق فى دعوته ، وطلب من الرسول أن يستنزل لعنة الله على بنى دوس ، ولكن النبى شجعه على المثابرة وقال : ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم ، ودعا النبى لقومه بالهداية وقال اللهم اهد دوسا[1] .

ولا أستطيع أن أقول إن الطفيل قد فشل فى نشر الدعوة بين قومه بل على العكس بلغ من نجاح الطفيل فى بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة فى السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسلام قد ظهر بانضمامهم اليه[2].

كل ما هنالك أن هذا الانتشار لم يكن بالسرعة التى كان ينتشر بها الاسلام خصوصاً بعد صلح الحديبية .

(١) راجع قصة إسلام الطفيل بن عامر (ابن هشام) ص ٣٨٢ ــ ٣٨٤ القسم الأول .

(٢) المرجع السابق ٣٨٥

وأعتقد أن القبائل العربية . اعتبرت صلح الحديبية انتصاراً لمحمد وهزيمة للمشركين القرشيين ؛ وخصوصاً حين وجدت أن المسلمين قد أصبحوا يعملون فى حرية ويظهرون إسلامهم دون خوف من أحد ؛ ومعنى مهادنة قريش للرسول ﷺ وقبول دخوله مع المسلمين إلى مكة حتى وإن كان مشروطاً بشرط أو محدداً بمدة إنما هو فى حد ذاته هزيمة لأهل مكة ؛ كما أن هذا الصلح أباح لبعض القبائل فرصة الدخول فى عقد محمد والإنضمام إلى صفوفه صراحة . وبخاصة قبيلة خزاعة التى كان جزء كبير من الأحابيش الذين كانت تعتمد عليهم قريش من بطونها[1].

وبذلك ضم الرسول جزءا كبيراً من هذه القوة إلى جانبه وأضعف مركز قريش الحربى إلى حد كبير . ولقد تأكد لكثير من القبائل العربية صدق دعوة الرسول ﷺ فما أن وجدوا الفرصة أمامهم سانحة للتفكير ووجدوا أن الرسول ﷺ يزداد قوة ونفوذاً وتزداد قريش أمامه ضعفاً وانهيارا ، حتى بادر معظمهم إلى مبايعته على هذا الدين الجديد وهم الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون : دعوا محمدا يقاتل قومه فان نجح فهو نبى حقا[2].

(١) مكة والمدينة ص ٤٦٩

(٢) الدعوة إلى الإسلام (أرنولد) ص ٥٧

السَّـرايا وأثرها فى تدعيم الكيان السّياسى وحرية الدعوة

لئن ظن بعض الناس أن الرسول ﷺ قد استراح بعد هجرته إلى المدينة وهنىء ببعده عن أعدائه الذين ناصبوه العداء ووقفوا فى طريق دعوته فى مكة فقد جهلوا طبيعة هذه الرسالة وهذا الرسول الذى لم يكن انتقاله من مكة إلى المدينة إلا مجرد تخطيط للتحرك بطريقة أوسع وأنظم لتبليغ هذه الدعوة ولتوصيلها إلى العالمين ، ولتولى مهام منصبه السياسى رسمياً فى المدينة بعد أن بايعه الأنصار من أهل المدينة ممثلين فى ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين فى العقبة وهى ما تعرف ببيعة العقبة الثانية ، وأصبح كما قلنا ابتداء من هذه البيعة زعيما سياسياً ، وقائداً لهذه الجماعة المؤمنة ، ورئيساً للدولة الناشئة التى كان يعمل لتأسيسها بوحى من الله منذ بدء الدعوة ، والتى بشره الله تبارك وتعالى بها وبقيامها وهو فى مكة وذكرنا بعضاً من هذه الآيات المكية فى فصل سابق .

كان انتقال الرسول ﷺ من مكة للمدينة عبارة عن خطة ثانية استمرارا لاستكمال إقامة الكيان الدستورى الكامل بجميع تشريعاته وتقنيناته الإلهية وليس من حق إنسان أن يدعى أن السياسة طغت على المهمة الرسمية للرسول وهى تبليغ الدعوة وأنه تغير فى المدينة عنه فى مكة .

ولكن قلنا إنه لا يمكن إطلاقاً أن نفصل بين السياسة والدين بل يجب أن نؤمن بأن سياسة الرسول كلها بلا استثناء دين وشرع

كما أن سياسة أصحابه نفسها خصوصاً الخلفاء الراشدين ؛ إنما هى تشريع دينى ، وإذا كان الرسول ﷺ فى مكة كان كل همه ، أو همه الأكبر فى الدعوة ونبذ عبادة الأصنام وتغير معتقداتهم الفاسدة ومحاولة اقناعهم بوحدانية الله ، فإنما كان هذا بسبب أن الأصل فى الدين وكل الأديان هو (الإيمان أولا بوحدانية الله وعمل الخير) ولم يكن هذا موجوداً فى مكة ، فكان من الطبيعى أن يصرف كل همه فى ذلك ؛ وأما الدولة وقيامها وتأسيسها فقد كانت تابعة

لقيام الدين ، وتأسيس الدولة وقيامها هو الوسيلة العملية التطبيقية لتقرير هذا الدين وإقراره والدعوة إليه ، وهل تتأسس دولة بلا أتباع ؟

ولذلك حين أحس الرسول (ﷺ) أو عرف بوحى من الله أن أهل مكة لن يجد منهم بعد هذا كله إلا الصد والمحاربة والبطش به وبأصحابه ، انتقل إلى موقع آخر يستطيع منه أن يتحرك وأن يخطو خطوات أوسع .

وهذه سنة الله مع الأنبياء والمرسلين جميعا ، بل تكاد تكون الهجرة عن الوطن فى سبيل الدين من أهم مظاهر الرسالة القوية فى بيت إبراهيم عليه السلام ، وكان هو أول من اشترعها لأبنائه الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام .

فقد هاجر إبراهيم من أرض الجزيرة بالعراق إلى الشام وإلى مصر وإلى الحجاز ، حيث يجد للحق أعواناً ولكلمة الله أنصاراً ، كذلك هاجر موسى ببنى إسرائيل عن مصر وهاجرَ عيسى من الناصرة وفرّ إلى كفر ناحوم حين أرادوا قتله وإلقاءه من فوق الجبل وخرج من بينهم وهو يقول : (ليس نبى مقبولا فى وطنه)[1] .

وكان هذا الأمر كان معروفاً مقرراً حتى يقول ورقة بن نوفل لرسول الله (ﷺ) فى مبدأ الرسالة (ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فيقول الرسول أو مخرجى هم ؟؟ فيقول ورقة نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودى .

بل إنا نلمح ذلك من الآية الشريفة ، ونلمح منها أيضاً أن الهجرة من أولى علائم فوز الدعوة وأمارات انتصارها ..

﴿وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لايلبثون خلافك إلا قليلا ، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا﴾[2].

(١) انجيل يوحنا الاصحاح الرابع ـ ٤٤ .
(٢) الاسراء ٨٦ ـ ٧٧

كذلك فإن المدينة كانت تختلف عن مكة ، فهو فى المدينة صاحب الأمر والنهى فيها ، لا تقف فى طريقه عقبة وليست أمامه قوى كبرى تمنعه من التقنين والتشريع للدولة الجديدة .

وكان طبيعياً أن يتهم الرسول (ﷺ) كصاحب دولة ودعوة ، بالقوة التى تحمى له هذه الدولة وهذه الدعوة .

كما قلنا كان الرسول (ﷺ) محاطاً بالأعداء من كل جانب ، والقبائل العربية المحيطة بالمدينة كانت لاتزال على شركها وربما فكرت فى غزو المدينة أو اختلاطها .

لهذا وبعد وصول النبى إلى المدينة بحوالى سبعة أشهر فقط وبعد استقرار أصحابه المهاجرين واطمئنان كل واحد منهم على مكان اقامته وطريقة معيشته رأينا الرسول يبدأ فى إرسال السرايا العسكرية التى يمكن أن نسميها بمفهوم هذا العصر (مظاهرات عسكرية أو مناورات حربية) . وهى التى تتقدم عادة لإعلان الحرب بين الدول فى هذه الأيام وإذا كان بعض المؤرخين يرى أن هذه السرايا لم تكن أكثر من سرايا استطلاع ، فانى أقول بأن سرايا الاستطلاع لا تكون بهذا العدد ، كما أن الاستطلاع عادة يكون فى حالة تخفّى وبأعداد أقل من هذا بكثير .

وحتى على فرض أن المسلمين كانوا يبغون من وراء تسيير سراياهم هذه التحرش بقريش (دولة مكة) والانتقام منها وسلبها أموالها .

فإن المسلمين كان من حقهم أن يفعلوا ذلك وأن يستردوا الأموال التى سلبتها مكة منهم ، وحالة الحرب قائمة بالفعل بين المسلمين وبين القرشيين ، والمسلمون معتدى عليهم ، وبعض المسلمين فى مكة مضطهدين ولا زالوا يقاومون ويعذبون ، ولا زالت قريش تقف فى طريق الدعوة وتحاربها بشتى الطرق ، بل لعلها كانت تحرض قبائل العرب الأخرى وهم أحلافها وتحاول ما استطاعت القضاء على الدولة والدعوة .

ولم يكن هذا بممنوع ولا غير معترف به فى القديم أو الحديث ، فهو من

مثل مصادرة الدولة لأموال أعدائها فى حالة قيام حرب فعلية أو غير فعلية وانقطاع العلاقة بين دولتين يجوز لكلتيهما أن تحجز ماعندها من أموال الدولة الأخرى ، بل يجوز لها أن تأسر الذين فى بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل الأموال المحجوزة ضمانا لسداد المغارم التى تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل مايعامل به المعتقلون من أبنائها فى سجون الدولة الأخرى[1] .

وقد حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يدافع عن موقف الرسول من إخراج هذه السرايا وإثبات أن هذه السرايا لم تكن للسطو على القوافل كما كانت العادات الشائعة فى جزيرة العرب قبل الإسلام .

ومع أن لى رأى آخر فى خروج هذه السرايا ، إلا أن الرسول لو كانت نيته الإستيلاء على قوافل قريش المارة بطريق المدينة فإن القانون يعطيه هذا الحق . فحالة الحرب كما قلنا كانت قائمة بين المسلمين والمشركين وأموال المسلمين المهاجرين انتبهت وصودرت ، والمسلمون المستضعفون لايزالون فى مكة يعذبون ويفتنون فى دينهم ، فلا جرم ولا اعتداء حينما تخرج هذه السرايا تناوش هؤلاء أو حتى تقاتلهم وتستولى على مامعهم من أموال تعويضاً لهم عن أموالهم وحملا للمشركين على تغيير موقفهم من الإسلام والمسلمين .

ولقد هاجم الرسول القوافل القرشية فى ذهابها إلى الشام وعودتها منه ، وأعتقد أنه لم يكن برغم ذلك وبرغم حقه فى الإستيلاء على هذه القوافل ومصادرتها كما قلنا الاستيلاء حقيقة على هذه القوافل ، وإنما أراد بذلك مجرد تخويف قريش وإرغامها على مهادنته ومسالمة المسلمين ولذلك انتظر الرسول ﷺ هذه المدة دون أن يتعرض لقوافلهم رغبة منه فى محاسنة قريش ، وترك الصادر والوارد من تجارتهم دون أن يتعرض له علّ ذلك يؤثر فيهم فيحملهم إلى مقابلة الجميل بمثله والإحسان فى معاملة من بقى من المسلمين فى مكة .

لكنهم لما ظلوا على موقفهم العدائى اضطر الرسول إلى اتخاذ هذا الموقف

(١) عبقرية محمد (العقاد) ص ٤٩ ، ٥٠ بتصرف .

منهم ، ولم يكن على ماأعتقد يبغى الدخول معهم فى حرب ، ولكن كل ما كان يؤمله ويرجوه أن تؤثر هذه السرايا فى قريش فيضطرون إلى مسالمته وترك الحرية للدعوة وعدم الاعتداء على مستوطنى مكة من المسلمين .

ولم يخرج المسلمون من المدينة إلا بعد أن جاءتهم الأخبار المفصلة عن القافلة وعن عدد رجالها وعما تحمله ، وقد كان بينهم عدد غير قليل اشتغل بالقوافل وشرّق وغرّب وأنجد وأتهم ، أى أنهم كانوا مستعدين عند خروجهم فى كل مرة لأنهم كانوا يعرفون استعداد المكيين الذين كانوا يحتاطون دائماً لكل احتمال خصوصاً مع قوافلهم التى كانوا يخشون عليها السلب والنهب .

وقد روى كثير من المؤرخين أن السرية الأولى التى أرسلها الرسول ﷺ وكانت مكونة من ثلاثين مهاجراً على رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول قد خرجت للقاء قافلة لقريش والاستيلاء عليها إذا أمكن ، إلا أنى أستبعد أن يكون خروج هذه السرية لهذا السبب خاصة إذا عرفنا أن المكيين كانوا يحتاطون دائماً لكل احتمال خصوصاً مع قوافلهم التى كانوا يخشون عليها السلب والنهب ؛ ولذلك فقد روى أن عدد رجال هذه القافلة كان ثلاثمائة رجل يقودهم أبو جهل زعيم بنى مخزوم وأعدى أعداء المسلمين[1]

وقد قالوا عن هذه القافلة أن الجميعين التقيا على ساحل البحر الأحمر قرب العيص فى ديار جهينة واصطفّا وكاد القتال أن ينشب بينهما لولا توسط مجدى بن عمرو الجهنى الذى حال دون اشتباك الفريقين[2] .

ولاشك أن ما حدث كان انذار لقريش بظهور المسلمين وتهديداً لهم بأن المسلمين يستطيعون منازلتهم وقتالهم إذا استمروا على عدائهم ، ولا يعنينا أن نتحدث بتفصيل عن هذه السرايا ولا عن وقائعها ، كل ما هنالك أننى رغبت فى توضيح موقف الرسول من أهل مكة ومدى ماصنعته هذه السرايا السلمية فى تدعيم كيان الدولة وفى حرية الدعوة ، فقد ثبت أن الرسول استمر فى

(١) راجع القصة (ابن هشام) ص ٥٩٥ القسم الأول .
(٢) المرجع السابق .

إرسال هذه السرايا وأرسل سريتين أخريين بمعدل سرية كل شهر ، وقد خرج الرسول ﷺ بعد عودة السرية الثالثة بشهرين أى فى صفر فى نهاية العام الأول للهجرة[١] خرج بنفسه على رأس ستين مهاجراً قاصداً (ودان وهى قرية فى شمال المدينة قرب (الأبواء) ولذلك سموا هذه السرية غزوة الأبواء[٢] .. ورأيى أن الغاية من هذه الغزوة أو السرية[٣] ، نفس الغاية من إرسال السرايا الثلاث .. أى ازعاج قريش ولفت أنظارها إلى قوة المسلمين وإلى محاولة التفاهم معهم ومسالمتهم ؛ ومع أن رسول الله ﷺ لم يدرك القافلة ، التى أرى أنه تعمد عدم الإلتقاء بها ، وإن كان قد أن يفهم العرب أنه خرج لمصادرة هذه القافلة أو فهموا هم ذلك . إلا أن الرسول برغم عدم إدراكها والحصول عليها أصاب فوزاً سياسياً وعسكرياً لا يستهان به أعتقد أنه كان المقصود الأول من خروجه ، وهو يدل على شدة يقظة الرسول وبعد نظره وسياسته الحكيمة ، فقد عقد الرسول أول محالفة بينه وبين إحدى قبائل الشمال مما يدل على أن التخطيط المحمدى كان تخطيطاً دقيقاً محكماً وكانت هذه المحالفة ؛ مما سيظهر لنا عند الإطلاع على نصها ؛ من ضرورات الأمن للدولة الإسلامية ، لا لحماية الدولة فقط ، وإنما للتمكين للدعوة نفسها من أن تشق طريقها بين القبائل العربية ، وحتى لا تقف هذه القبائل عقبة فى طريق نشرها وانتشارها كما وقفت قريش فى طريقها فى مكة .

(هل أفادت السرايا الدعوة الإسلامية ؟) :

أثبت المؤرخون أن النبى ﷺ اتصل وهو فى ودان بمخشى بن عمرو الضمرى سيد بنى ضمرة وعقد معه عقداً تعهد فيه المسلمون بالدفاع عن بنى ضمرة إذا هوجموا وبأن لا يقاتلوهم[٤]، وهذا نص المعاهدة :

(١) ابن هشام ٥٩١ القسم الأول .
(٢) المرجع السابق .
(٣) اصطلح المؤرخون الاسلاميون على اطلاق لفظ سرية على كل قوة عسكرية سيرها الرسول بقيادة أحد رجاله أما التى يقودها بنفسه فقد أسموها غزوة .
(٤) زاد المعاد ص ٨٣ جـ ٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم بسوء بشرط أن لا يحاربوا فى دين الله مابلّ بحر صوفة ؛ وأن النبى إذا دعاهم لنصر أجابوه عليهم بذلك ذمة الله ورسوله .

ولو حاولنا تحليل نص هذه المحالفة التى عقدها مع بنى ضمرة لوجدنا أنها محالفة عسكرية بالمعنى المفهوم من التحالف العسكرى فى اصطلاح عصرنا .

لقد نصت هذه المعاهدة على تعهد كل فريق بالدفاع عن الآخر فى حالة الدفاع والهجوم . فالنص يقول : وأن لهم أى بنى ضمرة النصر على من رامهم بسوء ، وأن النبى إذا دعاهم إلى نصر أجابوه ، ولكن الرسول ﷺ شرط عليهم ألا يحاربوا فى دين الله حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم أو حاول الاعتداء ، وفى هذا إبعاد للعقبات التى يمكن أن تقف فى طريق الدعوة الإسلامية ، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بنى ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين أو يقفوا فى طريقه ؛ وبهذه المعاهدة أصبح بنو ضمرة أول قبيلة حجازية مالت إلى المسلمين وحالفتهم دون أن تدخل فى الدين الجديد ، وتعتبر فوزا سياسياً وعسكرياً للمسلمين لا يستهان به بالنسبة لحالتهم فى تلك الأيام .

وودان هذه تقع فى شمال المدينة قرب الأبواء كما قلنا ، بينها وبين المدينة حوالى ٢٨ كيلو مترا[١] ، وخروج النبى إلى هذه المسافة وتحالفه مع بنى ضمرة أو مع غيرهم يعطينا معنى من معانى الحيطة والحذر الذى كان يعمل له الرسول ﷺ فهو يريد أن يؤمن الدولة ويفتح مجالا للدّعوة فى جميع بلاد العرب وهو مطالب بتبليغ الرسالة ، ولا مجال لتبليغها إلا باتخاذ هذه الوسائل السياسية والعسكرية معاً .

ويخرج الرسول ﷺ فى الشهر التالى أى فى ربيع الأول يقود مائتين من المهاجرين حتى يصل إلى بواط وهو مكان قريب من ينبع ، وتبعد ينبع عن المدينة حوالى ٢٣ كيلو مترا إلى الغرب[٢] .

(١) أمين سعيد ص ٤٤ .

(٢) زاد المعاد ص ٨٣ جـ ٢ وأمين سعيد ص ٤٧

المؤرخون يقولون أنه خرج يطلب قافلة لقريش بعد أن علم من مصادره الخاصة أنها على وشك المرور من هناك ، ولكنى أرى أن الرسول ﷺ كان ظاهر خروجه طلب القافلة ، إلا أنه كان ينظر إلى أبعد من هذا بكثير ، فالرسول خرج إلى مكان بعيد جداً عن المدينة والقوافل القادمة ، من مكة والشام تمر قريباً من المدينة ، ولم يكن فى حاجة إلى المغامرة بالابتعاد عنها هذه المسافة الطويلة ، فلم لا يكون قصده بهذه المظاهر العسكرية إرهاب القرشيين وإنذار من تسول له نفسه من القبائل المنتشرة فى جزيرة العرب محاولا الاعتداء على المسلمين أو التصدى لدعوتهم ؟ ولعله رغب أيضاً فى عُقد محالفات أخرى على غرار محالفته مع بنى ضمرة ، ولاشك أن خروجهم ما كان يخلو من تأثير أدبى كبير يؤثر فى نفوس أعدائهم وفوى نفوس سكان الجزيرة العربية كلها وقد قصده النبى أيضاً ، خصوصاً وأن سكان الجزيرة كان يرقبون باهتمام عظيم نتائج هذا النضال بين محمد والقرشيين .

والملفت للنظر ، الزيادة المستمرة فى عدد أفراد هذه السرايا التى بدأت بثلاثين محارباً فى سرية حمزة ثم ارتفع إلى الستين فى السرية الثانية ، ثم هبط إلى العشرين ، ثم ارتفع مزة ثانية إلى الستين فى غزوة الأبواء ، ثم هاهو يرتفع إلى المائتين ، وهو تقدم يدل على أن المسلمين كانوا يعملون بدون انقطاع على تنمية جيشهم .

ولقد وجدنا الرسول ﷺ يخرج بعد فترة قصيرة من خروجه إلى بواط قيل فى جمادى الأولى وقيل فى جمادى الآخرة[1] ، إلى أقرب مكان إلى مكة بلغته سرايا المسلمين العسكرية منذ بدأوا تسييرها ، فقد وصلوا إلى (العشيرة) على رأس مائتين من المهاجرين ، وقالوا أيضاً أنه خرج لمصادرة قافلة قريش التى لم يلتق بها ، ورأيى أيضاً فى سبب الخروج وهو رأيى السابق ، خصوصاً وقد رأينا الرسول (ﷺ) وقد عاد بعد أن وادع بنى مدلج من سكان هذه الناحية وعاهدهم على ماعاهد عليه بنى ضمرة ولم يعد إلى المدينة إلا بعد مرور شهر

(١) راجع ابن هشام ص ٥٩٩ ، زاد المعاد ص ٨٣ جزء ٢ وفيه أن عدد المسلمين ١٥٠ فقط .

وبضعة أيام[1] قالوا ظل الرسول فيه يدرس حالة قريش ويستقصى أخبارها[2] .

ولكنى أقول لعله ظل هذه المدة الطويلة يحاول الإتصال ببعض القبائل والتفاهم معهم ؛ خصوصاً وأن تقصى الأخبار ليس فى حاجة إلى هذه المظاهرة العسكرية ، ولعله أراد ببقائه هذه المدة الطويلة على رأس هذا العدد الكبير من الجيش إعلام العرب جميعاً بموقف الإسلام وقوة أتباعه ، وفى هذا عرض للدعوة أيضاً وإعلام بها ؛ خصوصاً وأن الرسول بقى خارج المدينة حينما خرج إلى الأبواء ، (١٥ ليلة) وبقى كما قلنا حين خرج إلى بواط شهراً وبضعة أيام[3] .

وحين لم تجد هذه السرايا والمظاهرات فى حمل قريش على اتخاذ موقف المسالمة من الإسلام والمسلمين ، ووصل الأمر إلى تحدى قريش للرسول واستهتارها بهذه السرايا والغزوات . وجاءت بجيشها إلى قرب المدينة عند بدر برغم معرفتهم بنفلت القافلة التى خرج الرسول ومعه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار للاستيلاء عليها ، كان لابد والرسول فى هذه الحالة مدافع لا مهاجم . من الصدام الحربى المسلح بين المسلمين والمشركين والذى انتهى بهزيمة المشركين هزيمة منكرة فى أول لقاء لهم مع جيش محمد (ﷺ) .

ولقد كان الرسول يرغب فى مهادنة كل القبائل العربية ومسالمتهم ولم يكن لديه مانع أيضاً من أن تسالمه قريش ، بل إنه كان يتمنى ذلك ويعمل له ؛ ويرجو أن تتركه يبلغ رسالات ربه ، ولكنها اتخذت موقفاً عدائياً ، وظلت تحاول مااستطاعت القضاء عليه وعلى الدعوة التى يدعو إليها .

والمتتبع للحروب التى قامت بين الرسول والقرشيين يجد أن الرسول كان دائما فى موقف المدافع لا المهاجم ، وكان موقفه من أعدائه حتى فى أثناء

(١) ابن هشام ص ٥٩٩ القسم الأول .
(٢) أمين سعيد ص ٤٧
(٣) زاد المعاد ص ٨٣ جـ ٢

حروبهم له موقفاً يتسم بالرحمة والرأفة والعدل المطلق ، فلم يقتل أسراهم ولم يتشف فى قتلاهم كما صنعوا هم ببعض شهداء المسلمين فى أحد[1] .

وقد رأينا كيف رفض أن يخلع ثنيتى سهيل بن عمرو أسيره فى بدر رغم إيذائه للرسول وهجوه والتحريض عليه وقال (لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً)[2] .

ولقد طلب الرسول من المسلمين فى بدر ألا يتعمدوا قتل عمه العباس وبعض القرشيين من بنى هاشم[3] ، لخدمتهم للرسول (ﷺ) برغم انضمامهم رسمياً لجيش الأعداء ، فقد قيل إن العباس عم النبى كان يرسل بأخبار قريش أولا بأول[4] ، لابن أخيه ، مما يفسر ابستنتاجنا السابق .

من أن العباس كان مضطراً للخروج مع المشركين فى بدر حين صدر الأمر من حكومة قريش بالنفير العام ، بل إن الرسول علل سبب أمره بعدم قتل العباس فى بدر بأنه أكره على الخروج فقال :

(من لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنما خرج مستكرها)[5] .

ومع أن الحرب كانت تتيح للنبى (ﷺ) استرقاق أسرى الأعداء ، وكانت الشرائع الموجودة فى زمانهم تبيح هذا ويبيحه الشرع أيضاً إلا أن الرسول (ﷺ) ما عمل على استرقاق عربى قط ، وكان يتحايل بشتى الطرق لفك أسراهم واطلاق سراحهم ، لأن الرسول (ﷺ) كان ينظر إلى أبعد من هذا ، فهو يعرف أنهم حملة الرسالة من بعده ، ولعل ماصنعه الرسول (ﷺ) حين غزوه لبنى المصطلق وزواجه من (جويرية بنت الحارث) واطلاق سراح

(١) راجع تمثيل المشركين بحمزة والمسلمين ص ٩١ وما بعدها ابن هشام القسم الثانى .

(٢) راجع ما نزل فى النهى عن المثلة (ابن هشام) ص ٩٦ القسم الثانى .

(٣) حياة محمد (هيكل) ص ٢٣٢

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٤

(٥) أمين سعيد ص ٧٨ ، ابن هشام ص ٢٦٩ القسم الأول وفيه أيضاً نهيه عن قتل أبى البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد .

الأسرى منهم دليل على ذلك[1] كما أن موقفه من أهل مكة بعد فتحها وصل إلى أكثر من هذا فهو لم يوافق على استرقاق المكيين برغم أن فتح مكة كان عنوة وليس صلحاً[2]، بل إنه رفض أن ترد أملاك وأموال المهاجرين من المسلمين التى استولى عليها أهل مكة قبل الهجرة[3].

وأعاد سبايا هوازن إليهم وألح كثيرا على المسلمين فى أن يطلقوا السبايا برغم أنها أصبحت شرعاً ملكاً لهم ووعدهم بتعويضهم عنها[4]

فالرسول لا يحب الحرب للحرب ويكره أن يراق دم عربى مسلماً كان أو مشركاً طالما هناك وسيلة لمنع إراقة هذا الدم .

والله أعلم ،،،،،

(١) راجع غزوة بن المصطلق ص ٢٨٩ ومابعدها ابن هشام القسم الثانى .
(٢) راجع زاد المعاد ٦٩ ، ١٧٢، جـ ٢
(٣) المرجع السابق ص ٦٩ جـ ٣.
(٤) ابن هشام ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠ القسم الثانى .



المراجع مرتبة حسب الحروف الهجائية

اسم المرجع	اسم المؤلف
(أ)	
١- القرآن الكريم	
٢- الاناجيل الأربعة	
٣- امتاع الأسماع	المقريزي
٤- أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر	علي الطنطاوي وناجي الطنطناوي
٥- الإسلام والنصرانية	الإمام محمد عبده
٦- الإسلام في الواقع الايدلوجي المعاصر	الدكتور محمد البهي
٧- الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم	حامد عبد القادر
٨- الإسلام والثورة الاجتماعية	صابر عبد الرحمن طعيمة
٩- الإسلام في عز العرب	محمد كرد علي
١٠- الادارة العربية	س . أ . ق حسيني - ترجمة ابراهيم العدوي
١١- الأزاهير المضمومة في الدين والحكومة	الشيخ أمين ظاهر خير الله صليبا
(ب)	
١٢- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	محمود شكري الألومي
(ت)	
١٣- تفسير القرطبي	أبي محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
١٤- تفسير القرآن العظيم	الإمام اسماعيل بن كثير
١٥- تفسير القرآن الحكيم - الشهير بتفسير المنار	الشيخ محمد رشيد رضا

اسم المرجع	اسم المؤلف
١٦- تيسير الأصول	ابن الديبع الشيباني
١٧- تاريخ التشريع الإسلامي	الشيخ عبد الوهاب خلاف
١٨- تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي	الدكتور حسن ابراهيم
١٩- تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلي نهاية الدولة الأموية	المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة
٢٠- تاريخ التمدن الإسلامي	جورجي زيدان
٢١- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية	الدكتور أحمد شلبي
٢٢- التاريخ السياسي للدولة العربية	الدكتور عبد المنعم ماجد

(ج)

٢٣- الجهاد	أبحاث المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية مطبوعات المجمع

(ح)

٢٤- حقيقة الإسلام وأصول الحكم	الشيخ محمد بخيت المطيعي
٢٥- حياة محمد	دكتور محمد حسين هيكل
٢٦- حياة الصحابة	الشيخ محمد يوسف بن محمد الياس الكاندوهلي

(خ)

٢٧- الخلافة والإمامة ديانة وسياسة	عبد الكريم الخطيب

اسم المرجع	اسم المؤلف
(د)	
٢٨- دراسات إسلامية	عبد المتعال الصعيدي
٢٩- دولة القرآن	طه عبد الباقي سرور
٣٠- ديوان العير وتاريخ المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)	ابن خلدون
٣١ - الدعوة إلي الإسلام	سير توماس أرنولد ترجمة د/ حسن ابراهيم وآخرين
٣٢- الدعوة الإسلامية لتحقيق السعادة وإقرار السلام	بحث الدكتوراه / د/ أحمد غلوش سنة ١٩٧١
٣٣- الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه	الشيخ عطية صقر
(ر)	
٣٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم	الالومي
٣٥- رسائل الإسلام	الشيخ محمد الخضر حسين
(ز)	
٣٦- زاد المعاد في هدي خير العباد	ابن القيم الجوزي
(س)	
٣٧- سيرة الرسول	محمد عزه دروزه
٣٨- السيرة النبوية	ابن هشام
٣٩- السيرة النبوية	ابن كثر
٤٠- السياسة الشرعية	الشيخ عبد الوهاب خلاف

اسم المرجع	اسم المؤلف
(ص)	
صحيح مسلم	شرح النووي
(ع)	
عبقرية محمد	عباس العقاد
العبقرية العسكرية في غزوات الرسول	محمد فرج
العقيدة والشريعة	المستشرق : اجناس جولد تسيهر ترجمة د/ محمد يوسف وآخرين
(ف)	
فقه السيرة	الشيخ محمد الغزالي
· الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي	د / محمد البهي
(ق)	
قصة الحضارة	(ول ديورانت) ترجمة محمد بدران
(م)	
· محمد رسول الله	(مولاى محمد علي) ترجمة مصطفي فهمي وعبد الحميد جودة السحار
· مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام	محمد أحمد الشريف
· مذكرات في التاريخ الإسلامي	محمد حبيب أحمد
· المختار من تيسير الوصول في شرح أحاديث الرسول مع شرح للأحاديث	المرحوم الدكتور / محمد عبد الله دراز

اسم المرجع	اسم المؤلف
٥٢- الملل والنحل	المرحوم / محمد فتح الله بدران
(ن)	
٥٣- نظام الحكم في الإسلام	الدكتور / محمد يوسف موسي
٥٤- نشأة الدولة الإسلامية	أمين سعيد
٥٥- نظرية الدولة	د/ طعيمه الجرف
(و)	
٥٦- الوحي المحمدي	محمد رشيد رضا
٥٧- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفي	السمهودي
٥٨- الوزراء والكتاب	الجهشياري
(ي)	
٥٩- اليهود في موكب التاريخ	صابر طعيمه

الفهرســـــت

صدر عن دار الحقيقة

تحديد النسل جريمة فى حق الدين والوطن

د. عبد الغفار عزيز

الدين والسياسة فى الاديان الثلاثة

د . عبد الغفار عزيز

الإله فى فكر البشر ووحى السماء

د . عبد الغفار عزيز

الإسلام السياسى بين الرافضين له والمغالين فيه

د . عبد الغفار عزيز

تلخيص تلبيس إبليس

حمدى عبد الرازق

فكر الثورة الإسلامية عند سيد قطب

إيفون حداد

ترجمة مركز الدراسات والترجمة

أسئلة معاصرة وإجابات سلفية

ممدوح الشيخ

تحت الطبع

الجهاد فى ضوء الكتاب والسنة

د . عبد الغفار عزيز

السلام فى الإسلام

د . عبد الحى الفرماوى

الجهاد خلال ثلاثة تفسيرات

د . أحمد مغنى

ترجمة مركز الدراسات والترجمة .

الشهادة الثانية (صرخة فى وجه الظلم)

الشيخ صلاح أبو اسماعيل

إعداد: أحمد هريدى محمد

عبقرية الأداء فى شعر المتنبى

أحمد بخيت

شطحات المتصوفة

حمدى عبد الرازق

من شيخ معمم إلى حاكم مسلم

د . عبد الغفار عزيز

مذكرات نائب مسلم فى البرلمان

د . عبد الغفار عزيز

دار الحقيقة للإعلام الدولي

١٧ شارع الدكتور عبد الغفار عزيز - دار السلام
القاهرة
تليفون ، فاكس : ٩٨١١١٩

هذا الكتاب

* من التجني على الديانتين السابقتين أن ننفي عنهما أنهما مشتملتان على أمور الدين والدنيا ، وخاصة أن الدين واحد ، والأساس الذي تدعو إليه الأديان كلها واحد ، والدليل على اشتمالهما على الأمرين موجود ، وفي القرآن نفسه .

* عمل الرسول على تأسيس الدولة من أول يوم بعثه الله فيه، حيث كانت ضرورة من الضرورات وجزءاً من رسالته كما كانت جزءاً من الرسالات السابقة .

* كيف يمكن اعتبار الصلاة والزكاة وبقية الفرائض ديناً فقط، والنظر إلى إقامة الحدود والنظام العام للحكومة كجباية الأموال ووجود القضاء وتنفيذ أحكامه ، وسياسة الدولة الداخلية والخارجية على أنها سياسة فقط ؟؟؟

* صيغ التنظيم الإداري للدولة في عهد النبي الحاكم ليكون منهاجاً وأساساً وخطة عمل للمسلمين بعد ذلك . واعتمد الرسول على الدستور الدائم لهذه الدولة " **القرآن الكريم** " باعتباره الأساس الأصلي لكل القوانين والتشريعات التي يحتاج إليها الناس في حياتهم .

* ابتعاد الرؤساء المسلمين عن قوانين الإسلام وتعاليمه جهل بسماحة شرعه وسعة قواعده وتقليد أعمي للغربيين الذين أرادوا أن تنفصل الشعوب الإسلامية عن دينها وأن تضيع هيبتها . وإذا كان على غير هؤلاء الرؤساء تبعة فهي على أهل الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها إذا أهملوا علاجهم ولم يبذلوا في دعوتهم إلى مبادىء الإسلام جهدهم .

د / عبد الغفار عزيز .

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٩/١٩٠٩